محمد عرابي

هذا العدد

في هذا العدد ملفان رئيسيان، الأول، يضم ثلاث مقالات جزائرية حول الأنوثة ومكانتها داخل الثقافة العربية والاجتماع العربي والمرأة والكتابة وضعها كل من ابراهيم سعدي «المرأة العربية والإبداع»، البشير ربوح «في انتظار سردية نسوية عربية»، أحمد دلباني «الكتابة النسوية في الجزائر». المقالات هنا تثير جملة من القضايا الشائكة المتعلقة بالميزات المستجدة لنصوص المرأة، وبالقضايا التي تشغل أدبها وفكرها، وبتاريخ الكتابة النسوية العربية والتحولات التي شهدتها، وبأوضاع المرأة في لوحة التمايزات المجتمعية العربية وأثرها في ثقافة المرأة ومغامرتها في الكتابة.

الملف الثاني يضم 65 كاتبة وكاتبا من لبنان ومصر وسوريا وفلسطين والأردن والمغرب والعراق وتونس والجزائر وبلدان عربية أخرى، رووا وقائع وحوادث ومشاهدات وذكريات عاشوها أو كانوا شهوداً عليها في مراحل مبكرة من طفولتهم قبل سن الثالثة عشرة تركت في أشخاصهم آثاراً لا تمحى.

نتعرف من خلال هذه النصوص التي كتبت خصيصا لـ«الجديد» على لوحات طفولية تمكننا من معرفة أفضل بأصحاب الأقلام التي كتبتها، بل ربما تضيء بشكل ما جوانب من شخصياتهم وأدبهم، سيما وأن غالبية المشاركين في هذا الملف هم من القاصين والروائيين والشعراء والنقاد العرب، بينهم من حاز على الشهرة، وبينهم من هم من الطالعين.

وفي العدد عروض كتب عربية وأجنبية ورسالة ثقافية من باريس.

بهذا العدد تواصل «الجديد» مغامرتها في استكشاف ممكنات الحياة الفكرية والإبداعية العربية، منفتحة بقوة على مغامرة الكتابة والتفكير الحر، ومنادية الأقلام العربية إلى بلورة مشروع مراجعة نقدية عربية جادة للفكر والأدب والاجتماع في ظل حاضر عربي وعالمي متفجر وكارثي، لم يعد يقبل أي مهادنة أو استنامة من قبل حملة الأقلام العرب ■

المحرر

الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون
تحسين الخطيب، مفيد نجم

التصميم والإخراج
ناصر بخيت

رسامو العدد:

محمد عرابي، فادي يازجي، تانيا الكيالي
ميسا محمد، عمر فهد، حسام بلان
ألفريد طرزي ، علي علي، كنانة الكود
حسام بلان، محمد الوهيبي، نعمان عيسى
رشوان عبدلكي، نايفة كريللوس
سعاد مردم، بشرى مصطفى، شادي أبو سعدة
عمر فهد، نزار ضاهر، لؤي كيالي
حسين جمعان، ربيع كيوان، نهاد الترك
ميموزا العراوي، سعاد مردم
محمود آل داؤود، أسامة جحجاح
كاظم خليل

التدقيق اللغوي:
عمارة محمد الرحيلي

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن)
Kensington Centre
Hammersmith Road 66
London W14 8UD, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com

الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.

ISSN 2057-6005

محمد الوهيبي

فادي يازجي

المحتويات

العدد 20 - سبتمبر/ أيلول 2016

ملف/ ثلاث مقالات جزائرية في الأنوثة والكتابة 8

المرأة العربية والإبداع
إبراهيم سعدي 9

في انتظار سردية نسوية عربية
البشير ربوح 16

الكتابة النسوية في الجزائر
أحمد دلباني 18

غلاف العدد الماضي يوليو/ تموز 2016

لوحة الغلاف للفنانة تانيا الكيالي

كلمة

6 سماء عامرة بالنجوم في صيف لا ينتهي
نوري الجراح

ملف/ صورة الكاتب طفلاً

20 65 كاتبة وكاتباً عربيا في آلة الزمن

22 نهاري الأول في المدرسة
أبو بكر العيادي

25 الغزالة وأطياف السراب
أحمد أبو خنيجر

26 طقوس العنف المدرسي
أحمد برقاوي

28 الحيطان الأربعة
أحمد سعيد نجم

32 المغنية العمياء توقظ شجر الشعر
أزراج عمر

36 كشاف دائما
أيمن حسن

40 الأفغاني الذي ورطني
إبراهيم الجبين

42 الصياد التائه
إبراهيم عبدالمجيد

43 من الصرصار إلى ماروادر
إيلي بورجيلي

44 شهداء ساحة الملعب
ألفريد طرزي

46 مصير حياة
باسم فرات

48 الفلقة
بدرالدين عرودكي

50 ذات يوم في احتفال وطني
تيسير خلف

52 ثلاث صور
جار النبي الحلو

54 أنا والذاكرة والتاريخ
حسام الدين شاشية

56 تدبير المحنة
من دمشق إلى بيروت
حسام الدين محمد

58 القارئة الصغيرة
حنان بيروتي

60 موت الأب
خلدون الشمعة

62 مطلع الفجر
زكي سالم

63 صور باهتة
رؤوف مسعد

64 رماد في الحلوق
رانيا الخليلي

66 نسمع بالسيارة ونتخيل بغداد بالألوان
رشيد الخيون

68 ذات عطلة صيفية
سامية العطموط

70 امرأة النور وغلام زمان
سعيد الكفراوي

72 مشاهدة الموت
سعيد خطيبي

74 سحر السينما
سلام إبراهيم

76 شرارة الطفل الخارق
سلام سرحان

78 صفحة من حياتي
سميحة خريس

80 صورة على الجدار
سهير المصادفة

82 ذكريات الطفولة
سهير شكري

84 هدية للنسيان
شرف الدين ماجدولين

86 مدرسة الأنطاكي
طه عدنان

90 ومضات بوينس أيرس
عاصم الباشا

94 علامة قيامة أم نبوءة موت
نجمةٌ في لباب شمس
عبدالرحمن بسيسو

98 رهاب الماء
عبداللطيف محفوظ

100 اللون الأخضر والفقد
عبدالله مكسور

102 طفولة الزفت
عزيز أزغاي

104 رجل في عباءة سوداء
عفاف طبالة

105 يوم الاحتفال
علي سفر

106 الكرة الممزقة
عماد المي

107 ثلاثة استثناءات فيزيائية
عمّار المأمون

108 مسبح الفقراء
عواد علي

110 ترويم جدتي
فيصل عبدالحسن

112 انتحار مؤجّل
كاتيا الطويل

114 مهنتي الأولى
كاظم خنجر

116 عصفور الحلم
لطفية الدليمي

118 صبي في السابعة
محمد جعفر

120 تلك الظهيرة القائظة
محمد حيّاوي

122 صورة الله
محمد فريد أبو سعدة

123 قضبان القطارات والنافذة والغابة
محمود حسني

124 صورة أخي
مريم حيدري

126 صديق الأبجدية السرية
مصطفى تاج الدين الموسى

128 الفرح الجديد
مصطفى لغتيري

129 استكمال جريمة الأب
مفيد نجم

130 منصة العروسين
مكاوي سعيد

132 قطة في الحديقة الخلفية
مناف زيتون

134 صورة ثلاثية عند سور المدرسة
منذر مصري

136 ابتسامة أمي
مهند عرابي

138 سيارة من ذهب
ميموزا العراوي

140 طفولة قلقة
ناصر عراق

141 ريشة لن تخذلني
نايفة كريللوس

142 أستاذ الرسم
نزار ضاهر

144 الامتحان
نصيرة تختوخ

146 الراعي الصغير والعسكر التركي
هيثم حسين

148 ماء وقصب وحريق
وارد بدر السالم

كتب

150 إشكالية العلاقة بين العرب وأوروبا
ممدوح فراج النابي

154 المختصر
كمال بستاني

157 رسالة باريس
فرنسا نحو حرب أهلية أم حرب تطهير
أبو بكر العيادي

الأخيرة

160 حادثة سعيدة حقا: المطالعة
هيثم الزبيدي

سماء عامرة بالنجوم في صيف لا ينتهي

منذ أكثر من عام ونحن نتفكر في «الجديد» بصيغة مبتكرة للاحتفاء بالطفولة. مر وقت ومن ثم اهتدينا إلى الصيغة الأبسط والأكثر عفوية وسلاسة أيضا؛ أن نسال الكاتبات والكتاب تدوين الواقعة الطفولية الأبقى والأكثر تأثيرا في حواسهم وأفكارهم وخيالاتهم المبكرة، بحيث ظلت تلازمهم مهما ابتعد الزمن بها.

لم يكن القصد أن يدونوا فقط ما وقع لهم شخصيا من حادث سعيد، أو مؤلم، أو عجيب، أو مؤثر على نحو مائز، ولكن ما ربما يكون قد عرض لشخص قريب منهم أو هو حدث كانوا شهودا عليه، فسكن ذاكراتهم وترك أثره العميق في نفوسهم.

على أن السفر بحملة الأقلام جهة الطفولة لم يكن ورديا دائما، فقد مر وقت، ونحن نحرض كتاب «الجديد» على الخوض في هذا المضمار، من دونما شروط، غير تلك التي تتطلبها المساحة وتفترضها صيغة النشر، وأولها عدد الكلمات.

وكما في كل مرة يكون هناك ملف في «الجديد» وكتاب مدعوون للمشاركة، لابد من عناء ما يتخلله شرح وتعليل وتشجيع، وكثير من الصبر، على رغم الحماسة الكبيرة والاستثنائية التي طالما أبداها حملة الأقلام العرب لـ«الجديد» وملفاتها على مدار عشرين شهراً من الصدور. وهو ما يجعلنا، باستمرار، فخورين بتلك النخبة من الكاتبات والكتاب الذين يتحلقون من حول «الجديد» ويساهمون دوريا في ملفاتها الفكرية والأدبية والفنية، ويثرون صفحاتها بثمار إبداعاتهم وأفكارهم.

والآن، ها نحن مع عدد يضم مقالات ونصوص طفولية لكتاب تتراوح أعمارهم بين سني العشرينات وسني الثمانينات. وفي ظني أن البعض منهم كابد وعانى حتى يتمكن من استعادة شرارة الطفولة وضوءها وظلالها، وصولا إلى تلك الواقعة التي توارت في مكان ما من ذاكراتهم. فليس الطفلي والطفولي مما هو متيسر وحاضر طوع شخص صار بعيدا عنه في هيئة رجل نضج، أو امرأة صارت سيدة ولها اعتبار اجتماعي وصورة رصينة، أين منها ذلك الكائن الطفولي الحر، البريء، اللاعب، والمحتجب المتواري وراء سنوات مما اعتبرناه خبرات وتجارب وأعمالاً أفضت بنا إلى هيئاتنا التي نحن عليها اليوم؟

ولكن هل نحن ما كنا نريد أن نكون يوم كنا أطفالاً؟ هل نحن بعض أمنيات ذلك الطفل المتواري في مكان ما من حياتنا، حزينا، محبطاً أو مخاصماً؟، هل نحن الصورة التي تطلع إليها ذلك الكائن، ولأجلها التمعت عيناه بالبريق، وأشتعل خياله بالصور، وعمرت نفسه بالأمنيات وتوهجت روحه بغوامض الشعور، أم نحن شيء آخر، صور أخرى لم تخطر على باله، ولا كانت في حسابه، أو حلمه أو تطلعه، وما نحن إلا الممكن الباهت الذي كان من المستحيل أن يخطر في باله، أو يقبل به صورة لما يريد أن يكون.

«كان ما سوف يكون». ولم يعد بالإمكان العبث بالصورة، وتبديل المصير. نحن في غد الأمس، الحاضر الذي كان مستقبلاً. والآن في آلة الزمن، نغامر جهة كوكب الطفولة، للقاء ذلك الكائن الذي تركناه هناك.

***

هناك في هذه الأوراق الطفولية ما هو مضحك وما هو مدهش أو غريب، وما هو محبط، وما هو قاس ومؤلم، وفي مجموعه ما يمكن أن يقودنا لنتعرف على كاتباتنا وكتابنا على نحو أفضل، لكونهم بذلوا جهدا في الكشف عن كائناتهم الطفولية، التي هي بالضرورة الأرومة التي تحدروا منها ليكونوا أولئك المنظورين في فرادة شخصياتهم أدباء وفنانين، ولكن هذه الأوراق،

فادي يازجي

هي أيضاً اختبار لقدرة هؤلاء على الكشف عن أنفسهم، بحثاً فيها واعترافا بها. اختبار للجرأة والحرية والأمانة، واختبار وقراءة في المسافة التي قطعوها بين الأزمنة، والطاقة التي بذلوها في مواجهاتهم الفكرية والشعورية، والمواقف التي اتخذوها من أنفسهم ومن عالمهم، ومن ثم تامل في الخيارات التي اتخذوها والسبل التي سلكوها عندما وجدوا أنفسهم في مفترقات مصيرية.

***

ليس سهلا، ولا يسيراً أن نسافر في جهة طالما أشحنا النظر عنها، وتجنبنا ما أمكننا النظر في إشاراتها وعلاماتها حتى لا نسلك الطريق جهة غواياتها الجميلة والصعبة. جهة كلما اقتربنا منها آثرنا أن نبتعد حتى لا نجد أنفسنا في صدام مع اعتراضاتها المشاكسة على ما يسوؤها فينا. إنها أعماقنا الطفلة، كائنات ما قبل القناع الاجتماعي.

***

ولكن أوليست تلك هي المنطقة التي يعيش فيها المبدعون؟ أرض الطفولة؟ أوليس الحلم وأجنحة الخيال، والاستعداد لسلوك دروب لم تطرق، والنهوض إلى المغامرة، أياً تكن النتائج، كما كنا نفعل عندما نتسلق جبلا، أو ننزل وادياً بعيداً، ومن ثم نذهب مع النهر وراء الضفة الأخرى، في تمرين للعين على المفاجأة، ولأجنحة المخيلة على سفر أبعد ينتظرنا، سفر في الأرض وسفر في المخيلة، بل وربما بالنسبة إلى بعضنا، تمرين مبكر على مصائر أليمة.

***

كم بقي منا، وهل إن أيدينا التي كبرت واخشوشنت، وكبرت وصارت حاذقة في ما تؤديه من الأعمال، ماتزال، بينما هي تمسك الصور القديمة لأولئك الأطفال، تتذكر بحواسها تلك الأيدي الصغيرة الطائشة والمترددة، الأيدي الغضة وهي تجرب أن تقبض على عالمها. هل كان جميعنا على استعداد للاحتفاظ بخيط ما، خيط خفي لم ينقطع مع ذلك الطفل؟

لطالما اعتبرت أن الأدب الباهت هو أدب أشخاص ضيعوا كائنهم الطفولي، وأن الأدب الكبير هو أدب أشخاص لم يغترب فيهم الطفل، بل لطالما امتلكوا قدراته في المشاكسة والشغب والغضب والتطرف والبراءة والدهشة والاستلقاء في العالم كما لو كان الوجود كله سماء عامرة بالنجوم في صيف لا ينتهي ■

نوري الجراح

لندن آب/اغسطس 2016

تانيا الكيالي

ثلاث مقالات جزائرية في الأنوثة والكتابة

انطلاقا من عنايتها المستمرة بوضع المرأة في الثقافة العربية ومكانة الأنوثة داخل الاجتماع والتفكير العربي، تنشر "الجديد" في هذا الملف ثلاث مقالات كتبها نقاد وأكاديميون جزائريون كاستهلال مبكر لملف واسع تحضر "الجديد" لنشره مستقبلا تحت عنوان "الأنوثة والثقافة/المرأة والكتابة". كتب المقالات في هذا الملف الاستهلالي ابراهيم سعدي «المرأة العربية والإبداع»، البشير ربوح "في انتظار سردية نسوية عربية"، أحمد دلباني "الكتابة النسوية في الجزائر". المقالات هنا تثير جملة من القضايا الشائكة المتعلقة بالميزات المستجدة لنصوص المرأة، وبالقضايا التي تشغل أدبها وفكرها، وبتاريخ الكتابة النسوية العربية والتحولات التي شهدتها، وبأوضاع المرأة في لوحة التمايزات المجتمعية العربية وأثرها في ثقافة المرأة ومغامرتها في الكتابة، بكل ما ظل يفرضه ذلك من تعرية للذات في النصوص، ومن محاولات لبلوغ مآرب وتحقيق طموحات طالما واجهت المرأة لأجلها المصاعب واعترضت طريقها السدود وانتشرت تحت قدميها الأشواك ■

قلم التحرير

المرأة العربية والإبداع

إبراهيم سعدي

عندما نتحدث عن العالم العربي كثيرا ما نصفه بأنه مجتمع لا يزال يعيش في الماضي، مقطوع الصلة بالعصر. وبالرغم من أن هذا التوصيف ليس بعيدا عن الصواب في العديد من النواحي، ومن ضمنها نواح ذات أهمية بالغة، إلا أن هناك مجالا لا يمكن القول بشأنه بأنه لم يشهد أيّ تغيير. و نقصد هنا مجال مشاركة المرأة في الإنتاج الثقافي داخل المجتمع بالقياس إلى ما كان عليه الأمر في الماضي، فإذا ما قارنا الحاضر بالسابق، نجد فرقا واضحا في هذا المجال.

وتبدو الكتابة بمعناها الأدبي، وربما الروائية منها بالأساس، المجال الأبرز لتحول المرأة العربية إلى ناشطة ومنتجة للثقافة ومشاركة للرجل في هذا الحقل الذي ظل، ولقرون، حكرا على الرجل بالدرجة الأولى في الثقافة العربية. وقد عكس هذا التحول بروز مفهوم "الأدب النسائي" أو "الكتابة النسائية"، ذلك أن ظهور هذا المصطلح ليس سوى تعبير عن هذه الظاهرة "الجديدة" المميزة للعصر الحديث المتمثلة في "انبثاق" المرأة كذات فاعلة في مجال الكتابة والثقافة عامة، ودلالة على تغير دورها وموقعها في المجتمع على مختلف الأصعدة في العصر الحديث.

غير أن مفهوم "الأدب النسائي" يضعنا أمام مفارقة لعلها ليست خالية من الدلالة، ففي الوقت الذي يشير المصطلح إلى الاعتراف بحضور المرأة اليوم كذات مشاركة في إنتاج الأدب والثقافة، فإن تعريفه بمصدره، أي بأنثوية منتجيه، يحدد نوع وحدود هذا الحضور كهامش بالقياس إلى المركز الذي هو في غنى عن التعريف، إذ لا وجود لمصطلح "الأدب الذكوري" الذي لا يمكن في الحقيقة دونه أن يكون هناك معنى للمفهوم الأول، فالاختلاف هو ما ينتج المعنى. وهكذا يمكن القول إن مفهوم "الأدب النسائي" ينطوي ضمنيا على فكرة المركز والهامش، بالرغم من أن هيلين سيكسوس هي أول من أطلق مصطلح "الكتابة النسائية" سنوات 1970. ولهذا لا نستغرب أن تكون الكاتبات، مثل السورية غادة السمان والجزائرية أحلام مستغانمي، هن أول من يتحفظ على هذا المصطلح.

ذكورية التاريخ الثقافي العربي

لا نبالغ كثيرا إذا قلنا بأن حضور المرأة في التاريخ الثقافي العربي هو حضور ضعيف، فهذا الأخير هو تاريخ ثقافي ذكوري بالأساس، بالرغم من أنه لا يعدم وجوها نسائية في الشعر بالخصوص، مثل الخنساء ورابعة العدوية في المشرق وولّادة وليلى الأخيلية في الأندلس، ولكننا لا نجد في المقابل أسماء أنثوية لها على الأقل نفس حضور الرجل تاريخيا في المجالات الثقافية والمعرفية الأخرى، كعلوم الدين والفلسفة وعلم الكلام أو في مجال التاريخ وما إلى ذلك، بالرغم من أن المكتبة العربية لا تزال تفتقر إلى مؤلفات حول إسهام المرأة العربية المسلمة في المجال الثقافي.

والحقيقة، أنه ليس هناك ما يثير الاستغراب في هذه المكانة الثانوية للمرأة في التراث الثقافي العربي بالنظر إلى دونية مكانتها في المجتمع مقارنة بمكانة الرجل واستبعادها من الفضاء العام الخارجي الذي كان يهيمن عليه الرجل. وأيضا بالنظر إلى نموذج المرأة المثالي الذي صاغته الثقافة الذكورية الشرقية عن المرأة، كما يظهر ذلك مثلا في "كتاب النساء" لابن قتيبة حيث نجد "تركيزا واضحا على جسد المرأة في جانبه الشبقي، باعتباره موضع الفتنة والاستيهام، وكأن هذا الملمح هو الأصل في المرأة"، فصورة المرأة المثالية في التراث العربي، كما يؤكد الباحث المغربي مصطفى الغرافي في دراسته المعنونة «المرأة ونظام الثقافة: هيمنة الذكورة»، تختزل في "الجسد الجميل الذي يمنح اللذة ويحقّق الإمتاع»، وبالتالي فإن عنوان المرأة وقيمتها المرجعية الأولى تتمثل في الجمال، ولذلك لم يُعتبر العقل، في الثقافة العربية التقليدية، فضيلة نموذجية مطلوبة لدى المرأة، وعليه "استُحسنت فيها قلة التفكير وغياب العقل، لأن التفكير يجهد النفس ويذهب بنضارة الروح وطراوة الجسد"، كما يضيف مصطفى الغرافي في بحثه، مستندا إلى قول لابن المقفع عن المرأة النموذج. وعلى أيّ حال فإن الثقافة العربية التقليدية لم تعتبر العقل ميزة أو سمة أصيلة في المرأة، إذ "تجعل العقل من نصيب الرجل"، أما المرأة فهي كما أظهرتها بعض المرويات "كائن منقوص

العقل والدين"، يغلب عليه الهوى والعاطفة.

وفي مثل هذا التصور الذي صاغه خطاب الهيمنة الذكورية، والذي يصوّر الآخر وفق مصالحه ورغباته وسلطته، شأنه في ذلك شأن كل خطاب هيمنة، لا يُستغرب أن تكون مساهمة المرأة محدودة في الحياة الثقافية والفكرية العربية، فالمرأة على أيّ حال، من وجهة نظر هذا الخطاب الذكوري المهيمن، لا تملك لا المؤهلات الطبيعية الكفيلة بالسماح لها بالمساهمة الفعالة في الحياة الثقافية والفكرية، بسبب افتقارها المفترض إلى العقل، ولا السيد، ونقصد به القيم الذكورية المهيمنة، يرغب أصلا في هذه المشاركة، تلك المشاركة التي من شأنها أن تهدد السيادة الذكورية وتقوض نظامها الاجتماعي القائم.

إخراج صوت المرأة من سجنه

لكن ينبغي التوضيح بأن ظاهرة "الدونية" التاريخية للمرأة على صعيد الإنتاج الثقافي، المعرفي والفكري، نشهدها في كل حضارات العالم ما قبل العصر الحديث، فالأمر لم يبدأ في التغير بأوروبا نفسها إلا مع القرن الثامن عشر. ولا شك أن تعميم مبدأ إجبارية التعليم لكلا الجنسين من الأطفال كان له دور كبير في تغيير الوضع وفي جعل مشاركة المرأة في الإنتاج الثقافي والفكري إحدى السمات البارزة التي تختلف فيها المجتمعات الحديثة عن المجتمعات القديمة.

والتطور الذي عرفته أوروبا على هذا الصعيد قد عرفته أيضا البلدان العربية، ولكن بصورة متأخرة عنها، إذ حدث هذا التحول أساسا في مرحلة ما بعد الاستقلال. ذلك أنه وإلى وقت غير بعيد كان تعليم البنت لا يحظى بترحيب كبير في المجتمعات العربية، فإذا ما حدث وأن سمحت لها العائلة بمزاولة الدراسة، كانت لا تعطى لها فرصة الذهاب إلى مراحل متقدمة في طلب العلم. وهذا التحفظ الذي أعاق تعلم البنت مرتبط بسيطرة القيم التقليدية المتعلقة بمفهوم الشرف في المجتمعات العربية، والذي كان يرى في الفضاء الخارجي، الذي تشكل المدرسة جزءا منه، خطرا أخلاقيا يتهدد المرأة حين تتخطى عتبات البيت. و"لذلك عملت الثقافة الفحولية على تقنين حركتها في الفضاءات المكانية، فالبيت هو مكانها الطبيعي الذي يناسب أنوثتها ويصون عفتها"، كما يقول مصطفى الغرافي.

وقد تحدثت الروائية الجزائرية آسيا جبار في مؤلفها "هذه الأصوات

يكفي المرء اليوم أن يزور الجامعات العربية حيث يغلب عنصر الإناث بين الطلبة، وأحيانا بشكل لافت للنظر، ليلاحظ ذلك التحول الكبير الذي حدث في رؤية المجتمع لتعليم البنات

التي تطاردني على هامش كتابتي الفرنكفونية" (مكتوب باللغة الفرنسية)، عن فعل الكتابة بوصفه إخراجا لصوت المرأة من سجن "التقاليد الشرقية" التي تحتجزه، إذ ترى آسيا جبار بأن هذه التقاليد، ولعهود طويلة قد "منعت الكتابة عن النساء"، ذلك أن "تكتب المرأة يعني أن تعرض نفسها للعيان"، وذلك يعني "أن ترث وظيفة الراقصة، أي وظيفة النساء الطائشات". وقد وردت أيضا هذه الفكرة "الشرقية" التي تربط بين تعليم البنت والانحلال الخلقي في روايتها "الحب والفنتازيا" التي تختلط فيها السيرة الذاتية بالتاريخ والخيال.

ففي هذه الرواية، يثير ظهور الأب، وهو يشدّ يد ابنته سائرا بها لأول مرة باتجاه المدرسة "الفرنسية"، شعورا يشبه الخيانة لدى الجيران، اعتقادا منهم بأنه ستنجر عن ذلك عواقب وخيمة من الناحية الأخلاقية، ذلك أن "كل عذراء عالمة تعرف الكتابة، سيصل بها الأمر بلا أدنى شك إلى أن تكتب (الرسالة)"، يعني رسالة الحب والغرام التي لن يتمكّن أيّ حارس رقيب منعها من إرسالها إلى الحبيب الموجود خارج البيت. ومن المعلوم أن تلك البنت الصغيرة (آسيا جبار)، وبعدما دخلت المدرسة، قد أصبحت فيما بعد روائية عالمية، والمرأة العربية الوحيدة التي حصلت على عضوية الأكاديمية الفرنسية، في سنة 2005.

بالطبع لم يعد اليوم مشهد أيّ فتاة صغيرة يشد والدها يدها سائرا بها لأول مرة نحو المدرسة يثير لدى الجيران ذلك السخط والاستهجان الذي تحدثت عنه آسيا جبار، إذ يكفي المرء اليوم أن يزور الجامعات العربية حيث يغلب عنصر الإناث بين الطلبة، وأحيانا بشكل لافت للنظر، ليلاحظ ذلك التحول الكبير الذي حدث في رؤية المجتمع لتعليم البنات والذي كان لا بد أن يؤدي في نهاية المطاف إلى إعادة تشكيل دور المرأة في المجتمع ككل، وفتح الفضاء العام الخارجي لها بعدما كان يقتصر في الماضي على فضاء البيت، وإلى بروز المرأة بالطبع في نهاية المطاف كفاعلة في مختلف المجالات، بما في ذلك حقول المعرفة والثقافة، الشيء الذي جعل المرأة الشرقية اليوم مرئية في الفضاء العام أكثر من أيّ مرحلة تاريخية

سابقة، مما وضع حدّا لصورتها التقليدية بوصفها امرأة الفضاء الداخلي، امرأة مرتبطة بصورة الحريم، كما صورها الخيال الاستشراقي، تلك المرأة التي "تقضي حياتها مستلقية على الأريكة [...] مزينة بالذهب والحجارة الكريمة، تدخن وتسند على الوسادة الرخوة ذراعيها اللتين جعلهما الخمول مكتنزتين..."، تلك الصورة التي تتمحور حولها لوحات الفنانين المستشرقين، على غرار "نساء مدينة الجزائر في بيوتهن" (1834)، اللوحة الشهيرة للفنان المستشرق الفرنسي أوجيني دي لاكروا .

تعرية "الذات"

وهكذا لم يعد يوجد اليوم في المجتمعات العربية مجال ثقافي، أيّا كان نوعه يخلو من حضور المرأة العربية، مما يعني أن الاعتبارات الأخلاقية التقليدية المرتبطة بالفعل الثقافي لم تعد تمارس سلطتها اليوم. وهذا يعني أنه إلى جانب أن المرأة العربية أصبحت حاضرة في الفضاء العام الخارجي، فقد أصبحت، بعدما اكتسبت حق الممارسة الثقافية بشتّى تجلياته، تملك كذلك حق التعبير عن ذاتها وبالتالي عن عواطفها ورغباتها وعالمها الداخلي، وعليه حق التكلم، وحق إسماع صوتها، وحق مخاطبة المجتمع.

ذلك أن فعل الكتابة في بعد من أبعاده الأساسية يتمثل في إتاحة أداء هذه الوظائف التي لم تكن متاحة للمرأة العربية من قبل، على الأقل على النطاق الذي أصبحت تحظى به اليوم. ويذكر الباحث الفرنسي جان ديجو في كتابه La littérature féminine de langue française au) Maghreb)، يعني "الأدب النسائي المكتوب باللغة الفرنسية في البلدان المغاربية"، أن استعمال "الأنا" مع ظهور رواية ذات مصدر نسائي بدا "تعرية غير مقبولة بالنسبة إلى رجال الدين وإلى حرّاس العقيدة" الإسلامية الذين يعتبرون أنه "من الأهمية بمكان ستر ما هو حميمي وما هو عاطفي و ألا يجري الكشف سوى عن الفحولة الذكورية". وفي نفس السياق يضيف هذا الباحث المختص في الرواية المغاربية المكتوبة باللغة الفرنسية بأنه كانت توجد ممنوعات صارمة عندما يتعلق الأمر بالتعبير والكشف عن "الأنا" النسائي الذي كثيرا ما يُربط بـ"الغواية" مما "يستوجب، في حالة ما إذا تعذر إسكاته، حمله على الأقل على الاحترام الكامل لقواعد اللياقة". ففي التراث الثقافي العربي، كما يوضح ذلك أيضا مصطفى الغرافي "لا تتكلم المرأة، في أغلب الأحيان،

كان لدخول المرأة العربية عالم الكتابة، لا سيما الروائية منها، أن سمح للمرأة بأن تكتسب حق الكلام كذات فردية تملك رغبات ومشاعر، وبالتالي أن تعرّي وتكشف عن عالمها الداخلي

باعتبارها فاعلا لغويا مستقلا، بل ظلّ الرجل هو المتكلم باسمها والمعبّر عن حقيقتها وكينونتها"، فالمرأة "مستعمرة الرجل"، وفق وصف جورج طرابيشي، في "أنثى ضد الأنوثة- دراسة في أدب نوال السعداوي"؛ وهذه الأنثى "لا تأتي إلى اللغة إلا بعد أن يسيطر الرجل على كل الإمكانات اللغوية".

هذا المنع للمرأة من التعبير عن ذاتها في الحضارة العربية الإسلامية هو ما تقصده آسيا جبار في رواياتها "الحب والفنتازيا" حين تكتب "كيف يمكن للمرأة أن تتكلم بصوت عال، [...] اللهم إلا في آخر العمر؟ كيف يمكنها أن تستعمل كلمة 'أنا' مخترقة الصيغ التمويهية التي تبقي المصير الفردي جزءا من الخضوع الجماعي؟".

إذن كان لدخول المرأة العربية عالم الكتابة، لا سيما الروائية منها، أن سمح للمرأة بأن تكتسب حق الكلام كذات فردية تملك رغبات ومشاعر، وبالتالي أن تعرّي وتكشف عن عالمها الداخلي. صحيح أنه لدينا في التراث العربي نموذج شهير لامرأة تمارس سلطة الحكي داخل النص، ونعني به نموذج شهرزاد في "ألف ليلة وليلة"، لكن "ألف ليلة وليلة" ومن خلالها شخصية شهرزاد، هي نتاج خيال ذكوري، وبالتالي فهي في وجه من الوجوه صورة عن مخيال الذكورة حول المرأة، وعليه لا يمكن اعتبار خطاب شهرزاد خطابا نسائيا في الصميم، لأنه من صنع الرجل في نهاية المطاف، والحكاية الإطار في "ألف ليلة وليلة"، كما نعرف، تدين المرأة إذ تنطلق من اكتشاف الملك شهريار خيانة زوجة أخيه وخيانة زوجته هو نفسه، وهذه الصورة ذكورية نمطية عن طبع المرأة، كما نستشف ذلك، مثلا، من قول شارل بلاّ بأن كتاب "أخبار النساء" لابن قيم الجوزية، يشتمل "نوادر وخواطر وحكايات تدل في الغالب على أن الجنس اللطيف [...] يسبب الحب والعشق ويأتي باللذة وربما يحدث في قلوب الجنس الخشن أضرارا جسيمة، لأنه مجبول على الكيد والمكر، مطبوع على الخيانة والغدر...".

هذا إلى جانب أن شهرزاد لا تتكلم في نهاية المطاف إلا تحت سلطة الملك شهريار، وبالتالي فإن حكيها ليس حكي المرأة الحرّة، وإن كان من الصحيح في

ذات الوقت بأن هذا الملك كان واقعا تحت تأثير سلطة حكي هذه الأنثى.

ولأن الشعر هو الخطاب الأدبي الوحيد الذي تكلّمت فيه المرأة بنفسها، وساهمت فيه نسبيا، بالنظر إلى هامشية الصوت النسائي الشعري في التراث الثقافي العربي، فإنه لا يمثل اليوم حقيقة مكسبها الثقافي الأبرز، إذا ما قارنّاه بالمجالات الإبداعية الأخرى، كالرواية مثلا، حيث ظهور الإبداع النسائي في هذا المجال لا يمثل استمرارا لخطاب شهرزاد في "ألف ليلة وليلة" وإنما تجاوزا له، ذلك أنه إذا كانت شهرزاد و"ألف ليلة وليلة" نفسها، ليسا غير شكل من أشكال تجلي المخيال الذكوري الشرقي بالمعنى الواسع للكلمة، كما سبق وأن أشرنا، فإن الرواية النسائية، بوصفها شكلا أدبيا سرديا يقوم على الكلمة المكتوبة، تمثل خطابا أدبيا صادرا عن المرأة ذاتها، يعني عن المرأة بوصفها منبعا للإبداع، وذلك في صورة الكاتبة، أو المؤلفة، الحالة الاجتماعية-الثقافية الجديدة التي أصبحت متاحة اليوم للمرأة العربية، وليس فقط مجرد موضوع أدبي كما كانت من قبل في التراث الأدبي العربي، ممّا يعني تحول هذه المرأة على الصعيد الثقافي من مجرد موضوع كتابة ذكورية إلى ذات فاعلة، منتجة لنصوص يتحول فيها الذكر بدوره إلى موضوع لها، كما هو الشأن في العديد من الأعمال الروائية النسائية. وعليه فإن اقتحام المرأة العربية مختلف مجالات الثقافة والإبداع اليوم، وفي مقدمتها الكتابة الروائية يعني ليس فقط استلامها حق الكلام عن نفسها، بل أيضا كسر الاحتكار الذكوري التاريخي العربي لسلطة الخطاب في مختلف تجلياته.

إعادة تعريف الهوية النسائية

كل هذا يعني في نهاية المطاف إعادة تعريف للمرأة العربية ولكينونتها كإنسان، يعني مراجعة للهوية الأنثوية التي كانت من صنع "الآخر" بامتياز، فما المرأة العربية غير إنجاز للرغبة الذكورية ولسلطتها وهيمنتها، فما كانت هذه المرأة، في الغالب الأعم، غير صورة الرغبة الذكورية وموضوعها. وما كانت المرأة ذاتها، وذلك تحت تأثير ما يسميه بيار بروديو (habitus)، أي تحت تأثير التشبع بالقيم الاجتماعية السائدة ذكورية المنشأ، ترى صورتها المثالية والمرغوبة من طرفها إلا في النموذج الذي ابتدعه الذكر، السيّد المهيمن، لا تروم بذلك تحقيق ذاتها إلا على ضوء قيم الذكورة والأبوية. وهكذا كان جمالها رأسمالها الاجتماعي الأول في نظرها،

يمكن القول بأن ولوج المرأة العربية اليوم للفضاء الثقافي العام عبر مختلف أبوابه و مجالاته يعني، في إطار التعريف الجديد لها، بأن العقل ليس من نصيب الرجل وحده

وليس المعرفة أو العقل، يعني ليس الإسهام في الحياة الثقافية أو الفكرية أو غيرهما من الأنشطة الاجتماعية، وإنما تكريس نفسها كموضوع للرغبة الذكورية وكتجسيد لقيمها وتصوراتها، دون أن ننكر بالطبع وجود استثناءات تشذّ عن هذه القاعدة العامة.

إذن يمكن القول بأن ولوج المرأة العربية اليوم للفضاء الثقافي العام عبر مختلف أبوابه و مجالاته يعني، في إطار التعريف الجديد لها، بأن العقل ليس من نصيب الرجل وحده، بل هو من نصيب المرأة أيضا، وعلى هذا الأساس لم تعد المرأة العربية هي فقط ذاك الكائن العاطفي المحض أو يكاد، والخاضع للهوى كما تصوّره النصوص التراثية أو الكثير منها على الأقل، بل هي كائن عاقل أيضا.

وبالتالي لم يعد الجمال رأس مال المرأة الاجتماعي الوحيد، بل صار هذا الأخير يتشكل أيضا من مواهبها العقلية والذهنية. ولم تعد المرأة نتيجة لكل ذلك مجرد موضوع، بل ذات أيضا. ويمكن القول إنّ هذه التطورات التي حدثت نتيجة اكتساب المرأة للكتابة وممارستها على الصعيد الإبداعي الروائي وغيره، قد أدّت في نهاية المطاف إلى تقليص الفروق الاجتماعية بين الذكر والأنثى، أي إلى تشابه أدوارهما الاجتماعية والثقافية، على الأقل بالقياس إلى ما كانت عليه في الماضي.

ذلك أنه بالإضافة إلى اكتساب المرأة العربية صفة إنسانية جوهرية كانت من قبل تنسب إلى الرجل فقط، أو إليه بالأساس، وهي القدرة العقلية، فإن الفضاء الاجتماعي الخارجي لم يعد حكرا على الذكورة، بل صار فضاء مختلطا، مشتركا بين الذكورة والأنوثة، وبالتالي اتسع مجال الفعالية الفضائية الاجتماعية للمرأة الذي كان من قبل مقصورا على فضاء البيت، ليشمل اليوم الاثنين معا، وذلك انعكاسا إلى حدّ كبير لتحوّل دورها في الحياة الاجتماعية من منتجة بيولوجية بالأساس، تتمثل في الإنجاب، إلى منتجة للثقافة ولغيرها من الحاجات الاجتماعية.

هذا إلى جانب امّحاء الحدود الثقافية بين الذكورة والأنوثة بعدما أصبحت الكتابة والمعرفة والإبداع والفكر حيّزا مشتركا بين الجنسين، على خلاف ما كان عليه الأمر في الثقافة العربية المرتبطة بالتراث.

تانيا الكيالي

حدود الكتابة النسائية

رغم كل المكاسب المذكورة، إلا أن درجة ومستوى التحول الثقافي للمرأة العربية ليس بالضرورة هو نفسه من بلد عربي إلى آخر، بل هو ليس نفسه داخل البلد العربي الواحد، بين الريف والمدينة مثلا، إلى جانب أن نموذج المرأة الذي صاغته الثقافة الذكورية العربية لم يمّح من الخريطة العربية ككل تمام الامّحاء، و ربما لا يزال هو النموذج المهيمن. بل إن هيمنة الثقافة الذكورية، إذا ما رجعنا إلى كتاب بيار بورديو، (La domination masculine) أي "السيطرة الذكورية" لا تزال قائمة حتى في أوروبا والغرب عموما، ولكن بأشكال مختلفة يصعب أحيانا تبيانها بسبب تخفّيها وراء أنماط سلوكية لا تظهر معها الهيمنة الذكورية التي تسندها. إذن ولوج المرأة العربية عالم الإنتاج والإبداع الثقافي، وغيرهما من المجالات، لم يؤد في الحقيقة إلى إحداث تغيير نوعي وجوهري في الثقافة العربية، أو في المجتمع العربي ككل.

فالمرأة العربية، وإن كان يصعب القول بأنها نتاج خالص لهذه الثقافة ولتاريخها الذكوري الطويل، بالنظر إلى تأثير المثاقفة، لا سيما من خلال الاحتكاك بالثقافة الغربية وبمختلف منجزاتها و"إغوائها"، إلا أنها تظل دائما رغم ذلك واقعة، بهذه الدرجة أو تلك، تحت تأثير وصوغ الثقافة والأم، شعوريا أو لا شعوريا، بالنظر إلى بقاء المجتمع ككل رهن هذه الثقافة.

وهكذا لم يكن هناك من بدّ في الأخير للروائية وللأديبة على وجه العموم، من أن تؤدي مشاطرتها الرجلَ الحياة الثقافية للمجتمع إلى أن تساهم، بهذه الدرجة أو تلك، في استمرارية وإعادة إنتاج الثقافة القائمة التي هي في الصميم ذات طابع ذكوري، فالمرأة لم تأت إلى الثقافة كما لو أنها تخوض في أرض بكر، ولذلك تعيّن عليها، في حدود متفاوتة وضمن شروط التفاعل مع قيم العصر الغربية، أن تشتغل في أطر وقواعد ومكتسبات ومسلّمات وتقاليد وقيم الثقافة القائمة والموروثة، فكما يقول مصطفى الغرافي، في حديثه عن الإقصاء التاريخي للمرأة في إنتاج الخطاب، فإن هذه الأخيرة "لا تأتي إلى اللغة إلا بعد أن يسيطر الرجل على الإمكانات اللغوية". ولعل أحد أوهام التحرر التي تقع فيها الروائية العربية أحيانا هو تخيلها بأنها تكسر الطابوهات عندما تتطرق إلى موضوع الجنس بطريقة فاضحة، بينما هي لا تفعل بذلك في الحقيقة غير إعادة إنتاج التصور الذكوري المبتذل للمرأة بوصفها مادة جنسية بالأساس.

وتتفاقم هذه النزعة خصوصا عند الروائية العربية المهاجرة المعرّضة أكثر للوقوع تحت تأثير الجمهور المتلقي الغربي الذي يريد أن يرى المرأة العربية أو المسلمة عموما، وذلك إما بدافع الرغبة الشبقية أو بدافع الأيديولوجيا، تقدم عن نفسها صورة الانتهاك لـ"المحرمات"، لا سيما الجنسية منها والدينية. ولهذا كثيرا ما نجد الروائيات المقيمات في الغرب يقبلن على الخوض في مثل هذا الانتهاك، كما هو الشأن مثلا عند نينا بوراوي أو آسيا جبار أو مليكة مقدّم من الكاتبات العربيات باللغة الفرنسية، ولكن أحيانا نجد الأمر نفسه أيضا عندما تكون الكتابة باللغة العربية، كما في رواية "إنها لندن يا عزيزي" لحنان الشيخ المقيمة في لندن.

هكذا لا يمكن الحديث عن ثقافة عربية جديدة حقيقة، إذا كنا نقصد بذلك ثقافة تذهب إلى ما أبعد من ثنائية الذكورة والأنوثة، ولا عن رواية عربية جديدة تكون قد حدثت نتيجة تحوّل المرأة العربية إلى منتجة للخطاب الأدبي أو لغيره من المنتجات الثقافية، من غير أن يعني هذا بالطبع عدم ظهور أسماء نسائية كبيرة في المجالات المختلفة للثقافة العربية، سواء في الرواية أو في الشعر أو في الفكر أو في غير ذلك من مجالات الإبداع، ولكن دائما -بهذه النسبة أو تلك- ضمن أطر الثقافة القائمة وقيمها. بيد أن هذا الحال قد يعني أيضا بأنه عدا الفروق البيولوجية الطبيعية لا يوجد اختلاف بين الذكورة والأنوثة، مما قد يفسر عدم ظهور رواية جديدة من إفراز دخول المرأة عالم الإنتاج الثقافي العالِم، وبأن المعطى البيولوجي المحدد لكل من الذكر والأنثى ليس له أثر ثقافي. لكن قد يعني هذا أيضا في الأخير بأنه لا يمكن للمرأة العربية أن تتحول إلى ذات ثقافية دون أن تكون حاملة بهذه الدرجة أو تلك لثقافة الذكورة ولمختلف التناقضات التاريخية للثقافة العربية على العموم، فالمرأة ذاتها، بوصفها كائنا اجتماعيا، إنتاج ذكوري، كما سبق وأن ذكرنا.

وهكذا يحدث أن تحارب المثقفة والكاتبة العربية استبداد الذكورة في مختلف أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة، وتقف في ذات الوقت مع الاستبداد بالمعني السياسي. إن مؤلفة كتاب "مائة عام من الرواية النسوية" لهي نموذج يمكن الاستشهاد به على هذه المفارقة، فالكتاب المذكور يتضمن قراءة تاريخية ونقدية للمسار الروائي للمرأة العربية تنطلق من رؤية تحررية لهذه المرأة ولا سيما من هيمنة الذكورة وظلمها، لكن ذلك لم يمنعها من أن تكون في بلدها أحد أعمدة أشرس الأنظمة السياسية الاستبدادية "الذكورية" التي عرفها العالم العربي، وأكثرها دموية.

كل هذا يفسّر بقاء المجتمع العربي مجتمعا ماضويا وذكوريا وعشائريا وقبليا واستباديا ومتخلفا بالرغم من التغير الذي حدث على صعيد مشاركة المرأة كعضو فاعل ومساهم في الحياة الثقافية للمجتمع، مما يعني أن "تحرير" المرأة ومنحها حقوقها الثقافية، وجعلها فاعلة ثقافيا، لن ينجرّ عنه تلقائيا تغيير المجتمع ككل وتقدّمه، ذلك أن ما ينبغي تغييره هو الثقافة العربية ذاتها، بعد تشريحها وتفكيكها، فقد بقي الإنسان العربي، مثقفا كان أو غير مثقف، ذكرا أو أنثى، أسير هذه الثقافة، وظلت الروائية من ناحيتها أسيرة مزدوجة، من جهة، لثقافة الذكورة العربية التي أنتجتها، وللثقافة العربية ككل، من جهة ثانية.

لقد أمكن لهذه المرأة العربية "العالمة" أن تحقق خلاصها على الصعيد الفردي، وأن تتخلص من وضعية المرأة العربية التقليدية "ناقصة العقل والدين"، لكن دون أن تحقق معها خلاص مجتمعها، ذلك أن هذا يقتضي تغييرا عاما في المجتمع، أو بالأحرى مراجعة عامة يتجاوز نطاقها حدود إشكالية الذكورة والأنوثة. من هنا تبدو لنا وجاهة الانتقادات التي توجّه عادة للرواية العربية النسائية، وهي بالذات كونها، كقاعدة عامة، "نسائية" الاهتمامات، إشارة إلى تمركزها حول ذاتها، وعدم طرحها للقضايا التي تهمّ خلاص مجتمعها ككل، لا سيما السياسية منها. وعليه من الأهمية بمكان، من وجهة نظرنا على الأقل، أن تمارس الروائية العربية عملها الإبداعي ليس كامرأة، ولكن بوصفها مواطنة وإنسانة، وبالتالي أن تخرج عن كل "تخصص" ضيق يحدّده مبدأ الأنوثة، وعن كل "تخصص" يضبط طبيعة موضوعاتها ومجال تفكيرها، وأن تتحرر من كل الضوابط التي من شأنها أن تحدّ من النبع الإنساني الواسع الذي ينبغي أن تستمد منه إبداعها.

تانيا الكيالي

يبدو ذلك أكثر غنى وأكثر ثراء من ممارسة الإبداع على ضوء ثنائية الذكورة والأنوثة التي ليست في الحقيقة غير صورة من صور ثنائية المركز والهامش التي تفعل في الواقع فعلها في كل العلاقات البشرية القائمة على مبدأ عدم التكافؤ، بما في ذلك العلاقة بين "الغرب" و"الشرق" سواء في مجال الأدب الذي يعنينا هنا أو في غيره من المجالات.

على ضوء هذه الشروط وحدها، يمكن أن يتحقق البعد الإنساني للأدب الذي تكتبه الروائية العربية. لكن إذ ما زالت هذه الروائية عموما حبيسة الكتابة النسائية، أوَ لا يمكن اعتبار ذلك علامة على أن المرأة العربية ككل لم يتحقق بعد وجودها كمواطنة وكإنسانة، شأنها في ذلك شأن الإنسان العربي ككل؟

يمكن القول في الأخير، كخلاصة، لما سبق ذكره أن الروائية العربية -والمرأة العربية المثقفة على العموم- لا تزال حبيسة أطر الثقافة السائدة، وبأنها لم تنتج ثقافة متميزة عن ثقافة الرجل بشكل لافت ولا رواية يمكن القول عنها بأنها تشكل عهدا جديدا لهذا الفن. صحيح أن بعضهن، كما سبق القول، قد تصدين لثقافة الذكورة العربية، مثل نوال السعداوي وفاطمة المرنيسي وآسيا جبار، لكن هذا الخطاب الرامي إلى إعادة الاعتبار للمرأة العربية، رغم مشروعيته، لم يكن كافيا، لأنه إلى جانب كون إشكالية الذكورة ليست غير جزء من الكل، كما سبق الذكر، فإنه يبدو أن خلاص الرجل العربي أيضا شرط لخلاص المرأة، فما هذه الأخيرة، في نهاية المطاف، غير ضحية الضحية، ولهذا لا نجاة لأحدهما دون الآخر.

إن خلاص المجتمع لا يتأتى من خلال تحرير جزء واحد. إن الخلاص ينبغي أن يكون من الاستبداد ومن عقل القبيلة والعشيرة والطائفة ومن ذاكرة الماضي والتاريخ المتكلّس. وبداية البداية أن يتحرر المثقف العربي نفسه، مهما كان نشاطه الإبداعي، ذكرا كان أو أنثى، من تناقضاته التي ورثها من تاريخ أمته وثقافته.

كاتب من الجزائر

في انتظار سردية نسوية عربية

البشير ربوح

لقد فرض علينا المسار الحداثي بكلّ مشتقاته اللفظية من حداثة ومعاصرة، وما يرافقها من أحاديث عن النهايات التي بدأت تزورنا صباحاً ومساءً، نهاية الإله، الإنسان، المؤلف، التاريخ، السرد، المعنى، الوطن، الدولة، أسئلة جديدة وقلقة، وكلّ حديث يقترن وجودا وعدماً بدلالة الموت، ولكن الفكر الغربي في هذا الخضم لم يتحدث بعد عن موت الموت، الذي ما زال يسكن في المناطق غير المفكر فيها والمسكوت عنها، وبهذا يكون الفكر الغربي قد أغلق الحقول التي أطال الإقامة فيها، وبدأ في مقاربة المواضيع التي كانت تقطن الحواشي؛ حواشي الزمن والمكان والسؤال والانهمام، حيث طفق يسأل عن معنى الجسد، السلعة، الشيء، الفقر، الحشود، الجنس، الإشهار... ومن ثنايا هذه الأسئلة أمسك بالسؤال المركزي، وهو سؤال المرأة، بحسبانها قطب الرحى في كلّ هذا، فهي الجسد والجنس والإشهار والسلعة والسوق والهامش، أي أنّ سؤال المرأة أو الأنثى هو مدخل ملكي جهة ما بعد الحداثة التي ما تزال تحمل غموضا مخيفا على مستوى اللغة ومرعبا على أفق ما هو قادم تاريخيا.

من الثابت أنّ الانشغال بالكتابة ذات الطابع الفلسفي في الفضاء الغربي قد أصبح تقليدا راسخا، وله من الامتداد التاريخي ما له، بدأ مثلا مع الفليسوفة هيباتا واسبازيا "فيلسوفة الخطابة المالطية"، وصولا إلى الفيلسوفة الفرنسية رفيقة درب جون بول سارتر، سيمون دو بوفوار، ووقوفا عند سيمون فايل وجوليا كريستيفا، ولم تكن الكتابة الفلسفية النسوية بعيدة عن المسعى النضالي للمرأة في الغرب بغية تحقيق منجزات على مستوى الحقوق المدنية، أي أنّ النضال النسوي تقاطع مع الكتابة الفلسفية التي أخذت على عاتقها فتح وغزو الإشكالات الفلسفية، التي ما زالت لحدّ الساعة تتمركز على محور الفالوسونتريزم، حسب التعبير الرشيق لجاك دريدا، وهذا لا يعني أنّ المرأة استسلمت لهذا التقليد الذكوري، وإنّما على العكس من ذلك نهضت من مقعدها واضطلعت بمهمتها التاريخية في الحديث عن نفسها فلسفيا، وبعد أن حققت هذا الإنجاز في الفن والرواية والسينما.

بمجرد العودة إلى الفضاء العربي، الحديث والمعاصر، نجد مفهوم النسوية قد ارتبط بفكرة النضال من أجل الدفع بالرجل إلى الإنصات لصوت الأنثى، ومعرفة حاجياتها النفسية والجسدية والاجتماعية والسياسية، واستمر النضال حتى بدأ الفضاء ينفتح على المرأة ويدرك مع مرور الرياح الغربية أنّ المرأة كائن قائم بذاته. وتحت إكراهات الحداثة الآتية من الشمال، والمقتضيات التي ظهرت إلى الوجود مع هيمنة المشاريع التحديثية العربية، مثل المشروع الناصري والبعثي والبورقيبي، أينعت بعض الأسماء العربية في مجال البحث الفلسفي العربي الأكاديمي، مثل: نوال السعداوي، أميرة حلمي مطر، رجاء بن سلامة، فاطمة المرنيسي، أم الزين بنشيخة المسكيني، أمال قرامي، إقبال الغربي، وخديجة العزيزي.

رغم هذه المنجزات الأكاديمية المهمة والقمينة بإحداث نقلة خطيرة في أفق البحث الأكاديمي، وهي ضرورة من أجل كسب مناطق داخل الفضاء الجامعي، لكنها تمثّل في نظرنا نصف المسعى، وهي بذلك ملزمة بتجاوز وتخطّي أسوار الجامعة، والانخراط في مسعى الكتابة في صورتها العامة، والتأليف الفلسفي في معناه المخصوص، حيث يمكن أن نجد كاتبات وضعن أقلامهن تحت إمرة الفلسفة، وطفقن يشتغلن بالقضايا التي كانت إلى زمن قريب حكرا على الرجل، واقعا ومخيالا، إذ نلتقي رأسا بأعمال رجاء بن سلامة، فاطمة المرنيسي، أم الزين بنشيخة المسكينى، لكن يمكن تقديم الملاحظات التالية:

• لقد انخرطت الدراسات الأكاديمية النسوية بصورة سافرة في الأسئلة التي شغلت الرجل المتفلسف، وهو انخراط غير واعٍ في الكثير من الأحيان، إذ هي التزمت على المدى البعيد في مسعى فكري عالج قضايا ذكورية على مستوى البنية العميقة للفكر العربي، مثل النهضة، المعاصرة، الحداثة، مقاومة الاستعمار، ومقارعة الجهل ومحاربته، لكنّ الأسئلة التي تماهت مع المجال الأنثوي مثل الجسد ومشتقاته المعرفية، لم تكن من مشمولات الدراسات النسوية فبقيت ملتزمة بالخط الذكوري للتفكر الفلسفي.

• لم تنقل هذه الدراسات ترسانتها المفاهيمية إلى مجال الأسئلة ذات الطابع النسوي الخالص التي ترتبط بمفهوم

ميسا محمد

الجسد، حيث كانت هذه الانشغالات تعالج استنادا إلى رؤية ذكورية متعالية، تطرحها من زاوية مركزية الكوجيطو المكسور الذي يتحدث بمفردات وهموم الرجل السيّد المتحكم في آفاق التفكر الاجتماعي. ومنه لم تستطع المرأة أن تتحدث بصوتها المخصوص الحامل لإرث تاريخي مشبع برؤية دونية.

إنّ دونية المرأة في مجتمعنا الذكوري هي جزء لا يتجزأ من نظام ثقافي عام وشامل، بحيث تعتبر المرأة فيه كائنا يخضع لمنظورية متخلّفة تمجّد الكسل، والطاعة العمياء، والتفاهة، والثرثرة، والجهل، والأمية بكلّ صورها، ولا يمكن أن نفهم أنّ الرجل أحسن منها، وفي موقع أفضل سياسيا واجتماعيا، وإنمّا الأمر متعلق بمساحات الحرية القليلة المتوافرة للرجل، وهي فرصة سمحت له بالتواجد في الفضاء الثقافي العام.

ومن صلب هذا التمشي، نستطيع أن نبتعد عن الأحاديث التي سعت جاهدة إلى تكريس ثنائية مزيّفة بين الرجل والمرأة، وهي ثنائية تضاف إلى الثنائيات الصدامية الأخرى التي غرق فيها الفكر العربي طويلا، وصرف فيها جهدا كبيرا، وخسر فيها معركته الحداثية الكبرى، مثل الحداثة والمعاصرة، الثابت والمتحول، الشرق الغرب، وهي كلّها ثنائيات أرهقت الفكر العربي واستنزفت قواه الحقيقية، وبالتالي فإنّ هذه الرؤية المانوية هي التي جنت على الرجل العربي الذي تناسى تلك العلاقة الأنطولوجية مع المرأة. فبعيدا عن تثمين حقيقي لهذه العلاقة نلج مباشرة حقل الصراع القاتل والعدمي في منتهاه.

-عندما ندشن مرحلة الإدراك بأنّ المهمة هي معركة واحدة، وليست هذه المعركة مقصورة على المرأة فقط، بحسبانها الرقم الضعيف والهشّ في مجتمع هو بدوره يشهد سقوطا مخيفا نحو الهاوية، وانطلاقا من متن هذا الوعي غير الشقي، نتوجه صوب السؤال الحارق الحقيقي وهو: كيف نرتقي بالبحث الفلسفي الذي باشرته المرأة العربية إلى مرتبة الانشغال بالقضايا التي أرّقتها في وضع الصمت المفروض عليها منذ زمن تليد؟ ومن بين الأسئلة التي أضحت مقلقة في زمننا الراهن، أسئلة المساواة، الحرية الفردية، الحقوق السياسية، الفهوم الجديدة للجسد، الحق في صياغة الوجود من منظور المرأة المسؤولة، الانفتاح على الحداثة الاجتماعية، تكريس المعنى الأنثوي في فضاء المدرسة، إعادة النظر في سينما جديدة تكون فيها المرأة قادرة على تشكيل مجتمع يحوز على خطاب يؤمن بالتعدد والتنوع.. وغيرها من المسائل التي هي جديرة بأن تكون فرصة سعيدة لإنشاء وإبداع سردية جديدة خاصة بالمرأة في دول ومجتمعات جنوب الحداثة.

• إن التفكّر النسوي في هذا الزمن الراهن، وبالرغم من الصعوبات التي يواجهها الفكر العربي، خاصة في شقه النسوي، هو عصر فلسفي بامتياز، لأنّه يطرح قضايا ونوازل سكنت هذا الفضاء وتلحّ علينا بمقاربتها والتعايش معها والانخراط في مسارها، مثل أسئلة التغيير، الدولة القادمة، الحقوق المستجدة، المدرسة ذات الفضاء المدني، الجسد وحركية السوق المرعبة، العولمة وفق الصبغة الأميركية، الرؤى البيولوجية، التمرد على النظام الأبوي.

ومن وحي هذا المنظور، نسعى في مقالنا إلى خلخلة الوعي الثنائي الزائف، والذهاب رأساً جهة النبش في أخاديد الرؤية الاجتماعية التي ما زالت متمسكة برؤية متعالية للنزعة الذكورية الواهية، وفي المسائل التي تطرق بابنا بكل إلحاح وحنق على هذا الزمن.

أستاذ وباحث أكاديمي من الجزائر

الكتابة النسوية في الجزائر

أحمد دلباني

لا تختلف الكتابة النسوية في الجزائر عن نظيرتها في البلاد العربية الأخرى من حيث الإشكاليات والمآزق والتحديات المطروحة. إنها مجال نقاش يفلت من سياجات المسألة الأدبية بحصر المعنى ليطال عمقَ البنية الثقافية والاجتماعية لمُجتمعاتٍ لم تخرج، إلى اليوم، من سياج الذكورة باعتبارها فضاءً وإطارا مرجعيا قام على مركزية الفحل وأحادية الصوت الذي يغيبُ معه صوت الأنثى. لم تكن الأنثى في تراثنا الأدبي والثقافيّ شهرزاد تمتلك صوتا فحسب، وإنما مشروع قتيلةٍ لا تنتظرها إلا جلجلة المحو على مذبح الذكورة الطاغية. وربما كان أقصى ما تستطيعه الأنثى هو أن تتماهى مع صوت الذكورة المُهيمنة من أجل انتزاع نوع من شرعية الحضور أو المكانة ضمن مجتمع يتأسَّسُ نظام قيمه على سيطرة الفحولة. إنَّ «الجنس الثاني» لم يغيِّر موقعه، بكل تأكيدٍ، في المجتمع العربيّ وهذا ما يجعل الكتابة النسوية أيضا ظلا لأصداء الذكورة الطاغية في ثقافةٍ ظل نظامها الرمزي يتمحور حول المطلق والمتعالي فكريا، وحول الأبوية سياسيا واجتماعيا.

ربما لم تحصل الخلخلة الجزئية إلا بداية من تعرّف العربيّ على الآخر المُستعمِر الذي أنجز حداثته الأولى القائمة على الليبرالية والأنسنة وجموح العقل وامتدادات الكوجيتو اجتماعيا وسياسيا. ولكنَّ الذي يهمنا، هنا، هو هذا الاغتراب الذي ظلت تعانيه الكتابة النسوية العربية بعيدًا عن القدرة على إنتاج النص المختلف الذي يحدث القطيعة مع مدارات الذكورة الطاغية. هذا ما يُفسِّره، جزئيا، بقاءُ الكتابة وظيفة مرتبطة بالذات السيدة وبقدرتها على البوح. فأين الأنثى العربية من هذا؟ لقد ظلت الكتابة امتيازا وخروجا من الظل إلى ضوء تحقيق الذات وازدهارها وحضورها على مسرح الحياة. ومن المعروف أنَّ مجمل القيم المؤسِّسة للكتابة في المجتمع العربيّ التقليدي كانت من نسج الفحولة وتعكسُ رؤيتها للعالم وموقفها المبدئي من الأشياء. وهذه الرؤية الثقافية قائمة، تحديدًا، على العنف والسيطرة وعلى إقصاء الأنثى من كل فاعليات الإنسان في الفضاء العام. هذا، أيضا، ما يفسِّرُ إلى حدّ ما ذلك الحضور الباهت للكتابة النسوية في العالم العربي وفي الجزائر بخاصة. فمن الناحية الكمية يمثل عدد الكاتبات نسبة ضئيلة جدا؛ ومن الناحية الكيفية لا تخرج هذه الكتابات عن الرغبة المحاكاتية للحضور الذكوري المهيمن في المجتمع بمعزل عن هاجس التميز وإبراز شرعية الاختلاف وغنى الإنساني الذي طمسه الاختزال الراجع، في بعض صوره، إلى هيمنة الثقافة البطريركية لقرون.

ليست الكتابة النسوية عملا إبداعيا تقوم به الأنثى في المشهد الثقافيّ وفي الفضاء العام لإنتاج الآثار الجمالية أو اقتحام أسئلة المعنى والقيمة فحسب. إنها، أساسا، مساءلة عميقة لنظام عمل الثقافة السائدة ومراجعة لشرعيتها وكشفٌ لهوامشها المنسية المُغيبة عن الفعل والحضور ونعني بذلك المرأة تحديدًا. وبالتالي فهذه الكتابة تندرجُ ضمن خط خلخلة المركز الذكوريّ وإبراز الفروق والتباينات الثقافية وأشكال الاختلاف التي ينضحُ بها الواقع الإنساني الشامل. ربما هذا ما قد يُسهمُ، أيضا، في تجاوز الأساطير المؤسِّسة للثقافة الذكورية وهي تجعل من حواء مخلوقا من ضلع أعوج للرجل الأول. فهل نتحدثُ عن كتابة نسوية في الجزائر أم عن نساء كاتبات؟ هل الكاتبة الجزائرية هي الخنساء أم فرجينيا وولف؟ هذا ما يجبُ، برأينا، أن ندقق فيه قليلا. فأن يتكاثر عدد الكاتبات عندنا لا يعني، على الإطلاق، أننا نملك كتابة نسوية حققت شرط استقلالها وتميزها عن أصداء الموروث الذكوري ومنظومة القيم المتمحورة حول الثقافة البطريركية. هذا ما يُشيرُ إلى إمكان وجود نسوةٍ كاتبات يُسهمن في إطالة أمد الحساسية التقليدية في النظر إلى العالم باعتباره صنيعا للذكورة. تكون الكاتبة، هنا، جارية في السَّراي الثقافيّ المهيمن ولا تمثل خطرًا داهما على مركزية الذكورة في الثقافة السائدة.

يتم النقاشُ غالبا عندنا في الجزائر حول الكتابة النسوية من منظور لا يُقدِّرُ حجمَ القضية باعتبارها مشكلة نضال ضدَّ بعض تناقضات المجتمع وثقافته السائدة التي رسَّخت آليات العنف والتهميش والهيمنة ودونية الأنثى بوصفها طبيعة. ولكنَّ الأمر الملاحظ في الجزائر -ومعظم البلاد العربية أيضا- هو أنَّ هناك انتصارا

ميسا محمد

نسبيا لهذه الثقافة الأبوية يتمثل في انجراف الكثير من الأصوات النسوية إلى فلك الذكورة ومحاولة احتلال موقع فيه. هذا هو وضع الخنساء تحديدًا: أن تكون الأنثى فحلا أدبيا. تكون الثقافة الذكورية، هنا، مرجعا ومعيارا ومنظومة قيم تغيبُ عن مجالها صورة الأنثى باعتبارها إنسانا مختلفا. ومن الملاحظ أنَّ الكثير من التيارات الفكرية الأصولية والاتجاهات الدينية لا يخرجُ عن هذا الذي ذكرناه باسم معصومية المرجعية الفكرية السائدة تاريخيا. إنَّ الكتابة النسوية الحقيقية -خلافا لذلك- ليست هرولة وراء محاولة اكتساب الشرعية الأدبية والفكرية من الأستاذية الذكورية وإنما هي عمل ضديّ تتم من خلاله مساءلة الينابيع الأولى للكينونة قبل أن يتمَّ اغتصابُ حقيقة الإنسان من خلال فعل عنفي اختزالي.

يبدو لي، شخصيا، أنَّ تناول مسألة الكتابة النسوية في الجزائر بمعزل عن هذا الذي أتينا على ذكره قد لا يذهبُ بنا بعيدًا في استقصاء الواقع الأدبيّ وفهم المشهد الثقافيّ كما يجب. إذ يبدو من غير الدقيق الحديث عن الكتابة النسوية في مجتمع لم يعرف حِراكا كبيرًا على مستوى نظام عمله وعلاقاته التقليدية بين الرجل والمرأة. فلم يعرف المجتمع العربيّ ولا الفكر العربيّ ثورته النسوية المنشودة وإنما بقي منشغلا بانتكاساته المتتالية وهو يشهدُ انهيارَ مشاريع الوحدة والاشتراكية والتقدم. ليست الكتابة النسوية، في عمقها، إلا انعكاسا لجهد الانعتاق من قمقم الثقافة السائدة ومعاييرها وسلطتها الرمزية. الكتابة فعل كلام وحضور وتميّز ومغايرة. إنها كوجيتو الكيان وإعلان الذات عن وقوفها على ركح تراجيديا العالم. الكتابة غبطة الميلاد وأوجاعه. فهل ولدت عندنا المرأة؟ هل انبثق كيانها الحر وأصبح بإمكانها أن تمتلك صوتا؟ تبقى هذه الأسئلة مفتوحة -على ما نرى- دون أن نُبديَ رأيا نقديا في متن إبداعيّ جزائري أصبح يتميز بحضور لافت نسبيا روائيا وشعريا.

ملف

صورة الكاتب في طفولته

65 كاتبة وكاتباً عربيا في آلة الزمن

في هذا الملف الواسع 65 كاتبة وكاتبا من لبنان ومصر وسوريا وفلسطين والأردن والمغرب والعراق وتونس والجزائر وبلدان عربية أخرى رووا وقائع وحوادث ومشاهدات وذكريات عاشوها أو كانوا شهوداً عليها في مراحل مبكرة من طفولتهم قبل سن الثالثة عشرة.

مشاهد وذكريات سعيدة وأخرى قد تكون أليمة. وقائع من الحياة المبكرة في البيت وخلال سنى الدخول الأول إلى المدسة، وأخرى من الشارع والجوار في المدينة والناحية والقرية، بعضها يتصل بالأب والأم، وبعضها بالمعلمين ورفاق المدرسة، وبعضها الآخر بالجيران والشارع، بالسلم والحرب، بالفقر والغنى، بالجمال والقبح، بالعنف والرقة وبالحضور والغياب، بالطقس الطبيعي والطقوس الاجتماعية، وغيرها من العناصر والظواهر التي عادة ما تشكل (وتتشكل من) منظومة الوقائع والقيم والأعمال والميزات بالنسبة إلى الأطفال المرهفين المنفتحين على العالم بحواس جائعة وانتباهات حادة.

نتعرف من خلال هذه النصوص التي كتبت خصيصا لـ«الجديد» على خلفيات مهمة تمكننا من معرفة أفضل بأصحاب الأقلام التي كتبتها، بل ربما تضيء بشكل ما جوانب من شخصياتهم وأدبهم، سيما وأن غالبية المشاركين في هذا الملف هم من القاصين والروائيين والشعراء والنقاد العرب، بينهم من حاز على الشهرة، وبينهم من هم من الطالعين. وهو ما درجت عليه «الجديد» في مجاورة نصوص الطالعين بالراسخين على صفحاتها كل شهر، انطلاقا من إيمان بقيمة النص قبل الإسم، وبالإبداع الجريء والمبتكر، أولا وأخيراً، أيا يكن مصدره، مادام يستجيب للتطلعات التي ولدت «الجديد» لتكون منبرها■

قلم التحرير

نهاري الأول في المدرسة

أبو بكر العيادي

نهاري الأوّل بالمدرسة لم يدم أكثر من نصف ساعة، طُردت إثره بغير رجعة.

مدرسة ريفيّة مُشرّعة للرّيح والمطر، للحرّ والقرّ اللذين يسِمان مناخ الجهة كلّها. مدرسة تُعرف باسم محطة أرتال صغيرة على الخط الرّابط بين تونس العاصمة والحدود الجزائرية، «قار موتيل» تحاذي في آنٍ السّكّة الحديد والطريق المعبدّة التي تعبرها السيّارات والشّاحنات، كتلك التي كان يعمل عليها أبي، بين موسمي الزرع والحصاد، لكرهه القعود بأرض لا يعرف أهلها غير زراعة الحبوب.

لا أذكر في أيّ شهر من العام الدّراسيّ جاء بي والدي إليها، رفقة أخيه غير الشّقيق، وكان شكّاء بكّاءً منذ صغره، ليسلّمنا معا إلى معلّمة فرنسيّة ناحلة ممتقعة سريعة الانفعال. استقبلتنا بابتسامة وانية وبيدها مسطرة، فزع لرؤيتها عمّي فانخرط في النشيج. وبعد أن ودّعت والدي، أجلستنا جنبا إلى جنب في مقعد بعمق الفصل، ومضت تواصل درسها. ولكن بكاء عمّي أزعجها، فعادت تهدّئ روعه، وإذا بكاؤه يحتدّ ويتحوّل إلى عويل اختلط فيه مخاطه بدموعه، وكلّما عادت لتهدئته، والمسطرة لا تفارق يدها، كان يزيد من صراخه ويرفع يديه أمام وجهه كمن يتّقي خطرا داهما، مردّدا بصوت عال «يا دادة الحنّانة، تْتاتْلْني!» (يا أمّي الحنون، إنها ستأكلني!) وكأنّه أمام غولة غادرت لتوّها خرافات كان الكبار يخيفوننا بها كي تفترسه. وكنت أبكي لبكائه، في صمت، لا أدري هل كان ذلك تضامنا معه، أم لإحساس غامض بأنه يُدرك ما لا أدرك، وهو الذي يكبرني بعامين، أم هي عدوى نقلت لي ذعره فانحدرت على خدّي دموع غلاظ لم أستطع أن أمنعها. وعيل صبرُ المعلّمة فطردتنا معا.

فأمّا عمّي فقد استعاد طمأنينته حينما وجد أبناء العشيرة وقتَ الاستراحة يلهون ويمرحون أو يفيئون إلى ظل شجرة كالبتوس. وأما أنا فقد ألفيت نفسي، ولم أتمم بعد عامي الخامس، مطرودا من مدرسة لم يُتح لي من الوقت ما يلزم حتى لتسجيل اسمي على دفاترها.

في السّاحة، قال لي ابن عمّتي «لا تريد أن تتعلّم، سترى حسابك اليوم»، وجرى يستوقف شاحنة خاله التي تروح وتجيء بين القرى والدساكر ليخبره. لم يفه أبي بكلمة في حضور مساعده. اكتفى بإرجاعنا إلى دوّارنا الذي يبعد عن المدرسة مقدار ميل، وفي عينيه نظرة غامضة، فيها غضب، وفيها مرارة، وقد كشف ابنه البكر، الذي طالما انتظره، عن فشله منذ اليوم الأول، لا بل منذ الدقائق الأولى.

حينما عاد، لم يرطب وجهه وأطرافه بالماء مثلما اعتاد، بل بادر بسحب حزامه الجلد المتين، وانهال عليّ يجلدني جلدا هرعت على إثره أمي تستصرخ والدتها لتقيني ذلك الأب الهائج. جعلت جدتي تحوش عنّي ضرباته بيديها النّاحلتين متحدّية بأسه، وكان صلبا متين الأساس قويّ البنية مديد القامة، وهي تصرخ في وجهه:

- ماذا دهاك؟ هذا متاع ضرب!

ردّ عليها وهو يكزّ أسنانه من الحنق:

- ابن الكلب يرفض أن يتعلّم! يريد أن يصير خمّاسا أو راعي بقر!

وأقبلت عليّ تكفكف دمعي، وأبي لا يهدأ حتى قالت له:

- إن كان هذا كل ما في الأمر، فسآخذه معي، وأتولى تربيته وتعليمه.

وكان أبي في حال من الغضب ملكت عليه تفكيره، فما لبث أن قال، وسبابته مصوّبة كالأمر القاطع الذي لا يرتجى بعده ارتداد:

- خذيه! لا حاجة لي به!

ولم يكن لأمي المسكينة من حول إلا أن تغضّ بدموعها وتَشرق، دونما كلمة، مخافة ذلك الزوج الذي لا يقبل جدلا ولا اعتراضا.

والشمس تميل إلى المغيب، أركبني بغلة، فمضت بي جنوبًا رفقة جدّتي، عبر بساتين تحيط بها طوابي التين الشوكي ومزارع يتموج فيها الزرع البارض، فقطعنا وادي ملاق، وصعدنا هضبة دوّار شارن حيث مسكن جدتي. ونمت ليلتها على هدهدة صوتها الشجيّ، وهي التي تشّنف أهازيجُها الأسماع في أعراسنا. وما كاد النّهار يطلع حتى أطعمتني كسرة خبز وقطعة سكّر وسقتني كوبا من اللبن، ثم قادتني عبر مسالك وعرة إلى كتّاب سي بوجمعة المؤدّب، في دوّار مجاور بأعلى الهضبة.

- هذا ولد بنتي. أمانة في رقبتك.

هناك أظهرت من التفوق ما جعل المؤدب يثني على نباهتي لدى جدّتي، فتنقله بتباهٍ إلى كل من حولها، حتى تناهت إلى مسمع أبي، فأبلغ من يقول لها «احتفظي به. ما دام الله قد فتح صدره على يديك».

في ذلك الكتّاب الضّيق، المبني كأغلب بيوت الجهة وقتها بالطوب المجفّف تحت الشمس، تعلّمت في بضعة أيام حروف الهجاء بحركاتها، وبري قلمي القصب، ومحو لوحتي بالطّفَل، والكتابة عليها بالصّمغ، وبدأت أدوّن ما يمليه عليّ المؤدّب من سور قصار، وأحفظها عن ظهر قلب بسرعة فائقة، بل إني كنت أحفظ السّور التي لم يُملِها عليّ بعد، من خلال الاستماع إلى استظهار مَن هم أكبر مني سنّا إيّاها. وصار أبي يلقاني خلال زياراتنا إلى دوارنا، أنا وجدتي، بوجه باسم، ويغدق على المؤدب بواسع كرمه، ولا سيما منذ أن بدأت أعود إليه باللوحة «مختومة»، كدليل على حفظي ربعًا ثم حزبًا ثم جزءًا من كتاب الله.

وفي إحدى الزيارات، كافأني بمصحف صغير مكتوب بالخط المغربي، وكان يجد متعة في الاستماع إليّ وأنا أقرأ آيات من الذكر الحكيم لا يفهم منها إلا أن ابنه، رغم طراوة عوده، أضحى ممن حازوا في صدروهم نصيبا من «العلم». وصادف أن رزئ بمقتل أخٍ غير شقيق آخر (يكبر الأول بعامين أو ثلاثة)، في حادث مرور، فأقبلت العشيرة من كل صوب لحضور الجنازة. وفي ليلة المأتم، حملني بين ذراعيه القويتين وأجلسني بين

عمر فهد

رجال غرباء. ليلتَها، والجو بارد، والقمر غارب، ورياح تصفّر في الخلاء بلا انقطاع، ألفيت نفسي جنب شيوخ مقرئين، ببرانيس رثة، وعمائم خَلِقة، ووجوه كالحة، لأرتل معهم ما تيسر من كتاب الله، وكنت ألمح في عيني أبي وعلى قسمات وجهه علامات فرح لا تخفى، إذ رأى ابنه وسط المؤدبين مرتّلا بغير تعثر، تكاد تنسيه حزنه على فقد أخيه.

في تلك الأثناء، ازددت تعلقا بجدتي، ونسيت ما يصلني ببيتنا، الذي كنت أزوره كالضيف. حتى صورة أمي لم تصمد أمام صورة جدتي. لذلك، أحسست بتمزق أفظع من الأول، حينما نُقلت، لأسباب لا أعلمها إلى كتّاب قرب دوارنا. لم يكن الوصول إليه صعبا لوجوده على أرض منبسطة حيث السهول المترامية التي كان المعمّرون الفرنسيون يغنمون خيراتها. وخلافا لكتّاب سي بوجمعة، كان أوسع مساحة وأمسك بنيانا، وأجدّ حصرا. حتى المؤدب القائم عليه، سي الطيّب، أحسن هيئة وأرقّ صوتا، ولكني بقيت أشهرا أعيش على ذكرى كتّابي الأول، أتطلع إلى قدوم جدّتي بنفاد صبر لعلّها تُعيدني إليه، حتى كان يومٌ حضر فيه إلى الكتّاب رجل في مقتبل العمر، يعمل مدرّسًا في إحدى المدن، فلما رأى المستوى الذي بلغته، ولم أنهِ عامي السابع، سأل أبي:

- الولد ذكي. لم لا يتعلّم؟

- هو ذا يتعلّم، ردّ أبي باستغراب.

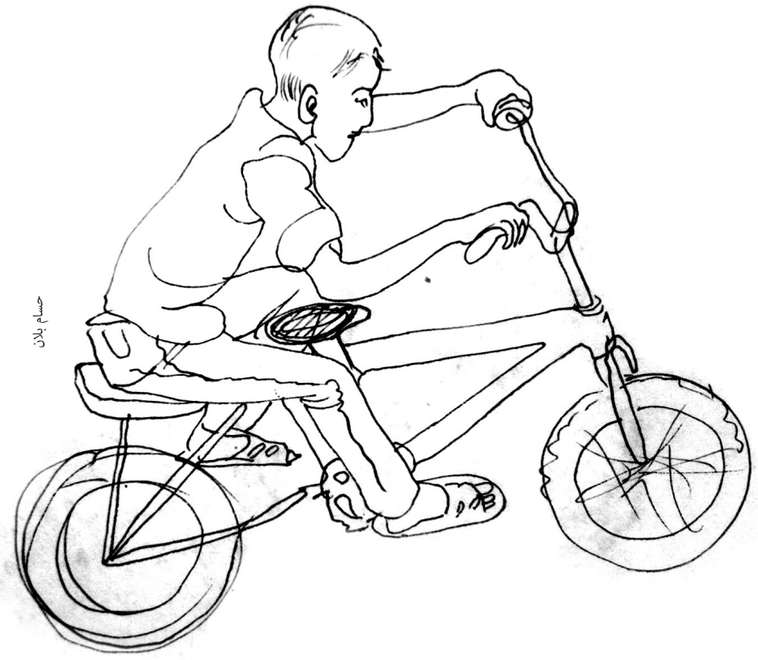
حسام بلان

- لا، لا، قال المدرّس. أقصد التعليم العصري. تعليم المدارس. ذلك مستقبله، أما هنا فلن يتعلم غير حفظ القرآن.

ودلّه إلى إحدى مدارس المدينة، وكان الموسم الدراسي قد بدأ. وفي صبيحة يوم مشرق، لبست أبهى حلة، وقصدت مع أبي إلى مدرسة بسوق الأربعاء (جندوبة منذ أواسط الستينات) لا يدعوها الناس إلا منسوبة إلى مديرها، «مدرسة سي مصباح». رفيع العود، غائر الخدين، هادئ في حركاته ونبرات صوته، ذكرتني جبته وعمامته بأحد أخوال أمي فارتحت إليه. قال له أبي إن صدري عامر بكلام الله، وشدّد على كوني أقرأ القرآن في المآتم مع المقرئين. وما زلت أذكر علائم الزهوّ التي شملته، وهو يرى سي مصباح يخرج كتب القراءة المخصصة لتلاميذ الصف الأول، ثم كُتبَ الصف الثاني فالصف الثالث، وأنا ألتهم الصفحات تباعا لا أتلعثم ولا أتهجّى، قبل أن يلتفت إلى أبي يسأله هل تعلمتْ الفرنسية. قال أبي كالمعتذر:

- كان في الكتّاب.

وسجّلني سي مصباح في الصفّ الثاني مباشرة، فكافأني أبي بدراجة حمراء صغيرة جاءني بها من بنزرت، حيث لا يزال المعمرون الفرنسيون يقيمون، رغم إعلان الاستقلال. دراجة صرت أقطع عليها المسافة بين دوّارنا والمدرسة جيئة وذهابا كامل فصول العام، وظلت حديث الناس في الجهة سنين.

ولكن بقائي في هذه المدرسة لم يدم هو أيضا، إذ شاءت سياسة النخبة الحاكمة التي جاء بها الاستقلال أن تركز عنايتها على الجهات التي تنتسب إليها، فعمّت البطالة وأهمِلت الفلاحة، ولم تمض سنة أو تزيد حتى باع أبي بيته وأرضه ومواشيه، ورحل إلى العاصمة مع أمي وأخي وأخوات ثلاث، أما أنا فاضطررت للبقاء عند عمّي الأكبر، فعشت القطيعة مرة أخرى، حتى نهاية السنة الدراسية في أواخر يونيو 1958.

في العاصمة، لم يكن وضعنا أحسن حالا، فاضطررت عند اشتداد عودي إلى الرحيل إلى ليبيا لأؤمن عيشة أبويّ وإخوتي وأخواتي، بعد أن تكشفت سياسة «باني تونس الحديثة» ووعوده بـ«فرحة الحياة» عن واقع مرّ ما عاد أهلي يجدون فيه ما يطعمون، ثم هجرت تونس نهائيا عام 1988 بعد وصول «صانع التحول» الذي كمّم الأفواه ورهن مقدرات البلاد للأسرة الحاكمة. وكأن الارتحال قدري.

والآن، بعد أكثر من ربع قرن في الغربة لم أعرف خلاله الاستقرار، أرتدّ إلى نهاري الأول بالمدرسة الذي انطبع في ذاكرتي كوشم لا يمّحي، أستعيد خطيئة البدء، وأتساءل هل كتبت عليّ الارتحال.نسبة إلى معركة انتصر فيها القائد النوميدي يوغرطة على الجيوش الرومانية سنة 109 قبل الميلاد. عرفت فيما بعد أن اسمه الكامل مصباح الإينوبلي (1911-2004) وأنه هو الذي أسس هذه المدرسة عام 1939، وكان منارة في الجهة بوصفه مربيا ونقابيا ومناضلا ضد الاستعمار الفرنسي.

كاتب من تونس مقيم في باريس

الغزالة وأطياف السراب

أحمد أبو خنيجر

على صخرة أجلس مراقبا الخلاء الوسيع الذي تفرضه الصحراء، قبضة من وهج تنحو للجحيم المطلق، وعيْل جرته المخيلة لسن الجبل غير عابئ بالتهديدات ولا العلقة الساخنة التي في انتظاره، ما يربكه في تلك اللحظة هو مراقبة التحولات التي تخطها الكائنات فوق أديم الصحراء الملتهب، جيوش تتقدم وجيوش تتأهب للدفاع، والجنود من كافة الأشكال والألوان وبكل التداخلات والتمازجات خالقة أشكالا جديدة لحيوانات أسطورية سيتعرف عليها الغلام فيما بعد، لكنها الآن في وعيه تحمل كل الرعب الذي لا قبل للكون بأسره أن يجابهه.

وحيدا على صخرة في صحراء وحيدة، مهملة ومنسية إلا من سرابها وخلقها المتجدد في كل لحظة تتراءى لعين الصبي القابض على أنفاسه وحواسه المتيقظة في ألا يفوته شيء من المشهد العارم؛ كان النيل بعيدا في تلك اللحظة بالكاد يلمح سطحه المستوي دون شرد تحركه رياح الصيف الصامتة، هل كان يراه؟ أم هو ذكرى في خياله فقط، غير أن المياه التي نبتت بعيدا لم تكن كافية لطمأنته، فسرعان ما تبخرت كاشفة عن الهول العظيم الذي عليه أن يتابع تبدلات فصوله دون سند من أحد ينير له تقلبات السراب، أو يقنع الشمس أن تخفف من جنونها في وقدة الظهيرة، لم تكن يده الصغيرة قادرة على حماية وجهه وعينه من اللهيب، بقدر بؤسها وهى تحاول أن تستعيد تفاصيل المشهد البعيد القابع الآن كطيف مر بصبي ترك صحبته وراح يصعد مرتقاه وحيدا.

الحكاية القديمة لم تجد لها مأوي في متون الأوراق الصفراء ففرت من فم جدته للصحراء وحطت بكل كيانها أمامه، وكانت غزالة تمر قاطعة بحر السراب المتلاطم بالوحوش والعمالية غير ملتفتة إلا لجمالها الباهر الأخاذ، والذي أجبر الجيوش على الانفصال والإفساح لها كي تمر متأملين الجمال الطاغي الذي نبت فجأة وسط هذا القبح والضجيج وسكون الصحراء، في المنتصف توقفت والتفتت نحو الصبي، أكانت تشير إليه؟ أم تدعوه كي يلحق بها، وهو الذي لم يدرك الحكاية بعد، وظن الحكاية قد خطفته بداخلها فصار واحدا من شخوصها، أو أن لهيب الصخرة في قدميه العاريتين أفقده القدرة على التميز، أغمض عينه لحظة كي يستفيق، وحين فتحها كان المشهد قد تغير برمته، تلفت بحثا عن عيون الغزالة والسراب والجيوش والوحوش، وخاف أن يكون قد غفا أو أن الحكاية قد التفت من وراء ظهره، فتساند على كفيه واستدار فلم يجد لا نيلا ولا نخيلا ولا بيوتا لقرية كان يسكنها ويتجول بين دروبها ويقابل رفقته من عصبة كان تسمى نفسها وحوش الفلا، شاركهم كثيرا في غاراتهم المتوجة بالخيبة والضحكات الهازئة، كل ما يعرفه قد اختفى وحل الخلاء الفادح للصحراء وزئير هائج ينبت من قلب عاصفة تزحف مقتربة ببطء منه.

بعد نجاحهم في اقتناص عدد من السجائر، مما عدته العصبة فوزا يضاف لمغامراتهم وكونهم أصبحوا رجالا قادرين على فعل ما يريدون حتى وإن كان عليهم أن يدخنوا سجائرهم مستخفين من العيون في مغارة، كانت سحب الدخان تتصاعد متلكئة على الجدران الصخرية مكونة لمحة من معركة دارت خلف الجبل استعادها الصبي وقرر أن يقص ما جرى لكن بتعديل بسيط، فقد أوعز لرفقته أن ما سوف يحكيه هو إعادة لحكاية سبق وسمعها من عابر شبه مجذوب، واستفتح الحكي بعيون الغزالة فتأوه البعض ودخل شراك القص طائعا، وعبر الجيوش المتقاتلة كان قد أحكم قبضته على سمعهم وأرواحهم ووجدانهم فكانوا يستزيدونه وهو لا يدرك حتى الآن ما الروح التي تقمصته في الحكي غير أنه يدرك أن شيئا هائلا يسكنه ولا بد لأحد من أن يسمعه؛ أن ينصت لصحراء تريد أن تتشكل وفق إرادتها، كنبتة تخاصر ريحا رخية وترقص على مهل على وقع نسغها الداخلي مكونة مع إيقاع الريح لحنا بدائيا حوشيا يخصها بين ألحان الكون المتعددة.

ربما كانت صحراء الكتابة أكثر كرما وعطفا من صحراء تشكل سرابها بنزق غير مستعاد، غير إنها أكثر إيلاما في صدها وجنوحها ورعونة ما ترتكب من حماقات تشبه غارات عصبة الفلا الخائبة إلا قليلا، في زمن آخر سيدرك ذلك الصبي المفتون بالغزالة وعيونها أن للسراب ألوانا وأوضاعا أخرى، فسراب البحر في الصحراء أزرق وأشد قسوة، وسراب الزروع أخضر كثير المراوغة والتخلق لا يستقر ولا يمنح نفسه إلا للمنذورين للتوهة والطيش؛ كرغبة لن تتمكن من الإشباع أبدا؛ غير أن سراب الغزالة يظل هو الأكثر فتنة وغواية.

كاتب من مصر

ألفريد طرزي

طقوس العنف المدرسي

أحمد برقاوي

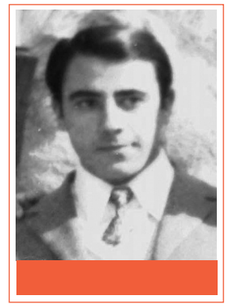

لم تفلح كل محاولات والدي الودية على حملي على دخول المدرسة، وأمي، مديرة المدرسة المختلطة، رفضت بعد يوم واحد من دخول المدرسة التي تديرها أن أكون تلميذاً فيها بسبب ما أنطوي عليه من عدوانية وشراسة وفوضوية غير قادرة على تحملها أمام المعلمات والتلاميذ. يجد والدي بدأً من أن يقودني من يدي عنوة إلى مدرسة البنين وكان والدي صديقاً لمدير المدرسة ومعلميها، ويكنّون له كل احترام و تقدير.

دخلت الصف بصدريتي السوداء صاغراً كذئب مأسور في قفص حديدي. والمعلم الشركسي الأشقر «برجس» يتمتم مع والدي مبتسماً، غاب والدي وأغلق المعلم باب الصف وراح يعلمنا. لم أنتبه إليه، وبقائي في المقعد دون حركة ضرب من المستحيل.

تقدم برجس مني ولطمني على خدي، في لحظة كدت أفقد وعيي، ورحت أصرخ في وجهه، وأشتمه، وأنا أجهش بالبكاء محاولاً الخروج من الصف، وقف المعلم مندهشاً أمام مشهد ربما لم يألفه خلال سني تعليمه، فها هو يسمع تلميذاً وهو يشتم أمه وأباه ويستخدم جمل الشتائم المعهودة آنذاك، كنت أريد الخروج من الصف بأيّ وسيلة لأكمل المعركة بالحجارة، وعندما رآني بهذا الهياج والعصبية وفي حالة هي أشبه بالاختناق ودموعي على أشدها، فتح باب الصف وانتحى جانباً، والتلاميذ ينظرون بصمت إلى المشهد.

وخرجت، وما هي إلا دقائق حتى كانت الحجارة تنهال على باب الصف وشبابيكه، ويبدو أن المدير قد بعث أحد التلاميذ إلى الإعدادية المجاورة حيث يدرّس والدي، كي يعالج الحال، رأيت والدي يتقدم إليّ بهدوئه الشديد، أخذني بين أحضانه وراح يقبلني، ويواسيني، وأنا أصرخ باكياً «ضربني، ضربني»، وهو يمسح بيديه دموعي.

أمسكني من يدي وقادني إلى البيت وحين رأتني المربية المحبوبة «أم صالح» على هذا النحو، وهي التي لا تكف عن أن تشكوني لأمي، ولكنها تحبني جداً وأنا أحبها، احتضنتني وهي تردد «خير يا حبيبي خير»، عادت أمي من المدرسة ورأتني في البيت لم أرد على سؤال أمي لماذا أنا في البيت. لكنها وقت رأت علائم الغضب في وجهي وآثار البكاء عليه احتضنتني هي الأخرى.

في صباح اليوم التالي: حاولت أمي أن تلبسني لباس المدرسة وأنا أبدي الرفض، لكنها بكل حنو قالت: سآخذك معي إلى المدرسة، وتجلس إلى جانبي في الإدارة، ذهبت ورفضت أن أدخل الصف، بعد أيام ما كان من أمي إلا أن أصبحت معلمة الصف الأول، ويبدو بأنها لم تجد إلا حلاً كهذا لمشكلتي مع المدرسة. ومضت الأيام وأنا في المقعد أستمع إلى دروس أمي معلمة الصف الأول، مدللاً من الجميع، مهاباً من التلاميذ، معتداً بقوتي، شاعراً بحريتي.

في نهاية العام كنت أقف في باحة المدرسة في حفل توزيع «الجلاءات» وقد حصلت على مرتبة الأول في الصف، لا أدري الآن طبعاً هل نلت مرتبة الأول لأنّي ابن المديرة أم لأنّي أستحق هذه المرتبة عن جدارة.

في الصف الثاني انفصلت عن أمي وتعلقت بمعلمتي الدمشقية الجميلة «بهية ميداني»، التي لم أنس اسمها ولن...

سنوات ست قضيتها في المدرسة على هذا المنوال، بين كاره للصف، و محبّ له، دون أن تسري عليّ طقوس العنف المدرسي التي كانت تتم أمامي على تلاميذ المدرسة القرويين، حيث لم تكن العصا لتفارق يد المديرة وأيدي المعلمات. ولم تتغير أغلب ملاحظات المدرسات على جلائي آخر العام «ذكي، كثير الحركة والكلام في الصف»، ولم تتغير أيضاً مرتبتي في نهاية كل عام والتي تراوحت بين الأولى والثالثة. إني وأنا أستعيد هذه التجربة بعين العارف الآن للشروط التي تكوّن الشخصية في سنوات الطفولة الأولى وبالعلاقة مع الجبلّة أدرك أساس ذاتي في مسارها الطويل.

كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات

الحيطان الأربعة

أحمد سعيد نجم

الشمس

الشمس. هذان الولدان سيموتان في الشمس.

طيّب. ارفعوهما. تمسّك. تمسّك جيّداً. لا تَخَض كثيراً. هَهْ. لقد خصت. أنزلوه. لا. لا تنزلوه. لقد تاب. صار ملاكاً. انظروا يديه المكتّفتين. ملاكٌ مفشوخ. يا لله انزل. لقد ثُبت؟ طيّب ارفعوه. ألا ترون أننا نُسكّر الطريق؟ وسأراك لو خصت. ستنزل. طيّب. سترى عندما نصل إلى البيت. هنا أمام الناس تستحلي. وهم يشفعون لك. وفي البيت؟ مَن سيشفع لك في البيت؟

مَن؟ والكلّ مشغول. والوالد معجوق. يصيح بهم من حينٍ إلى آخر: أتركوا هالولد. نسيتم الدنيا وعبدتم الولد؟ أتركوه. وانتبهوا كي لا يقع. خلَص. خَلَص. أتركونا من هالشغلات وكفلوا. كفلوا شُغل. كفلوا. أكفلتم؟ ألم يبق شيء؟ طيّب. شوفوا إن بقي شيء. هنا. أو هناك.

وهنا. أو هناك. وإلى أين؟ إلى البيت الجديد. والبيت القديم؟ البيت القديم بَحّ. لقد طار. عادَ لأصحابه. خلّيكم. والله خلّيكم. إذا منشان الأجرة بلا ليرتين يا سيدي. وبلا الأجرة كمان. وكنّا، نحن أولادَه خفنا أن يوافق.

- وكيف بلاها؟ والبيت؟ البيت الذي بنيناه في مخيّم اليرموك؟

- أجّروه. أجّروه. ألم تقل إنه جاءكم مستأجرون له؟

أجّروه. ظلّوا. ظَلّوا هنا. فقد اعتدنا عليكم. أحلى الجيران. أنتم الأحلى. أيّ والله بيت أبو فتحي أحلى الجيران. قالتها أم ياسين. والخانم لمعات. وقالها أبو راتب، وأبو عدنان، وأبو صيّاح.

- الله معكّن. الله معكّن.

قالها اللحّام أبو الراغب مُلَوّحاً لنا بالسيخ. بسيخِ اللحمة يستقبلُ أبو الراغب الهابطين إلى «ساحة عصفور»، أو الراحلين عنها. والساحة تشهد. والكلّ قالوها: سنفتقدكم. ولا شيطنات بعد اليوم. حوصة هنا. وحوصة هناك. والمدارس على الأبواب. هي، أو أن تُصبح أجيراً عند الناس.

وعمّا قليل ستختفي الشمس. وتبقى الأضواء، وحبال الزينة. وحبال الزينة امتلأت بصور عبدالناصر، وشكري القوتلي. أين الصُوَر؟ وأين حبال الزينة؟ لا أراها. هاهي الصُور. وهاهي حبال الزينة. فوق رأسك. أمدد يدك. ولا تقم. إن قمت ستقع. وسأكلّ أنا القتلة. الله يمضّي هذا النهار على خير.

وسيمضي النهار على خير. سيمضي فوق ظهر الطّنبر. والطنبر يرتحل وئيداً، وحثيثاً. يرحلُ صوب الفضاءات الواسعة لبساتين الغوطة. مسيرةٌ شابهت في تهاديها، وفي ما أشاعته داخلنا من خيالاتٍ موهومة، عبوراً مظفّراً يعود بنا إلى ديارنا السليبة.

طُنبرٌ واحدٌ. ونقلةٌ واحدةٌ. والأهلُ يعون. وكان علينا نحن أن نكبر لنفهم. وكومة اللحم ستنعجن. وهذه المشاهد وأمثالُها ستعجنها. ومن تذكّرها سنعيش. ونتذكّر. ونُبحِر. نُبحرُ. نُبحر.

ولادة أم موت؟ وحتى في استعادة ما فات يبقى التخيّل منقوصاً. ولا شيء يعود بدقائقه. ولا يكفي إغماض الذاكرة كي تشتعل. والخطّ الذي رسمته الذاكرة امتدّ. وامتدّ. وصار شارعاً. وما أسهل ما امتلأ الشارع بالعربات، والباعة، والمارّة. وما أسرع ما انبعث الضجيج.

مِن قلب السّكون المرعب ينبعث الضجيج الأكبر. ضجيج الحياة. الصمت الذي يعقبه صياح المحتاجين. وصياح مَن يملكون الحاجيات. يبيعون. وماذا يبيعون في ضجيج الحياة؟ أثمّة شيءٌ مما أحببناه ذات يوم؟

وذاتَ يوم كنتُ قد أحببتُ عرانيس الذرة. والفول النابت. والمخلّل. وغزلَ البنات. وحلّي سينونك ياولد. وأحببتُ الفرنيات أكثر مِنَ الكلّ. والبائع الواقف أمام باب المدرسة لم يفهم لماذا صارت خرجيّتي في ذلك العام أقلّ. كلانا، أنا وهو لم نفهم. وأنا والبائع أردنا المزيد.

- قُل لأهلك أن يعطوك أكثر. أفهمت؟ أكثر. أكثر. قُل لهم أكثر. وهم سيعطونك أكثر. سيخلقون لك المصاري مِن تحت الأرض. الأرض تحتها الكثيرُ من المصاري. والبكاء. والبكاء. وأنا لا أعرف. والبائع لا يعرف. وكيف يعرف؟ وكيف أعرف أنهم قد صاروا أفقر. ولسنا منهم. ولا ننتمي إلى وشوشاتهم الليلية. والوشوشات كلامٌ محجوب. إن عصرناه فكيف يصير؟ وما حجم الدموع في ذلك العصير؟ وأقفُ حائراً. حائراً. أيّ الدربين؟ أيّ الدربين؟ في أيّ الدربين يقع البيت. بيتنا الجديد. بيتنا القديم. أيّ بيت. أيّ بيت؟

أيعرف أحدٌ بيت هذا الولد؟ نعم نعرفه. وبيته في الشمس. في

حسام بلال

الشمس. وكانت شمس ذلك النهار لاهبةً ومُتوهّدة. وراحت، ولم تكن الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً، تُوجِعُ رؤوس الأشجار، وأسْطُحَ المنازل، والنوافذَ العاليةَ. وتُربِكُ الستيتيات. فلا تعرفُ أين تستريح. حتى الستيتيات لا تعرف أين تستريح!

وبدأ يُسْمَعُ في «ساحة عصفور» صريرُ إغلاق المحلاّت، وبوّاباتها الخشبية، وعربات الكارّو، والكُدُش، والبغال، والحمير، تُنزِلُ الخضارَ والفاكهة، وكل ما يملأ الدكاكين لتكونَ جاهزةً لاستقبال عيد الفطر، بعد أن دخل رمضان في عُشرِهِ الأخير.

وعند حنفيّة الشارع المفتوحة على أشدّها كان قد تجمّع نحوَ مِن عشرين ولداً وبنتاً يبتردون، ويرشّون بعضهم البعض بالماء، بانتظار أن يدخُلَ «أبو الرغب» إلى ملحمته فيلامسوا الخروف الذي فَرَغَ لتوّه من ذبحه، وتعليقه رأساً على عقب.

وكان لحظتها يفرمُ لحمةَ خرجَ الكبّة، أوصاه عليها «أبو عدنان» صاحب التنّور الذي يشتغل فيه والدنا. وكان، وهو يفرم، دائب المراقبة لحركة الأولاد. الخوف. الخوف دائماً أولاد الفلسطينيين. شياطين والعياذ بالله. والأولادُ يتدافشون. وتجرّؤوا أخيراً فمدّوا أيديهم المبلّلة يجسّون اللحم الذي كان ما يزال ساخناً كأنما طلع لتوّه من التنّور.

ثم، أخذتهم الحال فراحوا يأرجحون الذبيحة جيئةً وذهاباً، وأقدامهم متوثّبةٌ للفرار. وهم سيهربون في الحال. ولقد قالها «أبو الراغب» ألف مرّة «لو كانوا ولدين أو ثلاثة لما حكيتْ معهم».

وعلى العكس من أبنائهم كان الآباء يتفيّؤون، وحيدين، مكسورين، عند الطرف الشرقيّ لجامع الدقّاق، في حيّ الميدان، من دمشق الشام؛ مدينةِ الرجاء. بذراعيها المفتوحتين لما كانوه لحظتها: أبناءً للمأساة، ولأملٍ بعيد المنال. يخرجون منذ الصباح بحثاً عن فرصة عمل. تاركين للنسوة ترتيب فوضى الليل.

وضجيج الأطفال.

- ثمّ، يا أخي إن لم يستحمّ الأولاد تحت الحنفية فأين سيستحمّون إذن؟

وكان المخلّص الذي ينشدونه ساعتها أقلّ كثيراً من أن يكون مسيحاً منتظراً، أو بطلاً من غابر الأزمان، مثل صلاح الدين الأيّوبي، أو الظاهر بيبرس. وأن تكون غريباً مثلما كانوا، فذلك يعني أن تقف الموقف الذي وقفوه. تُصعّدَ البصر، وتتعقّبَ الامتداد الكثيفَ للبيوت، والعمارات، والدكاكين المصطفّة على جانبي الطريق وصولاً إلى قاسيون. والبصرُ كان سيأخذك إلى واحدٍ من أطول دروب المدينة، وأكثرها بَشَراً وحياةً. إنّه الدربُ السلطانيّ. نافذة دمشق الشام على حوران، وفلسطين، ومصر، والحجاز. دربُ الجيوش الظافرة، والفلول المهزومة، وقوافل الحجّ، والتجارات المرتفعة من المدينة وإليها.

بيوتٌ تنفتحُ عتباتُها على نداءات الباعة، ومفاصلة الشارين، وأخرى تغوص في الحارات المعتمة والباردة. وكان وجودهم في ذلك الحيّ الغريب عنهم، والغريبين عنه، يعني أن الكثير ممّا عاشوه، وممّا اعتادوا عليه، قد ولّى إلى غير رجعة، وبأنهم لا شيء يُذكرُ في هذا العالم الصاخب من حولهم. ألا ما أكثر الناس، وما أكثر احتياجاتهم.

إذ، ما أن تبينّ الوجوهُ حتى تختفي من جديد. أزقّة. أزقّة. ووجوه. ووجوه. ولعبةٌ دوّارةٌ. قرونٌ نخرها السوس. وكلّ ما هنالك يتلوّى. ويتلوّى. ألغاز. ألغاز. ولا حلّ للألغاز إلاّ مِن قلبها العنيد، والملتبس. والأمر ليس سوى لعبةٍ قاسية. وهم عند حافّتها.

وعند الحافّة راح كلُّ ما هنالك يعمر بالأطايب من خضارٍ وفاكهةٍ، وعربات التراموايِ ما تنفكّ تقرع الأجراس. تشقّ طريقاً مضنياً وسط البغال، والحمير، والعربات المحمّلة بالبضائع. والكلّ يريد أن يستبق مكاناً لنفسه: باعةُ العرقسوس، والتمر هندي، والمقادم، والروس، والحُمّص، والفول، وكلّهم يتجهزون في هذا الوقت المبكّر من الصباح. ولكلٍّ موقعُه المعروفُ، وإلاّ ففي الانتظار خناقاتٌ، وصياحٌ لا يتوقّف.

وهاهي أرصفة الدرب السلطاني قد فاضت. ولا مكان غير الدرب نفسه. تجهيزٌ على أشدّه لمعركة ما بعد العصر. عندما تتزاحم الأكتاف والأيدي. تطلب شيئاً مِن كلّ شيء. لموائد الإفطار. وللسحور. لرمضان. شهر الصيام. وشهر الطعام. ووسطَ الدرب السلطانيّ كان دوماً ودوماً يصخب بالأولاد، وقد وضعوا ما جمّعوه من مسامير، وقطعٍ معدنيّة على السكة لتدهسها العجلاتُ، وتحيلها إلى عجائبَ يُباهى بها:

سيوفٌ وسكاكين. قِطعٌ مفلعصةٌ وقِطعٌ أحلى. والترام يصعد. ويصعد. والطريق طويلٌ. الطريق مِن أوّل الشام إلى آخرها: من بوابة الله إلى ضريح الشيخ محي الدين بن عربي. والعودة كذلك. الطريق ذاتُه. السكة ذاتُها.

آلافٌ مؤلّفة من البشر. فكيف يصل الولد إلى البيت؟ ومِنْ جديد ضاع.

- أيعرف أحدكم أين بيت هذا الولد؟

- نعم. نعرفه. وبيتُه في الشمس.

- في الشمس.

- لا ليس في الشمس. في مخيّم اليرموك.

- وإلى أيّ بيتٍ تريد أن تصل يا ولد؟ وهذا البيت الذي عمّرناه في اليرموك بَحّ. طار. أتى وقتٌ كرهناه فيه. كرهنا ما بنيناه. وكان «أبو عامر» أوّل الكارهين. والبداية كانت من البيت. من جنى العمر.

- أيكره الإنسان بيته؟ نعم. لقد بِتُّ أكره بيتي.

البيت الذي صار يدخل إليه، ويخرج منه مثل فأر لم يعد يريده.

- إلى أين؟ إلى أين؟

- إلى البيت. أذهبُ إلى البيت.

- أهه. تذهب إلى البيت. لعن الله البيوت. وساعة البيوت.

وسيرحل «أبو عامر» عن البناية قبلنا بأسابيع. وقبل أسابيع من رحيله كان أهله قد هربوا من بيتهم في «بساتين الرازي» والتجأوا إليه. وحان دوره الآن كي يلتجأ إليهم. وجمعةٌ عنده، وجمعة عندهم. تلك هي الحياة. دَيْنٌ وسداد. الابن يكرّر الأب، والأبُ يكرّر الابن. والجميع يكرّرون الجميع.

أتذكّر ذلك كلّه فأسمع الأسئلة من جديد.

- أرأيت؟

- ألم أقل لك؟

أسمعها فأتلفّت إلى الخلف. لا أرى أحداً. بل من المحال أن أرى أحداً. ولأنه كان صوتاً فقد كان في كلّ الجهات. والصوت كان يُعلّمني. أوقفني أمامه مثل تلميذٍ كسول. وقال كلاماً أكبر منّي:

- اسمع يا ولد. صرت رجلاً ولا تعرف؟

- وماذا عليّ أن أعرف؟

- أن تعرف أن المعرفة الأكثر تُعوّضُ خسارة السنين. ولا شيء يذهب سدىً. الربح خسارةٌ. والخسارة ربح. فقط لو تمعّنت في الأمر جيّداً.

نعم. نعم. فمن دون التفكير كيف كنت سأعرف لحظتها أنّ الصوت لم يكن لي، بل كان للولد الماثل في ملامحي، وتصرّفاتي. ألا يقولون لي: أنت. أنت. لم يتغيّر فيك شيء. وكان باستطاعتي أن أعزل الأنين. أن أنساه بعد أن أُلِفتُهُ. وأن أترك أذنيّ لصوتٍ أكيد. الصوت الذي كان يكلّمني. وهو الصوت الذي كان عليّ أن أميّزه. أنا مجبرٌ على ذلك. فقد يكون لي. وقد يكون لغيري. والنسبة هي النصف زائد واحد. ولم أكن أقبلُ بتلك النسبة فيما مضى. وأنا الآن أقبل أقلّ منها!

- أرأيت؟

محمد عراقي

- ألم أقل لك؟

أسئلةٌ كبرى. بل هي الأكبر مِنْ بين الأسئلة. أسئلةٌ لا يطرحها الصغار على الكبار. ولكنني متأكّد من أنه لي. حضوري وأنا أحمل قطعة النقود التي ما في غيرها. وأفتّش في الطرقات عن الطريق الصحيح إلى البيت الصحيح. بيتي الجديد. البيت الذي غيّر جلده مرّاتٍ ومرّات. حتى صار كالبهلوان.

والتغلُّبُ على الحيّز الضيّق ألزمه أن يرتفع شاقولياً. فابتدأ بطابقٍ. ثمّ صار اثنين. ثلاثة. أربعة. صار البيت نبتةً اتّكأت على عكاكيز. لاحقَت ضوء الشمس. في «بيت العُمر». هكذا أسماه الناس. «بيت العمر». والتسمية جاءت منهم. وكانوا يحكمون على الظاهر. وستغزل السهرات، والنوم، والساعات الطويلة على برندته أواصر الألفة بيني وبينه، وبيني وبين الجيران. وستنعقد الصداقة الأعظم مع الإطلالة الأصخب، في شارع اليرموك، الشارع الأعجق في دمشق الشام.

وبأقلّ مِن إغماضة عين. بأقلّ مِن أن ترفع يداً تحمي بها رأساً، أو تُخفي جسداً مرتعشاً، بأقلّ من ذلك كلّه صار ذلك الذي انبنى هباءً منثوراً. انعدم ما كان بعد أن كان وكان. وكنتُ أعرف أنّ المقصود من تلك الأصوات التي أسمعها في رأسي أن أرى الخراب المحيط بنا.

وكان خطّاً ارتسم فوق الورق. رسمته يدٌ صارت غباراً. ومَحَتْهُ اليد التي استحالت إلى مكنسة. ولو ظلّت اليدان ترسمان، فإلى أين كان ذلك سينتهي؟ أين ينتهي الخطّ إنْ مددناه؟ إلى أين ينتهي هذا الذي بدأناه؟

ولكن. ألم نتّفق أنا ونفسي، أن أرسم خطوطاً في المكان، وأن تكون مجرّد خطوط. ولا شيء سوى الخطوط. ولأن تلك الخطوط كانت في المكان، فهي في الزمان أيضاً. الزمان والمكان المتعيّنان كانا دوماً ملْ اللوحة. نعم. طيّب. إذا صدّقنا بانقلاب الخطوط إلى حيطان، وبرندات، وأبواب، وشبابيك. وكلّ ذلك إلى أيام، وشهور، وسنين. إلى ما قبل بعض الأشياء. وإلى ما بعد بعضها الآخر:

وهذا الذي اتّفقتُ أنني مقتنعٌ به سيمضي في لعبة الوهم إلى آخرها. وأن أرسم الوهم يعني أن أصنع المزيد من الأصداء. والأصداء رَسَمَتْ أطفالاً مضوا. وأطفالاً أتوا. صحيح. صحيحٌ تماماً ذلك الذي ارتسم. ولكن أين الحيطان؟ الحيطان الأربعة. أين الحيطان الأربعة؟ فقد كان لنا أربعة حيطان.

- أما تزال حيطاننا الأربعة واقفةً؟

- لاْ

- إذن فهي نائمة؟

- لاْ

- لا واقفة. ولا نائمة. كيف؟

- كيف؟ كيف؟

أسألُ وقد نسيت أن ما أراه على الطاولة أمامي لم يكن أكثر من خطوط. خطوطٌ رسَمَتها المسطرة والقلم. فلقد كنتُ احتجتُ إلى برندةٍ أسند عليها مِرفقيّ فرسمت. واتكأت. وبعد أن اتكأت، رسمت الحيطان الأربعة كي أتّكئ من جديد.

كاتب من فلسطين مقيم في الإمارت

المغنية العمياء توقظ شجر الشعر

أزراج عمر

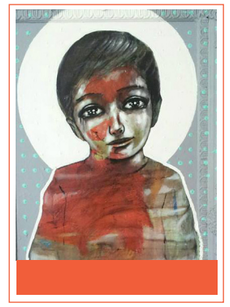

كان عمري حينذاك تسع سنوات عندما أخذتني والدتي إلى عرس زواج أقامته عائلة مجاورة لبيتنا في قرية إظريقن المحاذية لنهر الصومام بمحافظة بجاية الأمازيغية. في ذلك العرس رأيت نساء كثيرات من مختلف الأعمار، وذكورا قرويين لابسين البرانس كعادة الأمازيغ القدامى والمحدثين. حينما أقبل الليل وخيّم الظلام أضيئت مصابيح وعبئت بزيت الزيتون ثم تجمعت النساء الأمازيغيات في باحة المنزل الذي أقيم فيه العرس وشرعن في الرقص جماعات ووحدانا في صفوف قسمت هندسيا بشكل جميل. كان إيقاع البندير الذي كانت تقرعه مغنية عمياء برشاقة يستفز الأجساد ويحرك أشرعة الروح. كانت تلك المغنية الشعبية تدعى «لالاّ مسعد نثحمي» وكان غناؤها أشبه برفيف أجنحة الطير المهاجرة في الفضاء اللانهائي. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها النساء يرقصن بمثل هذه الرهافة ويطلقن خصلات شعرهن في الهواء. وتحت شجرة زيتون ضخمة محاذية لذلك المنزل، والتي كان السكان يسمونها «البركة»، رأيت الرجال يرقصون ويرفعون عصيهم في الهواء أيضا، وأحيانا يلقون بها على الأرض في صفوف متوازية ثم يواصلون الدفع بأجسادهم في كل الجهات بخفة.

فجأة رأينا عساكر فرنسيين قد أقبلوا وبسرعة قاموا بمحاصرة العرس من كل جهة، ومن ثم تقدموا إلى وسط المنزل وبنادقهم مشرعة، وأخذوا يعتقلون من أرادوا اعتقاله من الرجال. في هذا الجوّ الذي شق قلبي بالرعب واصلت «لالاّ مسعد» الغناء وقرع البندير بوتيرة أعلى من ذي قبل واستمرت النسوة في الرقص بدون توقف. سمعت والدتي تقول بلكنتها الأمازيغية الريفية لامرأة لم أر وجهها من قبل وهي تردد غناء لالاّ مسعد «يا نساء قريتنا واصلن وسنغلب هؤلاء العساكر بالغناء والرقص». خلال مدّة من الزمان سمعنا طلقات الرصاص في الجهة التي أخذوا إليها بعض رجال القرية ولم يمض إلا وقت قصير حتى علمنا من طرف نظرائهم الذين أطلق سراحهم أن الجيش الفرنسي قتل عددا من أولئك الرجال وتركوا جثثهم ملقاة على الأرض ثم عادوا من حيث جاؤوا. في تلك اللحظات سألت والدتي «لماذا قتل الفرنسيون هؤلاء الأبرياء في عز يوم أفراح العرس؟ وهل فعلوا هذا لأنهم يكرهون الرقص والغناء؟ أسئلة كثيرة طرحتها مرارا، ولكن والدتي اكتفت بذرف الدموع وإجابة سريعة دون أن تتوقف عن الغناء مع النساء ومع «لالاّ مسعد نثحمي». في ذلك الوقت لم أكن أستوعب مغزى إجابة والدتي حين قالت لي «هم يكرهون فرحنا بغنائنا ورقصنا»، ولكن بعد ما كبرت أدركت أن المستعمر كان يعامل الشعر والموسيقى كأحد أسلحة مقاومة الموت، والاحتلال، ومختلف أشكال الاضطهاد، وأدركت أيضا أن المستعمر يريد أن يمحو كل شيء يدعى بالتاريخ والذاكرة بواسطة إراقة الدماء. لقد حفرت هذه الحادثة أخاديد كثيرة في وجداني ولم أستطع أن أنسى كيف حوّل ذلك العرس ورقص القرويات البريئات وغناء «لالاّ مسعد» إلى مأساة. وبعد سنين طويلة على مرور ذكرى ذلك الحدث الأليم كتبت هذه القصيدة التي تستعيد تلك اللحظات الصعبة ورعبها العنيف:

فرس الجبال تحتنا.
كانوا الحجارة في الحذاء، وصبرنا.
انفجرت أغاني الناي باكية،
وهبّت رغوة الحزن الشرس.
هذه جراحي، كانت الشمس
امرأة فقدت أصابعها.
أتذكر غضبة القمر،
وسقوط أجفان الطفولة واحتراق الظل والشجر البريء؟
الجرح موسم حقلنا.
الليل سلَمنا.
أتذكر كيف كتّفوا أباك وجرّه العساكر؟
حدق بعيداً،
الليل يعتقل المكان.
الآن يبتدئ الرحيل
من حزننا عاد القتيل
في صمتنا ولد النخيل
من جرحنا بدأ السبيل
يا صيحة الشهداء كوني
قامة الوطن النحيل.
ليس الشهيد ذبول صوت
ليس الشهيد ضمور وقت
رؤياه تختطف الحواس
وتبيد أزمنة النوى.
وجه الشهيد
عشق الرحيل
نحو الجميل
فرمى الوسام،
غنّى على جسد التراب
آنذاك انفتح التجلي فرأى المحال.
في حضرة العشاق يفتح كوّة الأسرار
ويصيح في الحجر الرميم يصير ضرعا
ويصيح في جبل الجراح يصير زرعاً.

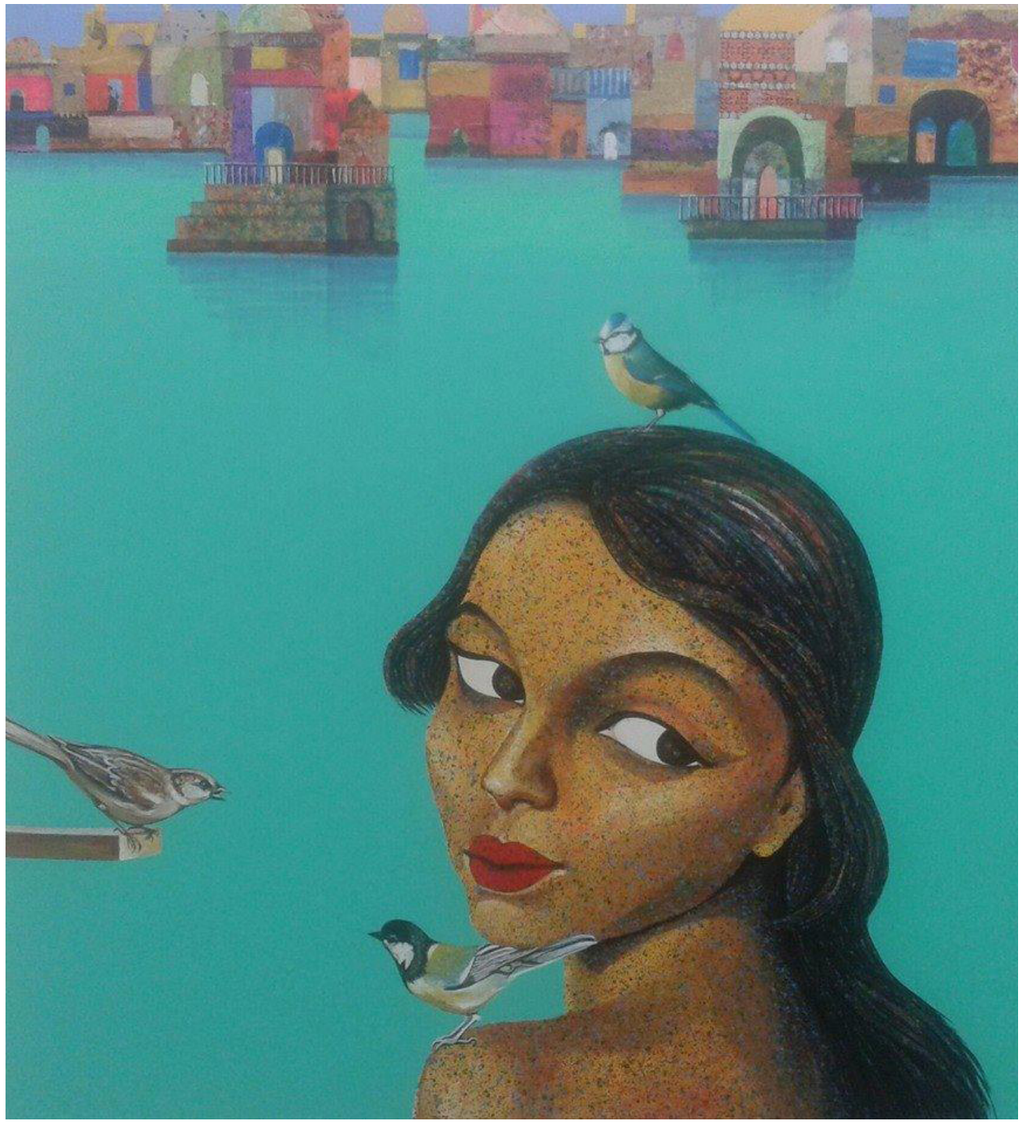

علي علي

لا شك أن بصمات ذلك العرس، وذلك الحدث الدموي الذي عكّره بقيت تؤثر عميقا في مسار حياتي الأدبية. في ذلك العرس كانت «لالاّ مسعد نثحمي» تصدح بصوتها الشجي فتتسرّب إلى قباب روح طفولتي تضاريس جبال «لالاّ خديجة» وتنفذ إلى عروق شجر الزيتون مياه نهر الصومام. عندما يسمو غناء «لالاّ مسعد نثحمي» وزغاريد الصبيات الجميلات كنّا نحس وكأن الجبال تلبس قفطان تلك الزغاريد، ونرى أرداف الراقصات المترنّحات تشتعل شهوة وتبدو العيون وكأنها تذرف لوعة العشق. من حين إلى آخر يبرق صوت «لالاّ مسعد نثحمي» المتهدج وينتشر في السموات ويعانق منحنيات الآفاق فتخطف حواسنا الخمس خصلات النساء السوداء والشقراء التي تتدلى مثل العناقيد لتلمس رحم الأرض ثمّ سرعان ما تدفعها أصابعهنّ الناعمة إلى الأعلى برشاقة فتتوزع بفعل دفع الريح في الفضاء ثمّ تتجمع معا وتشكل قبّة ملوّنة تجلس في راحتها سموات أخرى. في تلك اللحظات تتفتح الشفاه دفعة واحدة وتصدح معا فتلتقي الزغاريد مثل سرب طيور السنونو وحينها يرد الصدى أغنية «لالاّ مسعد»:

«أيها الخصر البربري لتكن بلادك زهرة المشمش،
ولتسدل حزامك على نبع الغابة الرقراق!».

كانت «الريح» في أغاني «لالاّ مسعد نثحمي» ومواويلها معادلا للثورة، وكان «الأسد» يرمز إلى الشجاعة، و«الحمام» يكنى به عن الحب العذري الشفاف، وطير الزرزور يحمل دلالات مكتشف القارات والمغامر في أصقاع المعمورة ويرمز أيضا إلى ذلك الرسول الذي يسعى إلى اللقاء بالعمال المغتربين في مهجرهم، وبالمسجونين في زنازينهم المسيّجة بالقيود، وبالمنفيين في منفاهم الذي يفصلهم عن أهلهم وذويهم ويمتد في ظلمات البحار القصية إلى أصقاع كيان وجزر أخرى عبر المحيطات. في أغاني «لالاّ مسعد نثحمي» يرمز «الغصن الميّاد» إلى العاشق الذي لا ينحني حتى عندما يشتد به الهيام أو تلسعه حرقة الحبّ وتهبّ عليه عواصف الوجد من كل مكان. هكذا كانت «لالاّ مسعد نثحمي» تراثا غنائيا يسير على قدميه ويغني بلسان الطبيعة كلها. إنه على يدي هذه «المغنية» الشعبية الموهوبة تعلمت أن مهمة الشاعر من بين المهام الأخرى هي الإمساك بالعلاقة التي تصل بين الطبيعة والإنسان، وبين الشعر وفكرة التحول في التاريخ. لم تكن الطبيعة التي تكتنز بها أغاني «لالاّ مسعد» مجرد مناظر غرائبية جامدة وإنما كانت تتكلم وتعاشر القرى الواقفة على التلال والمنحدرات، وصديقا أمينا للإنسان ومصدرا للأمل الذي لا حدود له. أذكر كيف كانت «لالاّ مسعد نثحمي» تغني والنسيم يمرّر أصابعه الحريرية على الصبايا الجميلات وهنّ يشعلن الفضاء بتباريح الروح والشبق الأخضر، وأغصان الزيتونات الضخمة التي تسمى في اللغة الأمازيغية ب«ثيزراجين» والتي اشتق منها لقبي «أزراج»، وأتذكر أيضا أن من عادات «لالا مسعد» أن تنحني برأسها إلى بنديرها ثم تشمخ بصوتها عاليا:

«قمري أنت يا سيّدي المشرق على أعشاب الغابات،
حيث يضيء الحباحب دروب الأسود الصغيرة،
ورفرفة الحجل توقظ الينبوع من سباته القديم».

لقد قادتني هذه التجربة إلى فتح بوابات الثقافة والفنون الشعبية الوطنية على مصراعيها وتحوّلت مع النضج في السن إلى منهل أشرب منه وأستعيد بطريقتي الخاصة كنوزه الغنية في كتاباتي الشعرية، وصرت أفهم أيضا أن لا شاعر خارج تاريخه الشخصي، وتاريخ الثقافة التي تربّى عليها في طفولته، مثلما صححت الفكرة التقليدية التي ترى في الثقافة والفنون الشعبية عنصرا هامشيا في تاريخ الوجدان الوطني. إن انحيازي إلى ربط الشعر بالتاريخ الشخصي لا يعني أن الشعر هو مجرد سيرة ذاتية منفردة ومعزولة وعازلة، بل فإن الشخصي هنا يشمل كل العلاقات التي شكلت وتشكل هوية الإنسان. بخصوص هذا قرأت الكثير من النظريات التي ثارت على الاتجاه الرومانسي ودعت إلى تجاوز الذاتية التي يفترض أصحابها أنها تحول دون رؤية الشاعر الصحيحة للتاريخ، ولكن أدركت أن مثل هذه الدعوة محفوفة بكثير من المخاطر أيضا وخاصة إذا طبّقناها حرفيا على الشعر العربي. لقد انتبهت أن الشاعر عندنا يصارع على عدة جبهات منها جبهة تأكيد الذات التي تسلبها القبيلة والعشيرة والنظام الأبوي. بناء على ذلك فإبراز الذات غير المغلقة على نفسها نرجسيا والتعامل معها كأنها آخر على حد تعبير الفيلسوف بول ريكور ضرورة يليق أن يدركها الشاعر عندنا. لا شك أن تاريخ طفولتي طوال ليل الاحتلال الفرنسي مرتبط بما أكتبه من شعر يستعيد جزئيا وبطريقة غير مباشرة وبشكل يعدل من تركيبة ذلك الزخم الذي تكتنز به أغاني «لالاّ مسعد نثحمي» وكذا الأغاني الشعبية الأخرى المرتبطة بحركة التحرر الوطني وتراجيديا الهجرة الداخلية والخارجية فضلا عن الشعر الأمازيغي الشعبي وخاصة شعر «سي محند» أو «محند». ولقد أصبح واضحا لي أن تكرار بعض التجارب الشعر النمطية لدى الكثير من الشعراء في مشهد الشعر المكتوب باللغة العربية مغاربيا ومشرقيا هو نسبيا نتاج لعدم استعادة الشعراء لذاكراتهم الشخصية التي تميز هذا عن ذاك. إن المهم في كل هذا هو ليس تسجيل العلاقة مع الثقافة الشعبية كما هي بل الأهم هو إيجاد طريقة خاصة للدخول إلى فضاء الزمان بما هو تاريخ معدل تضاف إليه تجارب الحياة المعاصرة.

شاعر من الجزائر

علي علي

كشاف دائما

أيمن حسن

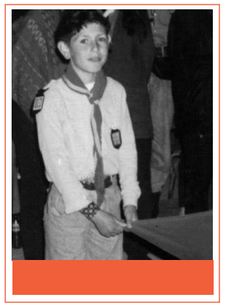

«الوقت طفل يلهو ويلعب الضامة. إنّ السيادة مِلْكٌ له».

هيرقليطس، الشذرة 52.

ربّما خرجتُ من طفولتي، لكن لم تتخلّ طفولتي عنّي.

الليلة أيضا، زارتني نفس الرؤيا. كأنّها عودة في الماضي، في أحد أمكنة طفولتي، في غابة الرمال، حيث خيّمتُ مع الكشافة خلال عطلة الصيف. كان عمري آنذاك إحدى عشرة سنة، لكنّي تعرّفتُ في حلمي على صوتي كما هو اليوم.

كانت السماء حالكة، دون نجوم، وفي حين كانت سحب شديدة السواد بالنسبة إلى الموسم تحجب وجه القمر، كان صوتي يمتزج بصخب عصبة الأطفال التي كنت أنتمي إليها. الغابة التي تحاذي البحر، كانت تدفع إلى عرضه جلب الموج، لكنّها لم تكن تتمكّن من إسكات أهازيجنا. كانت مشاعل منصوبة هنا وهناك تركّز الأضواء على نار المخيم الذي كنّا مجتمعين حوله. وكان أحد الكشافة الرواد يرعى نار المخيم؛ كان عاري الصدر؛ وكانت حركاته الحماسية التي يمكن نعتها بالديونيزية تبعث فينا الرعب والبهجة في الآن نفسه.

رعب أن أكون هنا، حلقة تابعة لسلسلة طويلة، حلقة ضمن أخرى أجهل عنها تقريبا كلّ شيء، مع ذلك الإحساس بالخوف، ذلك الخوف الذي شعرت به في أحشائي كلّما توجه إليّ واحد منهم بالكلام أو صوّب نظراته إليّ؛ بهجة أن أكون هنا بين أمثالي من الصبيان والبنات الذين صاروا بعد أسبوعين من التخييم المشترك أخواتي وإخوتي الحقيقيين، فلقد شكلنا لحمة بفضل هذه التجربة التي لن يكون بعدها أحد مثا نفس الشخص والتي لن يخرج أحد منها على حاله. الرعب والبهجة يمتزجان في هذه الليلة الأخيرة من المخيم الكشفي التي يضاف إليها الاحتفال بالنار المضاهي في قيمته تحية العلم، فالرعب والبهجة هنا الشعوران المتضادان المتمثلان في أننا لن نكون أبدا نفس الأشخاص وفي الآن ذاته أننا صرنا أشخاصا آخرين إلى الأبد.

وبانسجام، كانت قلوبنا تخفق وأيادينا تصفق وأفواهنا تغني «نشيد نار المخيم»، وهو نشيد الوداع الذي يعبّر عن الرعب والبهجة الكامنين فينا:

يا من في المُخيّم هلـمّوا حول هذه النّار
أحــداثٌ وقُـدماء أسرعُوا في الخُطـى
لمجلس الأبرار
انتظم أيُّـها الحـارسُ وأشعل
نار الفـوارس ولتكُن وقّادا
الخيّـامُ في هُـدُوء والقـومُ اجتمعُـوا
النُّـورُ قـد تهـادى.

لا وجود لاقتطاع ممكن لهذا الماضي الذي أعيش في كل لحظة من هذا الحاضر الذي يتحوّل ذاته إلى ماض. كما لو أنّ كل شيء -الماضي والحاضر- قدره أن يصير مستقبلا. كما لو أن كل كلمة وأغنية ووجه قابلته أو ربما حفظته عن ظهر قلب عليه أن يكون كالزاد، شيء كالنور الذي لا ينفك يشتعل بداخلي، في أحشائي وحتّى في عيوني. مثل نار المخيّم تلك التي في نهاية الأمر أضاءت طفولتي ورمت بشيء من النور في سن مراهقتي التي كانت، حسب رأي أمي، هادئة ومرتّبة. نعم، أمّي تفخر بزجها بي في الملحمة الكشفية. لم يكن أيّ شيء سهلا بالنسبة إلينا: الابن الأوحد في عهدة امرأة مطلقة، لم يكن بإمكاني أن أعيش حياة عادية مع الأفراح والأتراح، الحرية، وربما الطيش الخاص بكل حياة تستحق هذا الاسم. لم يكن بإمكاني أنا وأمّي عدم احترام القوانين، تلك التي تخص المجتمع والأخرى الجزائية. لكلّ منا حدوده أو -على حد قول أمي- أعداؤه. كان أبي عدونا. حياتنا المشتركة بنيت تجاهه وضده.

كانت حتما الأخلاق الكشفية وراء اختيار أمي. كذلك شجّع انتماء بعض أصدقاء العائلة والآخرين من معارفنا في مدينتنا الصغيرة حمام سوسة أمّي على عدم التراجع في خيارها، خاصة أنّ البعض من أولئك الذين كانت تسمّيهم بكل فخر «أولادي»، وهم من الصبيان والبنات الذين تتلمذوا عندها في رياض الأطفال، كانوا سيسهرون علي. في كلّ الحالات، هذا الذي حدث والتحقتُ بالركب، لكنّي صرتُ في فترة قياسية عريفا لسداسي أشبال كان يضمّ في الحقيقة اثني عشر فردا. ولقد أطلقتُ على هذا السداسي اسم البنفسج لأنّ اللون الأزرق كان مستعملا. وهكذا إذن تعرفتُ على اثنين من الأعراض البيّنة في الحياة، وهما الحصول على الاعتراف بأيّ ثمن والغيرة.

لازلت أتذكر أغنية أخرى وهي «الأبجدية الكشفية»، والتي كنت

علي علي

منذ ذلك الوقت أحفظها عن ظهر قلب بالفرنسية وكانت هي السبب في إدراكي للعارضين اللذين ذكرتُ، تحديدا تعرفتُ على بعض الوقائع التي مكّنتني من فتح عيني على هذين الحقيقتين. أنا متأكد مثلا من أنّ فشلي في تلقيب سداسي بالأزرق وهو لوني المفضل، كان وراء ولادة إرادتي الفوق بشرية المتمثلة في حاجتي الماسّة للبروز والتميّز على قادة السداسيات الآخرين. هل عليّ أن أضيف أنّ النظام شبه العسكري للكشافة كان وراء ذلك، لأننا لم نكن في منافسة أو في تحدّ، بل كنّا حرفيا في حالة حرب. تمكنت إذن بفضل «الأبجدية الكشفية» التي كنت أتفرّد بمعرفتها بالفرنسية من الانتصار في معركتي الأولى:

Un jour la troupe campa, a a a

La pluie s'mit à tomber, b b b

L'orage a tout cassé, c c c

.Faillit nous inonder, a b c d

طبعا، لم يكن بيننا جوزيف أو طباخ مختص في طهي «أرنب غارين»، الخ.، لكن أكرّر أن وحدها معرفتي لهذه الأبجدية الكشفية بالفرنسية مكّنتني من انتصاري الأول. الطريقة الطبيعية التي أنشدتُ بها، اللكنة الفرنسية التي كانت تميزني، باختصار البراعة التي أدّيتها بها أثارت إعجاب قادتنا الذين لم يكن بإمكانهم عدم الاعتناء بال«حالة» التي اكتشفوا فيّ أو حسب البعض «الظاهرة» التي كنتُ أمثّلُ. في الحقيقة، كان البعض يرى أنّها «بدعة»، أنّ واحدا منهم كان يقرأ ويتكلم بامتياز لغة ذلك البلد العظيم الذي كان يثير إعجابهم ومقتهم في الآن ذاته. لا ننس أنّ هذه الأحداث تزامنت مع حرب الخليج الأولى «عاصفة الصحراء» التي انخرطت فيها فرنسا، وهذا ما لم ينل إعجاب التونسيين شعبا وسياسيين، خاصة منهم الكشافين الذين كانوا يقرون بانتمائهم الفكري والأيديولوجي للقومية العربية عامة ولحزب البعث ولصدام حسين خاصة. كنتُ إذن تلك «البدعة»، إذ كنتُ لا أتنقّلُ إلاّ صحبة كتب ومجلات وكراريس كنت ألتهمها بشغف غير مألوف، وهذا غير مسبوق بالنسبة إلى الجيل الذي أنتمي إليه. كنت أقرأ على سبيل المثال مجلة «بيف غادجيت» التي كنتُ أستخلص منها مجموعة من

تانيا الكيالي

المعلومات والكلمات والتجارب الأدبية والعلمية والثقافية التي كان يجهلها كلّ أبناء جيلي. وكنتُ في تلك الفترة أشاهد القناة الفرنسية الوحيدة التي كنّا نستقطبها وهي «القناة الثانية» التي صار اسمها بعد ذلك «فرنسا الثانية». هذان الوسيطان اللذان كانا بالنسبة إليّ متكاملين مكّناني من مقارنة واقعين كانا بالنسبة إلى كلّ الذين كنتُ أعيش معهم واقعينِ متضادينِ، فالتضاد بين اللغة الفرنسية المقروءة والمكتوبة التي كنّا نتعلم في المدارس التونسية كلغة ثانية مختلف للغاية عن الفرنسية المكتوبة والمقروءة في فرنسا. هذه لم تكن تلك وتلك ليست هذه. مواجهة هاتين الحقيقتين كشفت لي اليوم أكثر من الأمس المعضلة التي تمثلها «الفرانكفونية» بما هي «ضاحية» فكرية وثقافية، وهو وضع مفروض علينا بفعل التاريخ. لكنّي رفضت هذه العبودية وربمّا لعبت مجلّة «بيف غادجيت» دورا حاسما في ذلك، إذ أنّي علمت بعد سنوات أنّها كانت من منشورات الحزب الشيوعي الفرنسي، وفي الحقيقة شجعتني هذه المجلّة على التحلّي بمنجد «لاروس للمبتدئين» رغبة منّي في جعل هذين العالمين يتوافقان وربّما يتناغمان، أي عالم الواقع وعالم الأحلام المنشودة. لم تكن الأمور سهلة (وهل هنالك ما هو سهل، خاصّة إذا ما تطلّعنا إلى الأمور عن بعد مسافة ما...)، فصور التلفزيون والرسوم المتحركة والملصقات في مجلّتي المفضّلة وكذلك تلك التي يحتويها منجدي الصغير كانت ولا تزال تفتنني، إلى درجة يمكنني قول إنّ خيالي تأسّس من خلالها وأنّ الرجل الذي صرتُ اليوم نتيجة تلك المرحلة، فعلاقتي بالأسماء والأشياء والأشخاص وحتّى الوطن ولدت من هناك، فابن البلد، ذلك الكشاف الصغير لا يزال بطرق عدّة كشاف دائما.

حتما شرع ذلك الخيال في البروز وحتما كان يحتويني وربّما يضيء عينيّ إلى درجة أن لبنى قائدة الزهرات كانت تتغنّى بهذا الضياء عبر أبيات محمود درويش:

بين ريتا وعيوني.. بندقية

والذي يعرف ريتا، ينحني

ويصلي

لإله في العيون العسلية.

لم يكن بالنسبة إليّ اسم محمود درويش مألوفا، لكنّي كنتُ أحفظ هذا القصيد عن ظهر قلب، خاصة بفضل لحن وأداء مارسيل خليفة له. السياق السياسي كان في الحقيقة سانحا لذلك مع صور انتفاضة الحجارة التي بدأت تصل إلينا واغتيال رأسها المدبر الزعيم خليل الوزير أبي جهاد في سيدي بوسعيد ليلة 16 أفريل 1988. يمكنني أن أقول إنّ كلّ هذه الأحداث أثّرت في طفولتي وهي لا تزال اليوم في قلب اهتماماتي.

في الحقيقة، تبدو لي بعض الأشياء مرتبطة بنا وبحياتنا، مثل تلك الأوشام التي تحدّث عنها الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد لوصف أطلال حبيبته خولة، وهي أوشام لا تمحى، لا تموت، وذلك ما عشنا وما عاش أولئك الذين يرغبون في تذكرنا.

ولازلت أتذكر هذه الأنشودة -« Clair matin »- التي طُلبَ منّي إلقاؤها أمام أترابي من كافة الأعمار والسداسيات والطلائع من أشبال وزهرات وفتيان وفتيات وجوالة ودليلات، متجمّعين حول وصلة من الشعر الغنائي الفرنسي:

Le matin, tout resplendit tout chante

La terre rit, le ciel flamboie

Mais pour nous qu'il tonne

Pleuve ou vente,

De tous temps nous chantons notre joie...

غنّينا جميعا هذا القصيد. احتفى الجميع بهذا القصيد الذي كان حلما وواقعا في نفس الوقت.

حتما، ما عشناه لم يكن دون نور. إن كان ذلك في غابة الرمال أو في مدرسة في نابل أو ليس ببعيد عنّا، هنا، في شاطئ حمام سوسة قرب «الكازمات» أو بداخل مقرّنا في المنشية بحمام سوسة، فقد تعلّمنا أنا ورفاقي الكشافون كيف نحقّق ذواتنا. أن يكون كلّ واحد منّا، عند الخروج من الطفولة، قد انشغل بمصيره، أو أن تصير ليالي وأيام التخييم مجرّد ذكريات بعيدة للبعض، ذكريات ماض قصير وبعيد، ماض وطفولة أحيانا عزيزة على القلب وأحيانا أخرى تبعث الكراهية في النفس، فالمهمّ في نهاية الأمر هو عبور الطفولة ذلك الذي لا يمكن لأيّ حياة كانت الاستغناء عنه. عبور الطفولة التي تهزّنا، هي أكثر من كلّ شيء. الطفولة التي تهزّنا خاصّة وأنّي عشتها بكلّ شغف في وحدة الفريق الجسيمة. كأنّ، نعم كأنّ، لأنّ كلّ واحد من أطفال الكشّافة الموجودين في هذه الصورة (وفي صور أخرى) تمكّن كلّ على طريقته، في ليالي غابة الرمال الحالكة (وفي الكثير من الليالي الأخرى)، من استقاء النّور الضروري لإضاءة طريقنا، حياتنا، مستقبلنا الذي، منذ تلك الليلة (وليال أخرى مماثلة)، كان في حالة سير. كلّ منّا اختار حياته، فهنالك من عانقها وهنالك من لفظها، بيد أنّ الفعلين متشابهان، وهذا ما قام به عدنان، منتحر مجتمعنا، الذي بموته الاختياري لم يقم سوى بالتّبيين، تحديدا بالدفاع والتّبيين عن عمق تلك الليلة الحالكة التي كان غارقا فيها آنذاك.

(آنذاك. فلتوقف هذه الكلمة، على الأقل الآن، زيارة الطفولة هذه، راجيا أن أعثر من جديد على صوت الطفل الذي كنت والذي، بالرغم من استعماله اليوم لكلمات لم تكن بحوزته آنذاك، يحاول عبر عبور الطفولة هذا فتح الطريق القادمة).

شاعر من تونس يكتب بالفرنسية

الأفغاني الذي ورطني

إبراهيم الجبين

اعتدت في سنوات مبكرة، قضاء الليل منهكماً في الرسم، فإذا طلع الصباح، ذهبت إلى المدرسة الابتدائية من غير نوم. ولم أكن أعيش حينها عزلة كما يمكن أن يتخيل المرء. فالليل كان مليئاً بضيوف متجددين. لم يكن أيّ واحد منهم كاتباً أو شاعراً أو روائياً. كانوا جميعاً رسامين.

كان دافينشي أكثرهم حضوراً، تدربت معه على تخطيطاته. ورسمت مثله جسد الإنسان بتشريح دقيق مبكر. وما يخفيه الجلد والأعين التي تنظر في الفراغ. وفي انحناء رأس لاسكابيلياتا واللون الشفاف الذي أعطاه للوحة، لم أعرف دافينشي من القراءة، بل من الصورة. والصورة وحدها كانت نافذة الإدراك الكلي للآخرين. فكان جوفاني براغولين، صاحب أشهر صورة للطفل الباكي يجعلني أعيد رسم لوحته مراراً كي أتمرّن على اللون. ولم أستغرب بعد سنوات حين عرفت أن تلك اللوحة نجت دوماً وحدها، من كل حريق شبّ في المكان الذي تواجدت فيه.

سلفادور دالي كان العين التي أرى من خلالها حرية الخطأ. فلا بأس بتحريف الأجسام، وتغيير أبعادها، وتعليق الساعات على الأغصان ودفع الأدراج من خواصر النساء. وكانت تستقر على طاولتي جرة العطر التي أنتج منها في ذلك الوقت، عدد قليل جداً في أنحاء العالم، جرة العطر المصنوعة من لوحة دالي. الأنف والشفتان. دفعت مصروفي الشخصي كلّه وقتها من أجل شرائها. فقط كي أبقى أرى توقيع دالي على زاوية مخفية منها.

كان يعيش معي في غرفتي ببغاء بلون ياقوتي، وسلحفاة وسمك ذهبي صغير ونباتات متسلقة تتعربش على المكتبة التي لم يكن فيها سوى كاتالوغات الفنانين الكبار، التي كنت أجمعها بعناية من كل مكان. وكنت قد عجزت حينها عن تعليم الببغاء النطق، رغم محاولاتي العديدة، حتى أنّي كنت أحضر لها الأفلام الهندية وأضعها بجوارها، كي يسمع لغة أرضه الأم. لكن عبثاً. كانت تصر على الصمت. وهكذا كانت حياتي تسير نحو مسار واضح، لا مكان فيه للغة غير لغة الصورة.

وفي ليلة من تلك الليالي، شارف لون الفجر البرتقالي على الانتشار في السواد. كنت مشغولاً بالحديث مع فنان عربي لطالما سحرني شغله، دون أن أتمكن من التمرّن على رسم أعماله في يوم من الأيام. إنه ابن مقلة. لم أعرف ابن مقلة من الثقافة، لكني عرفته من الخط الرديء. فقد كان خطّي في الصف الأول والثاني فوضوياً. حتى أني شعرت بالنقص أمام رفاقي من الأطفال، وبتّ أخجل من كتابة الكلمات في الدروس. لولا أن أحضرت لي أمّي مجموعة من كتب الخط العربي القديم، وطلب منّي أن أقلّد ما فيها. وهكذا تعرفت إلى هاشم البغدادي، وكتبه التدريبية الثمينة "قواعد الخط العربي"، ومشيت خلفه في الألفات والواوات والياءات. واستغرقت مع عباس شاكر جودي في "ميزان الخط العربي". حتى صرت أكتب الكلام العادي بخط الثلث. وحتى وصلت إلى ابن مقلة، كنت قد عبرت مدارس كثيرة في الخط. لكن تلك الخطوط كانت بالنسبة إليّ صوراً أيضاً، ولم تكن تقول شيئاً.

شق صمت الليل، صوت صراخ من آخر الشارع، خرجت إلى شرفة غرفتي، لم أستطع رؤية شيء في ضوء الفجر الشحيح. تكرّر الصراخ. لم يكن مخيفاً، كان هو الخائف. كلمات بلغة لم أفهمها. تعود لتتكرر ثم تصمت ثم تتكرر.

كان صاحب الصوت مصراً على إرسال تلك الاستغاثات. لم أشعر أنه جريح أو يتعرض لخطر ما، غير أنه كان يبث برقية تشبه إشارات مورس.

دقائق استغرقتها الشمس، لتنير الحارة الهابطة نحو جهة الغرب الرملية، حيث يقف رجل ببزة برتقالية، قبل أن تخترع أميركا معتقل غوانتانامو في الجزيرة الكوبية، وقبل أن تفرض الزيّ الموحد على سجنائها فيه.

عجوز بلحية كثة وطويلة تنسدل على لونه البرتقالي. يثرثر بتلك اللغة العجيبة، كان بالنسبة إليّ لقطة بصرية أيضاً، ولم يكن يعني شيئاً في عالمي الطفل. بقيت أراقبه، وهو يرفع يديه إلى السماء، ويدمدم ويلتفت إلى اليمين واليسار، كان يبدو حائراً.

لم أمتلك الشجاعة للنزول وسؤاله عن الأمر. قد يكون مدمن مخدرات، أو سكيراً، أو مجرماً. لكنه رآني أسترق النظر إليه. فتغيرت بنيته الذهنية، وبدّل لغة الرسالة التي كان يقولها، وبدلاً من الكلمات العجيبة الغريبة أخذ ينظر إليّ ويقول "في كلامُ الله... في كلامُ الله.. في كلامُ الله".

كناية الكود

من خلال حركاته عرفت أنه كان يشير إلى حاوية الزبالة، كان يرتعد خوفاً ممّا رآه. كان عامل نظافة أفغانيا، شاهد شيئاً لا يجب أن يكون في تلك الحاوية. وحين ملّ من محاولة تنبيهي، دون أن يكون لديّ أيّ ردّ فعل، غادر المكان مع عربته الصغيرة ومكنسته الطويلة.

انتظرت دقائق لأطمئن إلى ابتعاده، ثم نزلت أدراج البيت إلى الشارع، ثم إلى حيث كان يشير. وهناك عثرت على صندوق خشبي مليء بالكتب المجلدة تجليداً فاخراً، ظن الرجل أنها مصاحف، لذلك خشي أن يعاقب بالحرق في جهنم لأن أحداً ما رماها في القمامة. لكن تلك الكتب لم تكن مصاحف.

حملت الصندوق بصعوبة، كان ثقيلاً جداً، وهرعت إلى غرفتي. كان أول كتاب من تلك الكتب "ألف ليلة وليلة". بطبعته القديمة القاهرية التي عرفت بعد سنوات أنها طبعة ممنوعة، تم إحراقها في مشهد فظيع شارك فيه الجميع.

كتاب شهرزاد ذاك. كان جزءاً من أجزاء عديدة، وكان عدد صفحاته يتجاوز الألف. كتب أحدهم على أول صفحة منه "قرأت هذه الكتب، وهي غير صالحة للقراءة". أي أنّه رماها لأنه رأى فيها ما لم يسرّه. كتب تلك العبارة على جميع الكتب الموجودة في الصندوق. كان واضحاً أنه متديّن وأنه لم يعجب بمحتوى تلك الكتب.

كانت تلك الإشارة كافية لي، كي تغريني بالبحث عمّا لم يرضِ صاحب الكتب، وعمّا أثار رعب ذلك الأفغاني عامل النظافة البرتقالي الذي يرى المقدّس من شكله لا من مضمونه.

عرفت من شهرزاد في الكتاب، ما لم أكن أعرفه عن القراءة، وذهبت معها إلى الأماكن التي خرجت منها خطوط هاشم البغدادي، وغرقت في البحر مع السندباد وطرت على بساط الريح. وعرفت الكثير عن الجسد، والكثير عن الحب، والكثير عن الشعر.

والأهم من هذا كلّه، أنّي تعرفت من خلال ذلك الصندوق على لغة أخرى غير لغة الصورة التي ألفتها في اللوحات والخط العربي. لغة الكتابة.

سرعان ما انتقلت إلى الكتاب الثاني من كتب الصندوق، ثم الثالث ثم الرابع ثم الخامس، وهكذا، حتى انتهت الكتب. لا شك أنها كانت أكبر من عمر إدراكي، وبسببها أهملت الرسم وعالم الطيور والأحياء، لكنها ورّطتني في البحث عن السر الذي ما زلت حتى اللحظة لم أعثر عليه.

الصياد التائه

إبراهيم عبدالمجيد

كنت في الثانية عشرة من عمري وفي السنة الأولى بمدرسة طاهر بك الإعدادية بمنطقة الورديان بالإسكندرية. كانت مدرسة حكومية ولا زالت لكن المدارس الحكومية في ذلك الوقت، أي في الخمسينات، كانت مدارس حقيقية، بل كانت ليست مجرد مدرسة لتلقي العلم لكن مركزا ثقافيا حيث بها مكتبة جميلة يدخل إليها كل فصل من الطلاب مرة في الأسبوع لمدة ساعتين للقراءة الحرة. أي يختار كل تلميذ كتابا يقرأ فيه وفي النصف ساعة الأخير نلتف جميعا حول المدرس وكل يحكي ما قرأه أو أعجبه أو يسأل المدرس فيما قرأ، وكانت دائما الإجابات عند المدرسين متوفرة. كانوا نوعا من المدرسين يجيدون اللغات الأجنبية وعلى ثقافة عالية تعلموا في الفترة الملكية قبل يوليو 1952 واستيلاء الجيش علي السلطة. وكان إلى جوار القراءة هناك جماعات للموسيقى والشعر والسينما والمسرح والرحلات وغيرها من الأنشطة الثقافية والرياضية. كما كان فناء المدرسة به ملاعب للكرة الطائرة والسلة وكرة القدم وأماكن للجمباز. كل ذلك انتهى وصارت الأفنية فصولا مع التخلف في العملية التعليمية وازدحام الفصول. فصولنا كنا لا نزيد فيها عن عشرين تلميذا في المرحلة الابتدائية والإعدادية.

الآن ستون وسبعون تلميذا وأحيانا مئة في المدارس الحكومية. كنت أحب السينما وأذهب إليها تقريبا كل يوم. السينما الشعبية في حي كرموز حيث كانت أسرتي تسكن أو حي القباري في الطريق إلى المدرسة. وكنت أقرأ أفيشات الأفلام وأعرف أنها مأخوذة عن روايات لكني لم أبدأ في قراءة الروايات بعد، حتى حدث ونحن في المكتبة وأنا في السنة الأولى إعداديا لم يصل سني إلى اثني عشر عاما بعد أن قرأت رواية أطفال صغيرة عنوانها «الصياد التائه» للأسف نسيت اسم مؤلفها مع الزمن لكني عدت إلي الويكيبيديا وأنا أكتب هذا المقال فعرفت أنها كانت للراحل العظيم محمد سعيد العريان الذي قرأت له روايات تاريخية جميلة بعد ذلك. تذكرت ذلك الآن، أي قراءتي لرواياته التاريخية لكني لم أنس أبدا ما جرى لي وأنا أقرأ رواية الصياد التائه ولا ما جرى لي بعدها. ما أذكره منها أنني بكيت حين ضل الصياد طريقه في الصحراء وكانوا يبحثون عنه. رآني المدرس أبكي فتقدم مني وسألني لماذا تبكي يا إبراهيم. هل القصة لا تعجبك. هل لا تريد أن تقرا اليوم؟ قلت له «الصياد تاه ولا يجدونه وخايف يكون جرى له شيء» ابتسم المدرس وقال لي هل صدقت يا إبراهيم؟ هذه حكاية من تأليف المؤلف ولا يوجد في الأصل صياد ولا رحلة صيد حقيقية. نظرت إليه في دهشة فقال هذا هو التأليف الجميل يقنعك أنه حقيقة. انتبهت لما قال. بعدها اندفعت في قراءة القصص بشكل رهيب وعلي رأسها قصص محمد سعيد العريان التاريخية ثم محمود تيمور ونجيب محفوظ ومشيت في الطريق الذي لم أرجع عنه. لقد وجدت نفسي مندفعا في القراءة لأستمتع وأفكر أن أكتب مثل هؤلاء الناس. وبالفعل مع بلوغي الرابعة عشرة من عمري بدأت في التأليف الجميل الذي كان يسعدني جدا رغم سذاجته ولم أتوقف عن ذلك إلا بعد خمس أو ست سنوات حين قرأت لطه حسين مقالات أدبية وعرفت أن للأدب مدارس وطرقا وأشكالا فاندفعت في قراءة تاريخ الأدب والنقد والفلسفة وغيرها مما رأيته لازما للكتابة والمعرفة المفيدة للكاتب. كان الصياد التائه سبب تحولي العميق للأدب والكتابة فيما بعد رغم أني كنت أشطر تلميذ في الفصل في الرياضيات. كانت كتابة محمد سعيد العريان الجميلة التي جسدت متاهة الصياد هي السبب في أني كتبت فيما بعد.

فادي يازجي

كاتب من مصر

من الصرصار إلى مارودار

إيلي بورجيلي

قد تبدو القصة مضحكة. والمضحك أرضٌ تسكنها الأحلام، أحلام الخلق والإبداع الجميلة. أحلام تأخذ الوهم وتُرجعه، أوسع وأكبر ممّا كان، تجعله صورا أعيد تركيبها، صُنعت لا بل أُبدعت من جديد.

كنت في التاسعة أو العاشرة من العمر. ولربما كنت في الثامنة، لم أعد أذكر. وكانت غرفة نومنا، أخواي وأنا، تطل على مقبرة البلدة. وكانت الليلة ليلاء والحر يطرد النوم ويمنعه فتبقى أعيننا الصغيرة المستديرة مفتوحة محدّقة. وكانت النافذة قد تُركت مفتوحة طلبا لبرودة منعشة، ولكن عبثا. فالهواء، تلك الليلة، كان حاراً ثقيلاً مشبعاً بالرطوبة. فاتكأنا بمرافقنا الصغيرة على حافة النافذة وأطلّت رؤوسنا إلى الخارج. وكان الواحد منا كجرو صغير أخرج رأسه من نافذة السيارة ودلق لسانه خارج فمه طمعا في بعض الهواء البارد.

حسام بلان

ولكن جلّ ما حصلنا عليه كان حبيبات من العرق تتصبّب على سواعدنا البيضاء الرقيقة وجباهنا الصغيرة.

وكنت قد تركت على أرض الغرفة رسوماً صنعتها في اليوم السابق: أوجهاً ومناظر بالقلم الرصاص وبالأقلام الملونة.

وقبالتنا في البعيد، كانت أضواء مترددة خافتة تشق الظلام الحالك القاسي بعناء. والصمت الذي كان يلفّنا كان شبيها، لعمقه، بالصمت الذي كان سائدا قبل أن يُخلق العالم.

كنت أشعر بالحرارة تتصاعد من جسدي كالبخار وبأنفاسي تشتد وتتسارع وبحبيبات العرق تتساقط بسرعة وكثافة من مسامّي كلها فتحفر في ثنايا ذلك الجسم النحيل أخاديد وتعرجات حارقة.

وفجأة لمحت من طرف عيني شيئاً مخيفا مفزعاً يخرج من العدم ويهجم عليّ مختصراً أهوال الميثولوجيا ورعب الخرافات. فصرخت. زعقة لا توصف. صوت عميق عريض واسع هائل لم أكن أتصور أنه في داخلي، أين منه صراخ المعذبين الذين يُنكّل بهم في الملاحم والحكايات.

يا إلهي! صرصار! صرصار هائل مخيف، كأنه لفرط بشاعته قد خرج للتو من جهنم، يدب على ذراعي نزولا من الكتف صوب الساعد فاليد، تلك اليد التي كانت تحمل القلم. فإذا بالقلم يطير بسرعة البرق ويرتطم بالسقف فيتحطم شظايا، وإذا بي لشدة مصارعتي الهواء بذراعيّ لأتخلّص من هذا المسخ المخيف، أكاد أسقط من النافذة.

لا أدري كيف، بدون أيّ قصد مني، سقط الصرصار على أحد رسومي المتروكة على أرض الغرفة. وإذا بأخي يدوسه فوق الرسم فيسحقه ويترك على رسمي الملون ذاك لطخة شبيهة بحبر داكن.

تلك كانت بلا شك أولى لوحاتي كرسام مادّوي.

في اليوم التالي، مزقت سائر رسومي شاعراً أني بدأتُ أكره الرسم والألوان. ولعل تلك كانت أيضا بدايات صياد البقايا (مارودار – maraud'Art).

فنان تشكيلي من لبنان

شهداء ساحة الملعب

ألفريد طرزي

كمعظم شبان جيلي حاربت. لم يكن لدينا أيّ سبيل أن نتجاوز الحرب: كانت المحيط والباطن، ولدنا من «أ» عشاقها مثيرون أننا سنصبح رجالا من خلالها. في خوض معركة مصيرية أصبت. أذكر درجة التطوع الأعمى من أجل القضية التي كنا نحارب لها: إثبات سيادة الفئة «أ» من صف الرابع المتوسط على الفئة «ب». أذكر شعارنا، أ كابطال و«ب» كبطاطا، والواضح أن على الأبطال سحق البطاطا.

كنت آنذاك في الثامنة من عمري ورغم أنني كنت أحضر صفوفا في مدرسة خاصة ذات المنهج الفرنسي التي كان يرسل إليها أطفال العيل الثرية كانت الحرب قد سربت نفسها في ملعبنا. عند استراحة الغداء كان ثلاثون منا يركضون حول الملعب حاملين في أياديهم كل ما يمكن أن يصبح سلاحاً فالملعب يشتعل ويتحول إلى جحيم. تحت أشعة الشمس الساطعة، كان رمل الملعب يكون غيمة حمراء تستر حربنا من الجميع.

لنا، أطفال الرابع المتوسط، «أ» كنا نحارب دفاعاً عن هيبة أول حروف الأبجدية. كان على أطفال الرابع المتوسط «ب» أن يتفهموا أن أفضل استعمال للحرف «ب» هو في كلمات بطل، مفرد أبطال. كانت حرب لا بد أن نربحها وهزيمتهم متأكدة. ربما كنا جميعاً نحارب لنصبح أبطال أم شهداء. أحد أخصامي في الصف المنافس كان شيطاناً، شعره أحمر ووجهه مليء بالنمش. كنت أركض خلفه عندما صعد فجأة على عتبة باطون محلقاً فوقي وهو يرفع يده مهددا إياي بالحجرة التي كانت تملؤها. أما أنا فكانت يدي مليئة بذاك التراب الأحمر. فقال لي «أخل يدك من الرمل ولن أؤذيك»، أن استسلم؟ أبداً! رميت قبضة الرمل في اتجاهه دون أن أنجز أكثر من عمي نفسي، عندئذ لا بد أنه رمى حجرته في إتجاهي. لم أذكر. فجأة لقيت نفسي محمول على أكتاف زملائي وهم يناصرون «شهيد، شهيد، شهيد» والدم المنبعث من جبيني يطوف عليهم وعلى قضيتنا بالدم الساطع لشهيدنا الأول.

فنان تشكيلي من سوريا مقيم في لبنان

حسام بلان

حسام بلان

مصير حياة

باسم فرات

في ذكّان صديق أبي ومعلمي الحذّاء، طرق الشعر مسامعي، وأنا ابن الثامنة من العمر، فلأول مرة أسمع كلامًا استولى عليّ تمامًا، كلامًا ليس في مدح نبيّ أو إمام أو في رثاء رمز ديني، أو واقعة تاريخية اصطبغت بنكهة عقائدية أزاحت التاريخ بعيدًا، مثلما تعودتُ أنا الطفل ابن مدينة الدموع والأسى وشعائر البكاء في أول شهرين من كل سنة بحسب التقويم الهجريّ؛ كان شِعرًا مختلفًا، هو ما كان يُنشر في صحيفة «طريق الشعب» لسان حال الحزب الشيوعي العراقي، ومن حينها بدأت أستغل طلب «معلمي السيد محسن» لشرائها، فأقرأ ما تيسّر لي، في المسافة الفاصلة بين «باب قبلة الإمام الحسين» ومكان العمل، مثلما أستغل فترة غيابه عن الدكّان لقراءتها. لم يكن ثمة شخص يمكنني أن أسأله مساعدتي، ولم أتجرأ على البوح بحبي لما كان يتلوه وأصدقاؤه، فهو كان صارمًا بعض الشيء، ولن أنسى موقفه حين تعرضت لجرح في يدي اليسرى في أثناء تنظيف الدكّان، نَقلتني امرأة تتسوق من بائعي الخضروات والفواكه الذين يعرضون بضاعتهم صباحًا قبل بدء الدوام الرسمي لمؤسسات الدولة، كانت تصرخ بالرجال تستنهضهم وهي ترى دمي المسفوح، وخوفي أو دهشتي التي منعتني من البكاء، وجعلتني أقف على طرف الدكّان أمام الناس، وكأني أقول لهم «ألا من منقذ ينقذ طفولة يتيم سفح اليُتم طفولته والآن سفحت دمه هذه المرآة التي أرادها مُعَلّمي أن تقرّب إليه القادمات من الخلف ليتمتّع بأنوثة الجميلات منهم؟».

في أثناء زيارته لي في بيتنا، في يوم الحادث مساءً بعد خروجي من المشفى، نهرني بصرامة لأني أبديث تألمًا، ولم يمض على الجرح الذي احتاج إلى ستة عشر غرزة، أربع عشرة ساعة، وحين عدتُ إلى العمل بعد استراحة قليلة جدًا، كان يصرّ أن تكون درسًا لي ولم يعتذر بأنه جعل المرآة منحنية للأرض لأن ذلك يجعله يرى الفتيات وهنّ مقبلات بجمالهن وأنوثتهن من الخلف، أو ما سببته صفيحة زيت «دهن الراعي» ليبقى أثر طفولة بائسة عشتها معي إلى الآن شاهدًا وشهيدًا.

في العاشرة من عمري، انتقلتْ أسرة عمّتي من بغداد إلى بُستانهم في شمال كربلاء، فذهبت في زيارة إليهم، وأول ما التقيت ابن عمّتي «محسن» بادرته بعد التحية قائلاً «أريد أن أصبح شاعرًا»، قال لي اقرأ شعرًا كثيرًا واحفظ، ولأنّي كنتُ شغوفًا بأبي نؤاس، لأن مُعلّمي «السيد محسن» كان مع أصدقائه، يشدون بشعره إعجابًا، وما سمعته من جدّتي عن نوادره، سألتُ ابن عمتي أن يعيرني ديوان أبي نؤاس، وقلت له أريد شعر خمريات هكذا، أنا ابن العاشرة، قد أدمنت شعر الخمريات لأبي نؤاس والتي هزتني هزًّا بسحرها، وأقول سحرها لأنني لم أكن أفقه سوى هذه الكلمة، والتي بعد أعوام طويلة علمت أنها تعني الصور الشعرية والمجاز واللغة المشعة المبتكرة في منجز هذا الشاعر الفذّ حقًّا.

أول كتاب ألمسه بيدي وكان منه، هو رباعيات الخيام ترجمة «مهدي جاسم» لأن مُحسن وشقيقه خُضير اقترحا هذا الكتاب، وأخبراني حين اعترضت، أنه مملوء بالخمريات، لكن أول ديوان قرأته فعلاً وبعض قصائده أو أبياته أعدت قراءتها مرارًا، هو ديوان الشاعر عمرو بن قميئة، ومن ثم المعلقات العشر للخطيب البغدادي، فبقية شعراء ما قبل الإسلام، الذين فتنت بهم ولكن تبقى فتنتي بأبي نؤاس أكبر لا ينازعه عليها سوى طَرَفَة بن العبد، وأعني حين وصلت إليه بعد أن قرأت للشعراء الذين سبقوا أبا نؤاس.

ذهابي إلى ابن عمتي وإخباره بهاجسي وهمّي ورغبتي وطموحي بأن أصبح شاعرًا وأنا في تلك السنّ المبكرة، أعدّه حدثًا مهمًا ومفصليًا في حياتي، فلم يعد ما قبله مثل ما بعده، فمنذ ذلك اليوم، بدأت بدلاً من شراء ليلى والذئب قبل ذلك بعامين، وكدتُ أن أتعرّض إلى عقوبة لأنّ جارنا، وأمام جَدّتي لأبي راح يوضّح تفاهة الكتاب، المملوء رسومًا بحسب تعبيره؛ لكنني إذ قادتني نكهة الطفولة إلى شراء ليلى والذئب وأنا لم أسمع بها، فلأنني كنت أطيل النظر أمام المكتبات، ولم أكن أعرف أيّ الكتب تنفعني، واحتجتُ إلى عامين تقريبًا، كي أبدأ بقراءة الكتب التي كنتُ كلّما أنتهي من واحدٍ منها، أشعر بحاجة ماسة إلى قراءة كتب أكثر.

ذلك الحدث لم أنس تفاصيله، فما زالت الصورة واضحة للغاية،

فادي يازجي

في ممرّ البستان المؤدي إلى بيتهم، وقد حجبت ظلال النخيل وأشجار الحمضيات أشعة الشمس من اختراق المكان، وقد دخلت البستان ووصلت إلى مقربة من البيت، التقيت بابنَي عمّتي محسن وخضير، وأخبرت محسنًا وسألته إمكانية الحصول على ديوان أبي نؤاس، كان سحر شعره وأنا أسمعه بصوت معلّمي السيد مُحسن قد جعلني أسأل ابن عمتي عن شعر هذا الشاعر كما ذكرت، (يا للطرافة معلمي في العمل الذي بسببه أحببت الشعر وتعلقت به وقرأت صحيفة طريق الشعب، اسمه مُحسن، وابن عمتي وأوّل معلّم لي في الشعر والقراءة كذلك محسن).

محسن وخضير في ذمة التاريخ، فقد تم إعدامهما مع ابن عم لنا في رمضان 1991 ولم نعثر على جثثهم، وأما السيد مُحسن فقد بحثت عنه كثيرًا في كربلاء ولم أتوصّل إليه، وأمنيتي أن ألتقيه لأشكره على صنيعه الذي يجهله، ولا أدري هل لا زال على شيوعيته أم جرفته تقليعة التديّن، التي جرفت كثيرين بلا حساب، لكن ما أنا واثق منه، أن تلك الحادثة-الزيارة، قد وضعتني على طريق الكتاب والشعر والثقافة عمومًا، وهي شهادتي بأنني أتيت الشعرَ طفلاً، وعمّدتني القراءة منذ نعومة أظفاري، وأن علاقتي بالشعر بلا منفعة بسبب مراهقة أو عواطف جياشة، بل علاقة شعرية نقية تمامًا.

شاعر من العراق مقيم في الخرطوم

الفلقة

بدرالدين عرودكي

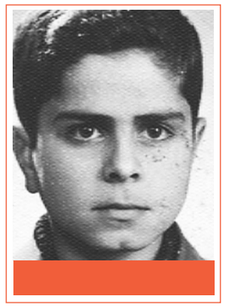

من المقبرة إلى المدرسة:
لا بدّ وأنكِ تذكرين!
فجأة شعر طفلكِ بيد تطبق على معصمه. يرفع رأسه فيراكِ. يرى وجهك وراء الغطاء الأسود الشفاف المُسدَل. وجهٌ غاضب حانق. تسأليه: ماذا تفعل هنا؟ والمدرسة؟
يسير مُقاداً بيدك. لم يكن في محفظتكِ القروش السبعة ونصف لشراء تذكرة ركوب الترام. فالمسافة إلى المدرسة طويلة، ولا بد لك من الهبوط سيراً على القدمين من حي بير التوتة نحو العفيف مروراً بالجسر الأبيض فحي الرئيس فالمستشفى الإيطالي كي تبلغي أخيراً حيّ عرنوس ومدرسة سعدالله الجابري الابتدائية التي كانت تقوم فيه. هي المرة الأولى التي تجتازين فيها طريقَ ابنكِ إلى مدرسته التي يذهب إليها كل يوم سيراً على القدمين، هو الآخر. تأخذ بلبَكِ المتاجر الفاخرة. تتوقف عيناكِ أمام واجهة بائع الحلويات الغربية، فيبينا. وتتمزق جوارحك حزناً وعجزاً: أن يرى ابنك ما هو مُحرَّم عليه، عليكِ، عليكم جميعاً في أسرتكِ الصغيرة، كل يوم، وألا تستطيعي أن تفعلي شيئاً. وتحسبين أن عزوفه عن الذهاب إلى المدرسة يرتد إلى بعض هذا الحرمان.. لكن ما كان يهمّك لحظتها هو أن تبلغي معه المدرسة التي حُرِمتِ منها كي تؤويه ويتابع فيها ما قد تستطيعين يوماً أن تتابعيه معه.
يستقبلك المدير ومعه أستاذ الفصل الذي هو فيه. يبدي لك المدير عجبَهُ من هذا الغياب غير المبرر لا سيما وأنه طفل شديد التهذيب، والمثابرة، وأنه في مقدمة تلاميذ فصله حتى أن أستاذه سماه «عريف» الفصل منذ بداية السنة الدراسية. لكن المدير والأستاذ قررا أن هذا الغياب فعلٌ غير مقبول، وأنه يستوجب العقاب، وطمأناكِ على أنه بات الآن بين أيدٍ أمينة.
لم يسأله المدير ولا الأستاذ بعد مغادرتكِ سبب غيابه عن الحضور إلى المدرسة. لا بدَّ أنهما افترضا ضرباً من تمرد مفاجئ، صبياني الدافع، حمله على العزوف عن المجيء إليها ذلك الصباح.
هكذا قاده الأستاذ بعد أن غمز للمدير بعينه اليمنى -لا يزال يتذكر هذه الغمزة- إلى الفصل وأعلن أمام رفاقه عزله عن «العرافة» وتغيير مكان مقعده وعزمه على معاقبته أمام الجميع كي يكون «عبرة لمن اعتبر» بسبب «هَرَبِه من المدرسة».

** ** **

في غيابِكِ:
يُطلبُ إليه الجلوس على كرسي الأستاذ الذي نُقِلَ كي يكون في مكان يُرى من التلامذة جميعاً. ينادي الأستاذ على واحدٍ من رفاقه كي يساعده على تثبيته وعلى رفع ساقيه بعد أن جعله يخلع حذاءه وجوربيْه. وهو يخلعهما، تتكشف ثقوب الجوربيْن المخفية داخل الحذاء. تنطلق ضحكات رفاقه في الفصل رغم محاولاتهم كبتها حين رُفِعت ساقاه فكشفا سروالاً ممزق الأطراف. لم يكن ثمة بنطال يستر عورة السروال. كانت صدَارة المدرسة الرسمية تستر كل شيء وتنبئ وحدها عن تلميذ مرهف الهندام لا يختلف عن رفاقه في الفصل بشيء.
لم تكن ضربات العصا القاسية التي كنت تنهال على صفحتي قدميه توجعه بقدر ما كانت تمزقه الضحكات والكلمات الهامسة التي كان رفاقه يتبادلونها وتتناهى مع ذلك إلى سمعه. ها هو أمامهم جميعاً. الأستاذ والتلامذة. سقط عن عرش أسراره التي كان يكتمها عنهم وكانت صدارة المدرسة الرسمية تحميها. ناداه أحدهم: يا جبلي.. ثمَّ ثنّى الآخر والثالث والرابع. وعندما انتهى الأستاذ من ضرباته، قال له وقد سمع بعض التلامذة يشيرون إلى أنه حضر إلى المدرسة بلا بنطال: جئتنا اليوم بلا بنطال وغداً ستأتينا بلا سروال!
أمره الأستاذ بتغيير مكانه. لم يعد مقعده في المقدمة، بل في مؤخرة الفصل. ذلك هو العقاب المستمر.

** ** **

لم يسأل أحدٌ في المدرسة طفلكِ عن سبب «هربه». ولم يبادر من ناحيته إلى أن يقول سبب وجوده في المقبرة ذلك اليوم. وكان هذا السبب يتوارى شيئاً فشيئاً في أعماق الذاكرة مع الأيام كي يحلّ محله في وعيه وفي ذاكرته، مشهد «الفلقة»: ساقاه المرفوعتان تكشفان عمّا تحت صدارته المدرسية، والاسم الجديد الذي أطلقه عليه رفاق فصله: يا جبلي!

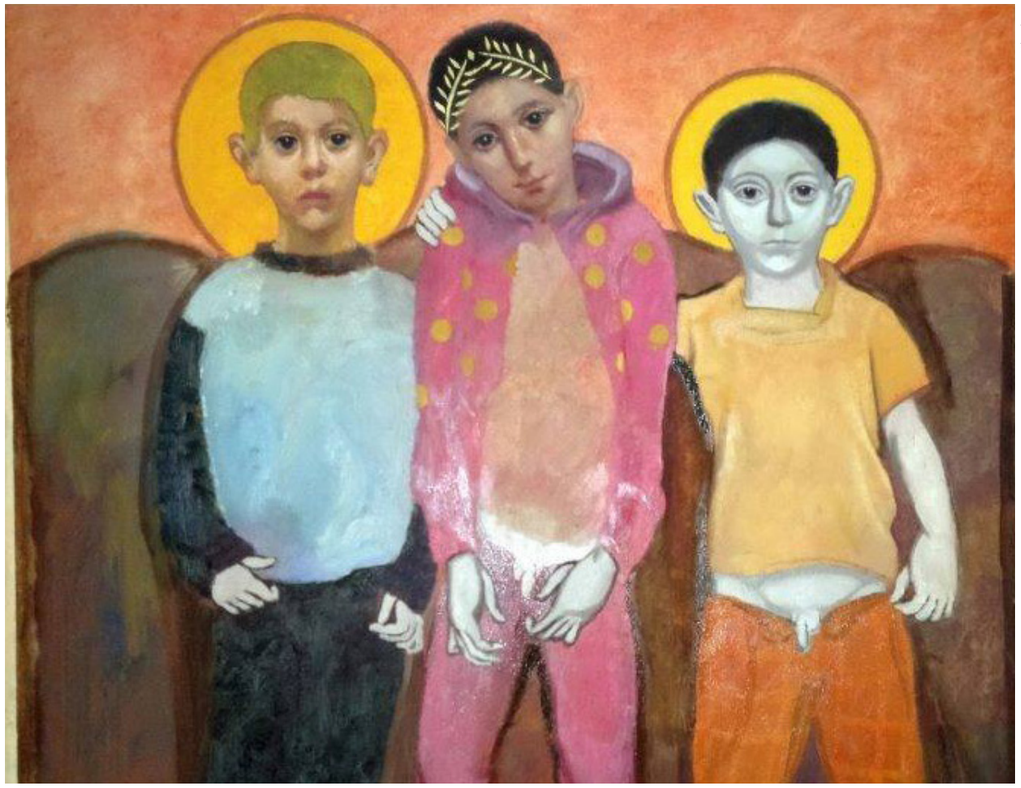

حسام بلان

المشهد، خصوصاً، كما تخيله في عيون رفاقه على مقاعدهم: سروال ممزق لا يخفيه بنطال، وجوارب مهترئة كان يخفيها الحذاء..

** ** **

ما تبقّى
خمسة وعشرون سنة مضت على هذا المشهد الذي عاشه طفلك قبل أن يستعيده رجلاً، بينما كان يكتب في مقهى الروتوند بباريس، وأن يعثر آنئذ فجأة على السبب الذي طغى عليه وغيَّبَه مشهد الفلقة وما تلاه في أعماق الذاكرة.
حين قبضتِ على معصمه كي تذهبي به إلى المدرسة، كان في المقبرة المجاورة لبيتكما يبحث عن بقعة أرض لا تزال آثار الماء التي بللت ترابها مرئية علّه يكون المكان الذي دفن فيه أبوه أخته، زهرة. كان يعرف أن الأطفال لا قبور تبنى لهم مثل الراشدين. مجرّد حفر تلقى فيها أجسادهم الغضة ثم تغطى بالتراب.
أرسلتِه صباح ذلك اليوم إلى بيت عمّه، في الطريق إلى مدرسته، ينقل شيئاً ما. كنتِ بذلك تصرفينه عن أن يرى ما حلّ بأخته. تقول له زوجة عمّه بدهشة: سألنا أبوك عن صحة أختك زهرة فأجاب: شفاها الله. فقلنا له: الحمد لله إذن! ثم عرفنا أنها ماتت، وأن أباك كان يعني أن شفاءها كان موتها.
هكذا عرف طفلكِ أن أخته زهرة التي كان جمالها يتفجر في ضحكاتها وهو يداعبها كل مساء قبل أن يأويا إلى النوم قد ماتت، وأن أباه دفنها في مكان ما، وأن المكان لا بدّ أن يكون هنا.
هكذا وقد سمع كلمة «ماتت» من عمّه، هرع طفلكِ ناسياً المدرسة إلى المقبرة يبحث فيها عن قبر أخته عبثاً، إلى أن قبضتِ على مِعصمِهِ وحرمتِه عنوة من العثور على قبرها.. عليها.
ما كان لما أصابك حين علمتِ أنه لم يكن في مدرسته أن يسمح لكِ بالتفكير في سبب وجوده هناك.. وما كان لما استحوذ عليكِ بعد ذلك مما رأيته على الطريق إلى مدرسته وما كان ابنك محروماً منه أن يتيح لك أن تتساءلي..
إن هي إلا لحظة رسخت في ذاكرتكِ حرماناً وفي ذاكرة طفلكِ فلقة!

كاتب من سوريا مقيم في باريس

ذات يوم في احتفال وطني

تيسير خلف

ذات يوم خريفي من عام 1971 قالت لي والدتي: سآخذك معي إلى احتفال أسر الشهداء!

لم أفهم ما هو الاحتفال.. وكيف أعرفه وأنا ابن السنوات الأربع الذي لم يرَ إلا السواد والحزن يحيطان به من كل حدب وصوب.. من جدة ثكلى بابنها الشاب الذي هو أبي، وزوجة مفجوعة بزوجها الذي تحب، والتي هي أمي؟!

لم أعلق، فالصمت رفيقي الدائم، ولكني سبحت في أفكاري وأنا أحاول أن أتخيل شكل الاحتفال، سألت ابن خالي ورفيق طفولتي محمود الذي لمحته يلعب ببركة بيتنا الدمشقي عن معنى الاحتفال، فقال من دون تردد إنه الحلوى، لا احتفال من دون حلوى! وأردف: هناك رقص وغناء مثل الذي نراه في التلفزيون. هي إلى غرفتنا واندست في الفراش محاولاً تخيل شكل الاحتفال، ولم أصحُ على نفسي إلاّ وصوت أمي يدعوني للاستعداد والتهيؤ للذهاب إلى مدرسة بنات الشهداء في حي المهاجرين.

ركبنا باص الـ«هوب هوب» من موقف المعصرة في كفرسوسة حيث نسكن، وجلست من جهة النافذة إلى جانب والدتي التي مضت في شرود عميق وهي تستمع إلى أغنية «أغدا ألقاك» لأم كلثوم منبعثة من إحدى الإذاعات البعيدة، كان للكلمات أثر على وجه والدتي، فبين الحين والآخر كانت تفتر دمعة تحاول أن تخفيها بمنديلها.

لا شك في أن صوت أم كلثوم قد أهاج في نفسها ذكريات مرتبطة بحبيبها، إذ كانت تقول لي بعد أن كبرت قليلاً إن والدي كان من عشاق الست، وكان ينتظر حفلتها على المذياع كما ينتظر عاشق عشيقته.

لم تقتنع والدتي يوما بأن والدي استشهد في حرب الـ67. كانت مؤمنة إيمانا راسخا بأنه أسير في أحد معتقلات الصهاينة، وأنه سيعود طال الوقت أم قصر.. ولذلك كانت تمضي وقتها بين مكتب الصليب الأحمر الدولي، وبين إدارة التوجيه المعنوي وهي تبحث عن خبر يصدق هواجسها.

وحتى حين أخبرنا أسير محرّر من مخيم جرمانا كان مع والدي أنه رآه وهو يفارق الحياة بعد معاناة شهرين من جراحه الكثيرة في مستشفى صفد، لم تصدق وقالت له عندي إحساس قوي أنه حي وسوف يعود.

يومها روى لنا الأسير المحرر كيف أصابت موقعهم قذيفة دبابة إسرائيلية، وكيف أصيبت قدمه إصابة بالغة، وكيف أصرّ والدي أن يبقى إلى جانبه يقدم له الإسعافات بعد أن غادر الجميع الموقع الحدودي تنفيذاً لأوامر الانسحاب، وكيف سقطت قذيفة ثانية على الموقع أصابت والدي إصابات بالغة، نقلا على إثرها معاً إلى مستشفى صفد، حيث فارق والدي الحياة بعد شهرين، بينما نجا هو واقتيد إلى معتقل عتليت إلى أن خرج بصفقة تبادل في العام 1971.

وصلنا إلى مدرسة بنات الشهداء في حي المهاجرين بعد أن بدلنا الباص ولم تتبدل الأغنية!

جلسنا في الصف الأول، إذ كنا من أوائل الواصلين، وما هي إلاّ دقائق حتى وصل باقي أسر الشهداء وامتلأت الصالة على آخرها، وبدأت أغان وطنية مكرورة تصدح في المكان.

كانت ستارة خمرية اللون تغطي المنصة وحركة غير اعتيادية تجري خلفها، وبعد قليل وصل رجال بلباس عسكري، يتقدمهم رجل مدجج بنياشين ملونة، وعلى محياه ابتسامة كبيرة. وقبل أن يجلس؛ بدأ بمصافحة نساء الشهداء اللواتي وقفن احتراماً.

قلت لأمي من هذا؟ قالت إنه وزير الدفاع مصطفى طلاس.

حين وصل طلاس إلينا توقف وبدأ يشد على يد أمي بقوة وهو ينظر إليها نظرات غريبة لم أفهمها.. كانت والدتي يومها شابة طويلة نحيفة ذات عينين خضراوين واسعتين، أكسبها الحزن ولباسها الأسود جمالاً أخاذاً لا يخفى على أحد.

ظل طلاس محتفظاً بيد أمي وقتاً لافتاً، ويبدو أن والدتي استشعرت نظراته الشهوانية وفهمتها، فسحبت يدها بعنف من بين يديه الاثنتين وهي تقول بصوت مسموع: يلعن أبوكم كلاب.

عقدت الدهشة وجه وزير الدفاع الذي دارى الموقف بمصافحة زوجة شهيد أخرى كانت إلى جانبنا، ومضى إلى كرسيه وبدأ الاحتفال..

شعرت بأن أمي تريد أن تغادر. فقلت لها وأنا أبكي: أمي أرجوك أريد أن أرى الاحتفال، أريد أن آكل الحلوى. فقالت سأبقى لأجلك، وليس لأجل هؤلاء السفلة.

تانيا الكيالي

لم يطل الوقت حتى أحضروا لي ولباقي الأطفال علب الحلوى الملونة التي كانت أشبه بحلم لم أصدقه.. أخذت بضع قطع والتهمتها دفعة واحدة.. وبدأت أستمتع بنكهاتها المختلفة واللذيذة والتي لم أذق مثلها من قبل.. وبينما كنت سارحاً مع طعم السكاكر ونغمات فرقة الكورال التي كانت تنشد الأغاني الوطنية، استرقت نظرة لوالدتي فألفيتها تحبس دمعة لا تريدني أن أراها. وما هي إلا دقائق حتى أتت مجموعة من عناصر الشرطة العسكرية بقباعاتهم الحمراء، وحملوني إلى منصة التكريم حيث كان وزير الدفاع يستعد لمنحي هدية ويأخذ صورة معي لنشرها في مجلة جيش الشعب.

لم أفهم ما جرى في البداية ولكن حين وصلت إلى المنصّة ورأيت مصطفى طلاس أمامي شعرت بحنق شديد وبدأت أبكي بكاء شديداً وأشتمه بأعلى صوتي: يلعن أبوك.. يلعن أبوك.. يلعن أبوك..

أصيبت الصالة والمنصة بالحرج، فحاول الوزير مداراة حرجه بأن قدّم لي كيس حلوى وخمس ليرات دسّها في جيبي وهو يبتسم كالعادة، ولكني لم أتوقف عن البكاء والشتم، وهنا تدخلت والدتي وأخذتني منهم، وخرجت من قاعة الاحتفال، والأنظار كلّها موجّهة نحونا.

حين خرجنا هدأت أعصابي، وقلت لأمّي: كنت أريد أن أضربه لابن الكلب لكنهم منعوني. ابتسمت أمي من بين الدموع وقال: ولماذا تريد أن تضربه لقد أعطاك سكاكر وخمس ليرات. قلت من دون تردد: رأيته كيف ضايقك. قال: كنت أعرف بأنه قد يضايقني ولذلك أحضرتك معي لكي تدافع عني، وحضنتني وهي تداري دموعها.

ركبا الباص عائدين إلى كفرسوسة، وقد علمت فيما بعد بأن سبب تلبية والدتي للدعوة أصلاً أن مبلغاً من المال سيقدم لكل أسرة شهيد، وأن المبلغ سلم لزوجات الشهداء الحاضرات الحفل مع هدايا أخرى عينية، ولم ألمح في عيني أمي أي ندم أو تحسر على النقود أو الهدايا، رغم حاجتنا الماسة لها.

وحتى عندما حضرت سيارة عسكرية من إدارة التوجيه المعنوي بعد أسابيع، وقد أحضرت حرامات الصوف وظرف المعونة المالية، حين فقدوا الأمل بأن تذهب والدتي لاستلامها، ظلت مترددة حيال المظروف ولم تقترب منه حتى أخذته جدّتي وفتحته وإذا به مئتي ليرة سورية.

لقد علّمتني هذه الحادثة أن لا أثق بالمسؤولين أو السلطة، وأن لا أنتمي لها، إذ ظلت مرتبطة في مخيلتي بالدجل، والمراءاة، والاغتصاب، واستغلال آلام المساكين. ولذلك رفضت طوال حياتي العمل في أيّ وظيفة حكومية، وكنت أشق طريقي بعيدا عن وزارتي الثقافة والإعلام.

كاتب من سوريا مقيم في الإمارات

ثلاث صور

جار النبي الحلو

-1 الولادة

يناير في العام 1947 كان أكثر برودة من أي يناير. اختفت الشمس، والنهر صار فضة قاتمة، بينما الكلب ممدد بجوار شجرة «البونسيانا».

امرأة تهرول من آن إلى آخر، فيما أبى قابع على كرسيه الجريدي في وسط الدار، قابضاً بيديه على كوب زجاجي بعد آخر رشفة من الشاي.

أمي كانت على السرير الحديدي تتألم وتصرخ وتلحس شفتها السفلى بلسانها، تأخذ نفساً عميقاً، تتلهف على ولادتي، و«الداية» المولدة تبحلق في عيني أمي وتسأل نفسها هل ستموت جميلة الآن؟

نهض أبي حين تناهى إلى أذنه ثغاء العنزة الوحيدة بيضاء اللون التي رأتها دارنا، اقتحم المندرة الصغيرة، كانت عنزة أخرى بيضاء اللون، ولدت تواً مبتلة بدفء الأم، تحاول الوقوف بلا ترنح، جرى للعنزة الصغيرة يجر في يده جوال ولفها به.

شد أبي البالطو القديم على جسده النحيل، أخرج من جيبه الساعة ذات الغطاء والسلسلة بص في الساعة، أطل على أمي، عض اصبعه، تحاول الأم أن تلد منذ الفجر، والداية تطمئنه بالنظرات، حتى وصلت عمتي الكبيرة ورمت طرحتها ودفعت باب الحجرة حيث أمي، تنهد أبي في ارتياح وجلس على كرسيه الحديدي، وانهمر المطر الذي غرق الحوش والدار، عمتي تحكم إغلاق النافذة بجوار سرير أمي بالقماش، أمي تصرخ وتنادي: يا سيد..

حاول أبي أن يطل على الخارج، ولما انحنى بجوار السلم الخشبي يمد يده يمسك بالدلو فتح فمه دهشة؛ فقد كانت جراء صغيرة مولودة تزحف على بطن الكلبة المستسلمة، والكلبة تنظر لصاحبها وهي تلهث، مدّ أبي يده، طبطب عليها، جرى، كاد يقع ورجع بجوال آخر طرحه على السلم الخشبي لعله يساعد الجراء في بعض دفء.

سمع أبي صوت زغرودة عمّتي، فجرى وتعثر، ووقف على باب المندرة ومسح عرقه.

آخر النهار لمّا توقّف المطر، واحمرّ قرص الشمس وهو يغرب، جر كرسيه وركنه لشجرة «البونسيانا»، حطت طيور لا يعرفها فوق أفرع الشجرة، أشعل سيجارته وهو يفكر في أمي، والعنزة، والجراء، وبرد يناير، ثم ابتسم وهو يفكر طويلا في اسمي الذي اختارته لى جدتي.

2 - الموت

هرولنا خلف جنازة جدتنا، نتقافز، وأحيانا نضحك، وغالباً ما يزيحنا الرجال من سكتهم، كنت وابن عمي وبنت عمي وابنة عمتي في المقبرة تركنا الزحام، والأصوات المتداخلة، من بكاء ومواعظ، وهمهمات، انطلقنا للفناء الواسع الذي به أشجار صبار كبيرة، لها أشواك مثل الإبر، وشجرة الجهنمية ذات الزهور البنفسجية المتسلقة، كنت أجري منهم ويجرون ورائي، نضحك بصوت مرتفع، من الشمس الحارقة تصببنا عرقاً، جلسنا لنستريح، قالت ابنة عمتي: إن جدتي كانت مريضة وتخرف.

وقالت ابنة عمي: إن جدتي نامت ولم تقم.

وقال ابن عمي: إن جدتي هربت من قسوة الحياة ومن طلبنا كل عيد للعيدية وهي قروش قليلة.

وأضاف: لتذهب جدتنا.. لسنا في حاجة لقروشها القليلة.

وضحكنا وواصلنا الجري والمراوغة.

لما عدنا إلى البيت، وضعوا أمامنا المكرونة وقطع الدجاج، والمخلل، وكنت أسابقهم في التهام الطعام.

ونحن نغسل أيادينا تحت الحنفية في الحمام، أظهر ابن عمي دهشته واستغرابه وهو يتساءل: تموت هرباً من قروش العيدية.

وضرب كفاً بكف، وانفجرنا في الضحك.

في الليل، حط الصمت ثقيلاً، أمّي متكوّمة على الكنبة، وأختي ترش وسط الدار بمبيد الناموس، وفجأة ارتفع صوت أبي بالبكاء، جريت إلى مندرته، كان جالساً على الكنبة، يبكي بصوت، وينشج، خلع نظارته، ورفع المنديل المحلاوي الكبير إلى جبهته، وهو ينهنه. بكيت.

3 - الخوف

عندما كنت أجلس وحيداً في الدار التي تطل على النهر كنت أخاف الأشباح والعفاريت التي لم أرها أبداً.

في النهر أمام دارنا يغرق الشبان، الذين كان يلهون ويمرحون ثم يغرقون.

نحتشد على الشاطئ، حتى يخرج الغريق أو لا يخرج.

اسمع الحواديت المرعبة عن عفاريت الغرقى.

عندما كنت أجلس وحيداً في الدار، كنت أشغل نفسي باللعب

حسام بلان

في كتب أبي واتفرج على رسوم كتاب ألف ليلة وليلة، وعندما أملّ أدخل المطبخ وأمدّ يدي بخفة لالتقاط أيّ طعام.

في الظلمة، يعلو صوت الوحدة المفزع، أقفز على السرير، أتصنّت لأسمع صوت صرصور الليل، أو نباح كلب، أخاف أن أظل على النهر في الظلمة، أتمدد على السرير، أشد الغطاء، فأرى صورة الأخرس الذي دهسه قطار الدلتا، الأخرس كان يحملني على ظهره ويلاعبني، ويتقافز، بيدي الصغيرتين أمسك شعره الخشن.

حين ترجع أمي وأبي وأختي الصغيرة، أجلس مع أختي الصغيرة وأحكي لها كيف وأنا وحدي لا أخاف من العفاريت، ولا الغرقى، ولا القطة السوداء، ولا من الأخرس الذي دهسه القطار. وهي تكون مندهشة جداً.

كاتب من مصر

أنا والذاكرة والتاريخ

حسام الدين شاشية

في مُعظم الأحيان يرسمُ الوالدان المسار المهني لأبنائهم، سواءً من خلال التوجيه المُباشر، أو من خلال استبطان الأبناء للمسار المهني للوالدين، فكم من طبيبٍ أصبح أبناؤهُ أطباء وكم من مُحام أصبح أبناؤهُ محامون... أما أنا ورغم أنهُ كان مُقدرًا لي على الأرجح وكمعظم أقاربي أن أسير على درب والدي الفلاح في حرث الأرض خريفًا، وريّ الأشجار صيفًا، ثم قطف ثمار البرتقال في حقلنا الصغير خلال فصلي الشتاء والربيع، فإن حكايةً بسيطة روتها لي أُمي جعلت مسار حياتي يتغير.

خلال فصل الصيف كانت والدتي تحملُنا أنا وإخوتي ومعنا خالاتي وأبنائهم من مدينتنا الصغيرة بني خلاد، الواقعة شمال شرقي تونس إلى مدينة سليمان، التي تبعد حوالي اثني عشر كيلومتر عن منزلنا، للتمتع بشاطئها الجميل وبحرها الدافئ.

كانت هذه الرحلة تتكرر تقريبًا كُل أسبوع أو أسبوعين على امتداد فصل الصيف، رحلة وعلى الرغم من محدوديتها في الفضاء الجغرافي، فقد كانت بالنسبة إليّ أنا الذي لم يتجاوز سنّ الثماني سنوات في عظمة رحلات السندباد أو ابن بطوطة، فعالمي كان ينتهي عند حدود حقلنا الصغير الهادئ جدًا، وفي أقسى الحالات عند حدود مدينتي، القريبة في تخطيطها إلى قرية كبيرة أكثر منهُ إلى مدينة.

يبدأ الاستعداد لرحلة الاصطياف هذه في العادة قبل يوم، أي يوم السبت، بإعداد أمي وخالاتي لأنواع الأكل والحلويات المختلفة. أما نحن الأطفال فكنا نستعد لهذه الرحلة بمراقبة حالة الطقس منذ يوم الجمعة، وكانت حالتنا المعنوية تتأرجح حسب العوامل الجوية، فالطقس الجيد يعني أن الرحلة مُؤكدة، أما هبوب الريح وتلبّد السماء بالغيوم فيُنبئ بأن الكبار سيتخذون قرارًا بتأجيل الرحلة إلى الأسبوع المقبل، حيث كان هذا القرار يُخلّف خيبةً كبيرة في نفوسنا، خيبة ربما أستطيع الشعور بها حتى اليوم.

كانت الحافلة المكتظة تنطلق في معظم الأحيان متأخرةً عن موعدها المُحدد من محطة الحافلات ببني خلاد، وكانت على الرغم من اكتظاظها تتوقف كل مرة لتُقل المزيد من المُصطافين. على الرغم من حالة الاكتظاظ الشديد، فقد كانت والدتي تجد الوقت والفضاء لتتجاذب أطراف الحديث مع واحدة من معارفها الكثيرات، فتقريبًا مُعظم سكان مدينتي يعرفون بعضهم البعض وتربطهم قرابة عائلية بطريقةٌ أو بأخرى. كان أكثر شيءٍ يُنغّص عليّ هذه الرحلة أوامر والدتي المُتكررة والحازمة بأن أُسلّم على صديقاتها ومعارفها، الذين كانوا لا يتوانون عن حضني بشدة وإمطاري بالقبل، وكانت بعضهن يكدن يلتهمن وجنتيّ الحمراوين.

ينتهي الجزء الأول من الرحلة بالوصول إلى وسط مدينة سليمان، حيث كان علينا أن نسير بعد ذلك عبر أزقتها القديمة حتى نصل إلى محطة حافلات أخرى، لتحملنا حافلة تعود ربما إلى سبعينات القرن العشرين إلى الشاطئ الذي يبعد عن المدينة حوالي أربع كيلومترات.

كان عبور أزقة مدينة سليمان القديمة الجُزء الأكثر متعة وإخافةً في نفس الوقت، فمِن جهة كنتُ مُعجبًا بالبيوت المُتلاصقة، الأبواب المزوقة، وجامع المدينة المُميز ذي السقف المُغطى بالقرميد والصومعة المُربعة؛ ومن جهة ثانية كنت أخافُ أن أتخلف عن الركب، فأضيع في هذه المتاهة من الأحياء والأزقة المُتداخلة.

لا أعلم إلى حدّ اليوم الدافع الذي جعل والدتي في أحد المرات ونحن نعبر أزقة سليمان تُخبرني عن الأندلسيين الذين طردوا من أسبانيا فجاؤوا إلى تونس، حيثُ أسسوا العديد من المدن التي من بينها مدينة سليمان، وكانت لهم عادات وأطعمة خاصة، تُتقنُ إعدادها خالتي التي كانت تقيم بالمدينة، ومازالت تُعد بعضها إلى اليوم كحلويات «الشبابك» أو كما تُسميها «الفرشك».

زادت هذه الحكاية دهشتي وإعجابي بالمدينة، فكنتُ أتخيل كُل مرة أزور فيها سليمان أوائل القادمين يبنون ويشيدون المنازل، كما كُنت أتصور الحالة النفسية الصعبة لهؤلاء المُهجرين، والتي تذكّر بها اليوم حالة اللاجئين السوريين أو الفلسطينيين وغيرهم ممن قادتهم ظروف بلدانهم الصعبة إلى مُغادرة أوطانهم.

رغبتي الطفولية في معرفة المزيد من التفاصيل التي غابت عن رواية والدتي خصوصًا، وعن حكايات الغابرين عمومًا، هي التي جعلتني أختار مواصلة دراستي الجامعية في قسم التاريخ، كما قادتني إلى إنجاز رسالة ختم دروس الأستاذية حول موضوع

علي علي

الموريسكيين وأن يكون نفس الموضوع أحد أهم المحاور الأساسية في أطروحة الدكتوراه التي ناقشتها سنة 2014.

اليوم وعلى الرغم من كل النصوص المصدرية والدراسات الأكاديمية التي تناولتها بالبحث والدرس، فإن رواية والدتي مازالت تحظى عندي بالأولوية العاطفية، فصناعة التاريخ لا تنطلق فقط من الوثائق والبقايا الأثرية، بل كذلك من الذاكرة الجماعية والفردية. كما أن كتابة التاريخ وإن كانت تقتضي من المُؤرخ أن يكون موضوعيًا، فعليه ألاّ يسقط في التعامل الآلي أو الجاف مع الأحداث، بل يجبُ أن يكون ذا خيالٍ واسع، يسمح لهُ بأن يكون قريبًا من الأماكن، الشخصيات والأحداث التي يتناولُها في دراساته.

كاتب من تونس

تدبير المحنة

من دمشق إلى بيروت

حسام الدين محمد

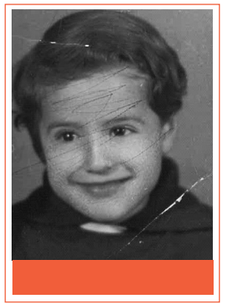

الحدث الذي غيّرني للأبد جرى في السنة السابعة من عمري حين انتقلت عائلتي من دمشق إلى بيروت.

أتذكر غبشات من السنوات التي سبقت حدث رحيلي والكثير من بعده لكنني لا أتذكر تفاصيل التغريبة إلا بآثارها التي أبهظت روحي وصنعت شخصي اللاحق الذي سيتردد كالنوّاس بين مدينتين.

أتذكّر مثلاً لمحات من حرب 1967، حين كان عمري 6 سنوات. أتذكر منها اللون الأزرق الذي دُهنت به الشبابيك بغرض تمويهها عن الطائرات الإسرائيلية!

أتذكر أيضاً حفراً في الشوارع صنعتها الحكومة استعداداً لحرب شعبيّة طويلة الأمد، بعد أن تحتلّ تل أبيب دمشق.

كنا من سكّان حيّ حديث في ضاحية الميدان التي تشكل خاصرة دمشق الجنوبية واستشرافها لسهل حوران. اسم الحي كان متفائلا: «الثريّا»، ولكنني كنت مفتوناً بآخر قديم تسكن فيه عائلتا أبي وأمّي، «الحقلة».

كان بيت جدّي الأول يطلّ على مقبرة كنّا نزورها أحياناً أو نلعب فيها، ويقع الثاني على كتف زقاق شعبيّ يحدّه دكّان حلاق عربيّ يدعى تركي التركاوي. ينفتح الزقاق بعد ذلك على شارع فيه مسجد ومحلات الفول واللحم والبوظة والبزورات وصولاً إلى «الوردة البيضاء»، محلّ خالي، الملقّب أبو عرب، للكيّ والصباغة، والذي شغفت، في طفولتي، بطوله ووداعته ودخانه وتسامحه وخزانته لأغاني أم كلثوم التي أتذكر منها «سلوا كؤوس الطلا» و«الثلاثية المقدسة».

فجأة انتقلنا إلى زقاق ابن منظور في «رأس النبع»، وهي منطقة يختلط فيها السنّة بالشيعة (سأكتشف ذلك متأخراً جدّاً وحين تصبح تسمية هذه الأشياء ضرورية لنصب الحدود الضرورية في لبنان بين المذاهب) وتحاذي حيّ الناصرة (المسيحي) الذي سيصبح خطّ تماس أثناء الحرب الأهلية، وتطلّ على جسر البربير الذي يأخذك من جهة إلى منطقة المزرعة صعوداً إلى قلب بيروت التجارية، من جهة، ومعبر المتحف إلى المنطقة الشرقيّة، من جهة أخرى.

أبي سيفتتح مطبعة في حيّ بربور. ستضرب الحرب الأهلية المنطلقة عام 1975 مشروع أبي فيقرّر افتتاح مطعم في رأس النبع.

أقلقتني مع نقلتي المفاجئة أسئلة أقراني من التلاميذ عن طائفتي وهو سؤال لم أفهمه.

إحدى المفاجآت اللاحقة أيضاً اكتشافي أن عائلتي سجلتني في مدرسة شيعيّة رغم أن أهلي من «السنّة». ستشكّل المدرسة مصنع تعرّفي إلى الرياضيات والكيمياء ولتاريخ خاصّ للبنان فيه فخر الدين المعني واتفاقية كوتاهية ومعركة مرج دابق والشيخ بشير الشهابي ومحمد علي باشا، وكذا على الأئمة الإثني عشر... كل ذلك معجوناً بأخيلة الجنس الطفولية التي كانت تبتعثها تنانير المدرّسات التي كانت رائجة القصر في سبعينات القرن الماضي، وكذلك مع الإحساس بالظلم حين تقوم إحدى المعلمات بضربي لسبب لا علاقة له بدراستي ثم لأتلقّى، حين أتحداها، شتيمة تُحيلني فجأة إلى «شقفة سوري»، فيبدأ شعور اغتراب عن المكان، وتحفز، لاحقاً، رغبة بالعدالة وكره العنصريات الوطنية والقومية والدينية.

بهذه النقلة صارت لديّ طفولتان مشطورتان تاريخيا وجغرافيا وروحيًا: واحدة دمشقيّة وأخرى بيروتية.

في المدينة الأولى أستدعي أسلافي ودفء العلاقات العائلية فتفغم أنفي رائحة حليب الماعز والقرنفل وشجرتا النارنج والياسمين ويتذكر فمي مذاقات الطعام الشاميّ وتشغلني قصص الحموات والكنائن وخفايا الغرف وينفتح لي كنز كتب جدّي التي ستوصلني إلى ألف ليلة وليلة وحمزة البهلوان وسيف بن ذي يزن وصولاً، مع تغريبات صباي وشبابي، إلى المكتبة الظاهرية في سوق البريد حيث سأقرأ روايات فيكتور هيغو وألكسندر دوما وكازنتزاكيس وكتب الرياضيات والعلوم والتاريخ، لأزداد معلومات وأعلو جهالة. كل ذلك مدعوك بذعر وكراهية غامضة للدولة وتعابيرها القمعية: الجيش، المخابرات، الشرطة... والفقر.

... وفي الثانية أكتشف السياسة والطوائف والحداثة على الطريقة اللبنانية واللغة الإنكليزية ومعاناتي كغريب يعالج قصر

محمد عرابي

بصره وخجله بكتابة الشعر والتفوق على أقرانه في الدراسة وبالرسم والانتباه الحذر إلى التفاصيل الكوزموبوليتانية لبلد صاعد: لبنانيون ومصريون وإيرانيون وعراقيّون وفلسطينيون وأكراد ومغاربة وكتب لكافة الاتجاهات الفكرية (مع سيادة لليسار الصاعدة «موضته»).

كان هناك فرع قريب من بيتي اللبناني للحزب الشيوعي اللبناني ولكنّه كان مغلقاً ببوابة حديدية سوداء لا تشجع على التقدّم والاشتراكية. كانت تلك طريقة النخبة الطامحة لقيادة العمال والفلاحين في الانعزال، وكان مبنى جريدته «النداء» قريبا يتلامع مع أسماء وشعارات مبهرة على جدران الشوارع: منظمة العمل الشيوعي، الناصريون، حركة أمل، الجبهة الديمقراطية، «العاصفة» الخ...

نقلة الجغرافيا كانت أيضاً انتقالاً في التاريخ والاجتماع والسياسة بشكل خلط الدلالات وحرّك عقلي وجسدي ليجرّبا محاولة فاشلة للتوازن.

كان حزب البعث العربي الاشتراكي يرخي ظلاله المرعبة على سوريا ويجرّب وصفاته الأيديولوجية قبل أن ينقضّ أحد أركان «اللجنة العسكرية»، حافظ الأسد، على السلطة وتبدأ مرحلة أخرى.

ستتناظر كل نقلة كبرى في حياتي مع حركتي النوّاسية بين المدينتين.

مع نشوب الحرب الأهلية اللبنانية قرّر أهلي إرسالي إلى دمشق لمتابعة الدراسة هناك وخلال رحلتي رأيت الدبابات السورية الداخلة إلى لبنان عام 1976 لتبدأ مرحلة طويلة يتداخل فيها تاريخا المدينتين بشكل دمويّ.

أثناء دراستي الجامعية في دمشق دفعني هاجس ما للذهاب مجدداً إلى بيروت حيث سأنتمي إلى تنظيم ماركسيّ صغير. جائزتي من تلك التجربة تعرّفي إلى مجموعة من طلقاء اليسار، وإلى فتاة ستصبح عشيقتي الأولى.

ستنتهي علاقتي بزملائي اليساريين (وبالحبّ) أثناء حصار الإسرائيليين لبيروت فأغادر متنكرا ببطاقة هويّة لبنانية إلى سوريا لأكتشف هناك حصاراً أبشع ومجازر أكبر في مدينة حماة بحيث يتلاقى في وعيي المحتلّ الخارجيّ والمحلّي في منافسة عظمى على إنهاء أمل الشعبين الفلسطيني والسوري بالتغيير.

ستطاردني تلك التغريبة التي دمّرت طفولتي ومزّقت حياتي فلا أكف عن تذكر أبيات كفافيس: ستصل على الدوام إلى هذه المدينة. لا تأمل في بقاع أخرى. ما من سفينة من أجلك وما من سبيل. فما دمت قد خرّبت حياتك هنا، في هذا الركن الصغير، فهي خراب حيثما حللت.

كاتب من سوريا مقيم في لندن

القارئة الصغيرة

حنان بيروتي

الطفولة مخزونٌ ثري في الأعماق ننتح منه للحاضر، وكلُّ ما كان رماديًا ومضببًا ينقلبُ مع عبور درب العمر وتوالي السنون إلى ذكرى وردية وملونة بجمال تلك المرحلة المفصلية في الحياة والتي تمر -مهما كان لون الفرح باهتاً فيها أو وردياً- كحلم،وتمضي كرحلة ونعبرها وتعبرنا كخديعة للحياة ووشم عشوائي للوجود.

ربما معظم الأحداث التي تمر بنا في مرحلة الطفولة تسهم في تشكيل عجينة الآتي، وتبذر ذاتها في النفس باختيارنا أو بعدمه، وربّما حين يحاولُ المرءُ النظر داخله وفتح صندوق طفولته المشرع والساكن في أعماقه يحار أيها يختار ليصفها بالمفصلية، قد يظلل قاصدا بعضها بالتناسي لأنها تحفر الجرحَ عميقا في نفس غضة دون شفاء، وقد يحيي أخرى لأنها زرعتْ له أجنحة، وبعثرتْ سكون وركود الواقع وزينتْ له الوجود، وأضاءتْ في عتمة قلبه قنديلَ حلم وقد.. الكلمات هنا في منطقة الطفولة ربما تشبه سنارة صيد بلا طعم وبلا مغنم، فبحر الزمن شاسع فينا، والتذكر والذكرى مجللٌ بغموض وحلم وما يشبه الرسم بلون واحد للوحة صامتة.

لم تكن الطفلةُ التي أيقظها العطشُ ذات صباح عمر بعيد تدري أنَّ تلك الساعاتِ الفارغةَ والمكدسة في النهار هو نبع عمرها، وأنَّ الوقت الذي حدستْ أنه يتسرب من بين قبضتها الصغيرة هو عنوان لمستقبل حين هربتْ من ألعابها الصغيرة البسيطة مثل الحجلة والكمستير التي كانت نقيةً من ملوثات التكنولوجيا وسحر وأسر الشاشات إلا من نصف ساعة الأطفال التي كانت تبثها المحطة الوحيدة المتاحة آنذاك وهي شاشة التلفزيون الأردني التي بالكاد كانت تنجو بها من تسلط إخوتها الأكبر باعتبارها الصغرى في العائلة، لتنعم بمتابعة متقطعة لـ«ساندي بل» و«الليدي أوسكار» وتسافر في الخيال مع« السندباد » ولتصطدم بوقت تمل فيه سريعا حيثُ لا خيارات متاحة، حين خطرَ ببالها أن تتسلق صعودا من «المجلى» واتكاء على نافذة المطبخ وتعلقا كبندول الساعة وصولا إلى كوة في أعلى الجدار هي «السدة» والتي ستفتح نافذة فسيحة سيسرقها لألوانه وحروفه وعوالمه إلى الأبد.

كنتُها تلك الصغيرة الحالمة حين تسلقتُ السدة، وعثرتُ على مخزن الكتب والمجلات التي كان الوالد -رحمه الله- يودعها هناك لضيق المكان وكثرة عدد أفراد الأسرة والاكتظاظ الجميل والحميم الزاخم بالتفاصيل الصغيرة والاحتفاء بالقليل وصنع الفرح من ظلال الخيال، فبدأتُ بالقراءة لأكتشفَ كيف تمضي الساعات كأنها ثوانٍ، وكيف يغيبُ المكان وكيف تتهجّأني الحروف اذ أتهجأها،وتتعثر الحواس بأولى خطى المعرفة، كنت أقلِّبُ الكتبَ الأدبية، وأصافح للمرة الأولى المجلات العريقة منها «العربي» و«المختار»، وأتابع الهروب من قعر الواقع إلى غنى الخيال، وآفاق الحلم، وأجنحة البوح وسحر البلاغة، وأحلقُ مثل ساحرة صغيرة على جناح مكنسة منسية عثرتُ عليها في زاويةٍ مغبرةٍ.

تلك حادثةٌ مفصليةٌ صغيرة وقتها لكنها باتت الأهم لأنها ساهمت في بناء بنية ثقافية خارج الكتب المدرسية وسطوة التلقين، وتحولتْ بعدها عادةُ التسلق والقراءة إلى برنامج ممنهج أهربُ إليه من فراغ العطلة الصيفية الطويل،وأتابع القراءة والاطلاع،لم أكن أدري أنَّ هذا الفراغ الفقير هو ثراء، ولعلّي أتساءل الآن،:هل الآفاق الموصدة دون جيلنا والفرص الفقيرة لقضاء الوقت كان ثراءً آتياً؟ وهل الشاشات الفاغرة فاها للوقت مثل جائع في الزمن الحالي هي ثراء حقيقي أم فقر ملوّن أم ضجيج يسرق هدأة الحياة؟

تلك الحادثةُ جعلتني قارئةً صغيرةً، وأوقدتْ داخلي ملامحَ مرحلة آتية من عمري، وعيثُ من خلالها أنَّ روحي معلقة بالحروف، وأنَّ ثمة عطشا في نفسي للحلم والبوح كأنَّ صحراء تسكنني، وأنَّ قمري في وحشة الحياة كلمة، وفرحي قي برد العمر هو ثوب حكاية ووشاح حلم وأغنية وعطر الكلام.

*كاتبة من الأردن

نعمان عيسى

موت الأب

خلدون الشمعة

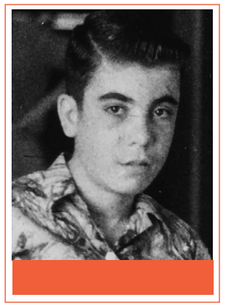

توفي والدي شابا. فجأة، وبلا مقدمات، وجدتني أقف وحيدا في العراء. لا أعني بالوحدة الشعور المدمر بالفقدان وعدم وجود أقرباء محيطين. هؤلاء كانوا كثيرين. ثمة أقرباء كانوا يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم كما يقولون. أعني بالوحدة ما يمكن أن أدعوه اليوم بـ«التوحد» بدلالتيه النفسية والميتافيزيقية.

كان هذا التوحد المفعم بإحساس الرعب والعزلة وفقدان بوصلة الاتجاه، طاغيا. وعندما أنظر اليوم بعين النوستالجيا، إلى ذلك الماضي البعيد، محاولا استعادة ما حدث، تلمع على شبكة ذاكرتي بروق تشتعل هنا وتخمد هناك. ووراء هذه الالتماعات يرتفع صوت عازف كمان يقف في حديقة منزلنا بحي بستان الرئيس وسط دمشق. وأما المستمعون المنصتون بلا هوادة، لذلك العزف المبكر، فقد كانوا ثلاثة: أنا ووالدتي وعصفور في قفص يتدلى من سلك معلق وسط الحديقة.

العازف هو والدي. وكان عزف الكمان هوايته التي يمارسها كطقس يومي قبل الذهاب إلى عمله في وزارة «الاقتصاد الوطني» باعتباره خبيرا درس علم الإحصاء في باريس وكلّف من قبل الأمم المتحدة بتأسيس معهد خاص به في بغداد.

كان العصفور ينصت للعزف ويردّ على العازف بزقزقة تحاكي إيقاع الموسيقى. ومنذ اختفاء العازف لم يعش، بإصراره على عدم القبول بالطعام إلا من يد والدي، سوى أيام.

هذا الشّعور الطاغي بالعزلة عبّر عن نفسه خلال سنوات المراهقة بالذهاب دوريا إلى «المكتبة الظاهرية» مشيا على الأقدام، والإدمان على مطالعة ما تحتوي عليه من كنوز. آنذاك لم يكن يُسمح باستعارة الكتاب وإخراجه خارج المكتبة. ولهذا صار المكوث فيها ساعات طويلة هو في حقيقته بمثابة استبدال للحياة كما يمارسها الأولاد والشبان من جيلي، بحياة أخرى تملأ فراغ العزلة عن العالم باستمرار.

ولكن الإحساس بالعزلة لم يلبث أن تحول عندي إلى شعور مسيطر بالعبث، وبالطبع لم تكن هذه المفردات متأصلة في نفسي قبل اطّلاعي على الفكر الفلسفي. وأذكر أن كيركفارد وفلسفته الوجودية المعايدة لهيغل كان لها أثرها المبكر في تكويني المعرفي. وكانت قراءاتي لمختارات مُستلّة من كتابه (إما / أو) بجزأيه متعة حقيقية. فقد أعجبت بمناهضته النقدية للهيغيلة التي كانت تزعم أنها تملك مفاتيح الجواب على كل تساؤل فلسفي. كما افتتنت بالدور الذي تلعبه الإرادة في فكره، فضلا عن نقده لتفاؤل هيغل التاريخي.

وبهذا الإطار الفكري تمكّنت في وقت لاحق من الإحاطة بفكر نيتشه كمفكر حداثي بامتياز. والحال أن إعجابي بأعمال كيركفارد وشوبنهاور ونيتشه لا يعود فقط إلى الدور المركزي الذي يلعبه مفهوم الإرادة في فكرهم، بل يعود فضلا عن ذلك إلى كونهم أدباء مبدعين إذا ما نظر إلى أعمالهم من منظور أدبي صرف.

كما أن الإعجاب بهذا التزاوج المفهومي لديهم، بين الفكر والأدب، سبقه تعلقي المبكر بأدب تشيخوف ودوستويفسكي وتولستوي. وهناك عبارة لتشيخوف كنت قد سجلتها في دفتر صغير وأنا في سن المراهقة، ولم أستطع مقاومة إغراء حفظها عن ظهر قلب، إذ يقول تشيخوف «في الطبيعة تتحول اليرقة المثيرة للاشمئزاز إلى فراشة جميلة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالكائنات البشرية فإن العملية تجري باتجاه معاكس: الفراشة الجميلة تستحيل إلى يرقة مثيرة للاشمئزاز».

وفي وقت لاحق سجلت في دفتر مذكرات، التعليق التالي «إذا كان تشيخوف قد عبّر عن مأساة النوع البشري على هذا النحو المثير للخجل والرثاء، فإن دوستويفسكي، أحد أبناء عمومته الذي وصلت حساسيته تجاه الأشياء إلى حد الهستيريا والجنون لا يتردد في الإمساك بالمفتاح وإدارته في القفل ليكتشف الأعماق دفعة واحدة. بل إن هذا الملتحي الروسي المتشبه بالأنبياء يطلب منّي في إحدى رواياته، أنا القارئ البائس، أن أقوم بتجربة بسيطة: أن أمطر ذلك الكائن البشري بالنعيم وأن أغرقه في بحر من السعادة، وأن أمنحه الرفاه الاقتصادي بحيث لا يكون لديه ما يفعله سوى النوم والتهام الحلوى والانغماس في التناسل حفاظا على النوع. وعند ذلك يتنبأ دوستويفسكي أن ذلك الكائن لا بد أن يبادر آنذاك، انطلاقا من الجحود والرغبة في المناكدة إلى ارتكاب حيلة قذرة يعرّض فيها حلواه للخطر. بل إنه يلقي بنفسه عن عمد في تهلكة الرغبة بالحصول على

رضوان عبدلكي

أشد القاذورات إيذاء، وعلى أشد المكاسب الاقتصادية خواء من المعنى، فقط من أجل أن يفسد عقله بهذا العنصر الخيالي المهلك!».

وفي صفحة أخرى من المذكّرات سجّلت الكلمات التالية «عندما أصبح صديقي الدمشقي الرائع الذي كان يشبع رأسي بالكلام عن ضرورة الانسجام بين السلوك والعقيدة، مسؤولا يحتفي بالمسؤولين الكبار الآكلين لحوم شعوبهم أشبه بحامل المنشفة في حمام تركي، أدركت أن البهلول الذي عرفته قد تحول كالحرباء المدربة إلى بهلوان نموذجي.

ولكن صديقي يصرّ على أن ولاءه للمبادئ ثابت لا يتغير، وأنه يدرك أن الانهيار الذي وصلت إليه جمهورية العرابين والعيارين والشطار واللصوص لا يمكن الدفاع عنه بأيّ حال.. ولكن ما العمل؟».

ومقابل هذا الاعتراف البسيط والخطير يصر على الدعوة إلى تفهم ظرفه الوجودي الحرج. فهو على حد تعبير أحد الفلاسفة أشبه براكب منطاد طائر لا يشعر أنه يصعد في السماء وإنما هو يرى الأرض تغور وتغوص تحته باستمرار.

ناقد من سوريا مقيم في لندن

مطلع الفجر

زكي سالم

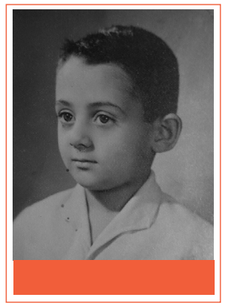

لعلها أروع لحظات حياتنا القصيرة، لحظة بزوغ النور الحقيقي، مثل أول ضوء لأشعة الشمس على سطح الأرض، لحظة معرفة الذات لمعناها، ومعرفة الإنسان لحقيقته المستترة في داخل أعماق قلبه.

هل حدث ذلك في سن الثالثة عشرة، أم قبلها، أو بعدها بقليل؟ لا أدرى بالضبط، فالأمر حدث فجأة، إذ اكتشفت من خلال قراءة صفحات كثيرة ومتنوعة من الصحف والكتب والمجلات، أن حياتي كلها ستدور -بالتأكيد- بين السطور، قراءة ثم كتابة.

وقد تتصور أنني أحببت (فعل) القراءة، أو قضاء الوقت في ممارسة الكتابة، وهذا غير صحيح، فالكتابة، بالنسبة إليّ، طول عمرها، عملية شاقة للغاية، ومع ذلك لا أنكر أن لها متعتها الفائقة، إذ يُدرك الإنسان أشياء كثيرة وهو يتوغل داخل نفسه ببصيرة، ويصيغ عباراته بدقة ويُشكل أفكاره بنظام.

أما القراءة، فعمل مجهد ومتعب ومتواصل! لم أحبه في حد ذاته، وإنما أحببت أن أعرف ما أريد أن أعرفه، وكنت أتمنى، من صغرى، أن أجد «إنسانا حكيما»، يمكنه أن يُجيب عن كل تساؤلاتى!

ولقد وجدته فعلا، بعد ذلك بسنوات قليلة، فكما يقول الصوفية، حين يتأهل المريد، ويستعد للقاء الشيخ، عندئذ يظهر شيخه لينير له الطريق.

ففي طفولتي وصباي وشبابي سيطر عليّ شعور عميق جدا بالجهل الفادح والفاضح، ومن ثم تأججت بداخلي رغبة جنونية في المعرفة، لكن معرفة ماذا؟! كانت الإجابة حاسمة وحالمة: معرفة كل شيء!

بيد أنني أدركت بسرعة ضعف الطالب، واستحالة المطلوب، فقد بدأت أسأل كل من حولي، عن أمور كثيرة أريد أن أعرفها، وإذ أرسل أسئلتي في كل اتجاه، لا أحصل على ما يرضينى من الإجابات، فالجهل الذي أتمتع به، لم يك يقتصر عليّ وحدي!

وكانت مفاجأة كبيرة، بالنسبة إليّ، أن أدرك، وأنا مازلت طفلا، أن معظم من حولي من الكبار، يجهلون ما أجهله، وبرغم ذلك يعيشون في سلام تام، فالجهل الذى يغرقون فيه، لا يسبب لهم أيّ مشكلة! وشعورهم بالرغبة في المعرفة لا يقلقهم، فثمة رغبات أخرى، أولى بالاهتمام والرعاية!

ومن ثم كان لا بد من تحديد مجالات المعرفة المراد التعمق فيها، أو تلك التي تمثل، بالنسبة إليّ، أكثر أهمية من غيرها، إذ أن الثقافة العامة، مهما كان، لها حدود، لا يمكن للإنسان أن يعرف كل شيء.

ومن ثم ركزت اهتمامي على ثلاثة مجالات أساسية، لعلّي أستطيع أن أحصل منها على ما يجيب عن أسئلتي الكبرى، المجال الأول: دراسة الأديان المختلفة، ومعرفة المكتوب في النصوص المقدسة لكل دين، مع الاهتمام بالعقائد المتباينة، والبحث في الملل والنحل، وفى هذا المجال جذبتني بشدة الدراسات الصوفية، وعشقت الجوانب الروحانية في كل الأديان.

أما المجال الثاني، فعلى صلة وثيقة بالمجال الأول، إذ أن الدراسات الفلسفية ترتبط، في جانب منها، بالعلوم الدينية، وثمة تصوف فلسفي، يجمع بين النسق الفكري المتكامل، والطموح الروحي لفيض الحقيقة المطلقة.

ثم كان المجال الثالث، والذى لا يبعد كثيرا عنهما، وهو مجال الأدب، ولعله عشقي الأول، بيد أنني أدركت، مبكرا جدا، أن كتابة الأدب بدون ثقافة موسوعية وخبرة حياتية، يعد تبديدا لوقت الكاتب والقارئ، فالأدب، كما أحبه، رسالة ودراسة، وبحث واجتهاد، بالإضافة، طبعا، إلى الموهبة. فالأدب الحقيقي معنيّ بتصوير الإنسان في سعيه الدؤوب نحو معرفة نفسه، وفيه كذلك يتجلى كدح المرء إلى الحقيقة المطلقة، والأدب في جوهره هو الإنسان وهو يعي وجوده وعالمه ومصيره.

ومن بين فنون الأدب، كان فن القص هو محور اهتمامي، فحين أراد المولى، عز وجل، أن يخاطب بنى البشر، كلمهم من خلال الأمثال والحكايات والقصص، إذ أن هذا الشكل الدرامي يمكنه أن يحمل من المشاعر والمعاني والأفكار، ما لا حصر له، كما يمكنه أن يعلّم الناس على مختلف مستويات وعيهم وثقافاتهم.

وهكذا كانت حياتي كلها امتدادا للحظة التنوير المبكرة هذه، ومن ثم بعد أن أنهيت دراستي الجامعية الأولى، عدت إلى الجامعة لدراسة الفلسفة، دراسة أكاديمية، ثم تخصصت في علم الأديان والتصوف، واستمتعت بقراءة عيون الأدب العربي والعالمي، وها أنا أواصل كتابة الروايات والقصص، لعلّي أعبّر عمّا وصلت إليه من إجابات عن أسئلتي الكبرى.

كاتب من مصر

صور باهتة

رؤوف مسعد

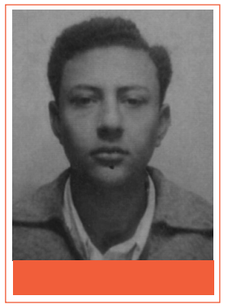

ما الذي يعلق من أحداث طفولة شيخ ثمانيني في ما تبقى من ذاكرته التي تتهرأ يوميا؟

***

فاجأني السؤال حيث كنت أحاول أن أعمل في تنقيح وترتيب مادة طويلة أكتبها من سنوات عنّي وعن شخوص أعمالي، وعن حياتي بطولها وعَرضِها.

عن أناس عبرتْ بهم وعبروا هم بي خلال رحلة حياة تدهشني تنوعاتها ويدهشني طولها وعرضها وأحذر كثيرا في الادعاء بعمقها..

ساعتها أخذت أفكر: هل من الممكن أن أتذكر الطفل الذي كنته؛ ملامحه الخارجية وتركيبه الجسدي؟

وكذا ذاكرته أو ما تبقى منها؟

***

بدت لي بعض صور الطفولة باهتة مراوغة.

تايغة كريلوس

***

أسترجع في دهاليز الذاكرة بيتا واسعا بحديقة وفيها ورد قليل وخضروات كثيرة. إنها حديقة بيتنا الكبير في مدينة «ود مدني» السودانية حيث عمل أبي وأقام كقس إنجيلي بروتستنتي.

هناك وعيت طفولتي بالرغم من أني ولدتُ في مدينة أخرى وعلى ضفاف مياه البحر الأحمر. مدني -كما نطلق عليها- على ضفاف النيل الأزرق القادم من الحبشة.

***

زراعة الحديقة كانت فكرة أبي وهو علّمني -في طفولتي وصباي- كيف أعتني بها.

هو فلاح أصلا ثم أصبح قسا وكاهنا.

كاتب من مصر

رماد في الحلوق

رانيا الخليلي

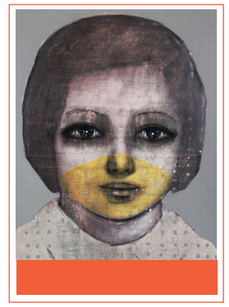

مسدت قلبي لآخر مرة وأدارت ظهرها نحو اللاشيء، قررت أني سأصير الحلقة الأقوى في هذه المعادلة واكتفيت من كوني الفتاة التي تلوح لكل من يدير ظهره، فأدرت ظهري أنا الأخرى.

كان الدرج المؤدي إلى بيتنا محفوفا باللون الأخضر، لطالما أحبّته وظّلت تزرع اخضرار أصابعها في كل أصيص فارغ تجده، كانت جميلة مثل قمر الشتاء، في آخر الدرج الأخضر كان باب البيت الخشبي، خلف الباب كان بانتظاري طفلان لا يعرفان شيئاً عمّا حدث ويحدث غير أني سأصير أمهما.

أدارت عينيها عني باطمئنان وغابت، أنا وهي كنا نظن أننا سنكبر سوياً، اعتقدنا بالخطأ أننا سنشيخ معاً بينما نقرأ كتاباً واحداً ونستمع إلى «مارسيل خليفة» الذي ظلت تهديني أشرطته القديمة وتغنّي لي أغانيه حينما تمشط شعري. كانت تفتح ساقيها على الأرض فأجلس بينهما معطية إياها ظهري فتمد يدها نحو شعري وتبدأ بتمشيطه، كانت تغني: قمر المراية، بعد أسابيع رنّ الهاتف فقلت لها: اشتقتلك ماما.

كنت طفلة بما يكفي لألومها دائماً، أردتها أن تشعر بما فعلته في حياتنا، أردتها أن تتألم لتدفع ثمن أنانيتها. كان بيتنا ميتاً دونها، حتى أن أبي سافر بعد أيام من رحيلها ولم يعد إلى البيت أبداً، وهكذا كبرت وحيدة.

تَركت كل كتبها في البيت وأخذت كل ثيابها، ضمن الكتب واحدٌ بأوراق صفراء لتعليم الطبخ، فتحت الكتاب وأعددت حساء العدس. هاتفتني عمّتي تلك الليلة لتخبرني أنها سترسل لنا طعاماً فقلت لها «بعرف أطبخ لحالي». لم أكن أطول من حدود حوض الجلي بكثير، لكنني أنجزت كل شيء وحيدة.

سمح لنا القاضي الذي نفذ رغبتها بالطلاق أن نزورها كل نهاية أسبوع، في بيتها لم تستطع أن تعوّضنا عن أيام الأسبوع التي نقضيها بعيداً عنها، وشعورنا بالغربة معها لم يتوقف، كنا نحبّ أبانا الذي يهاتفنا من بلاد بعيدة ليسأل عن حالنا، ويرسل لنا متطلباتنا المادية مع عمتي التي كانت يدها خشنة على وجوهنا كلما صفعتها.

في بيتنا كنا ننام وتحت وساداتنا سكاكين، اعتقدنا أننا سننقذ أنفسنا من وحوش الليل لو هاجمتنا، في بيتنا كنّا نخاف من الغُرف فنمضي إلى الغرفة ثلاثتنا سويًا ونخرج منها ثلاثتنا سوياً، كنّا نخاف من البيت إلى الحد الذي جعلنا ننتظر بعضنا عند باب الحمام الذي نتركه مفتوحاً لئلا يهاجمنا الليل، كنا نخاف ولم نكن نعترف بهذا الخوف.

أنا الأكبر بين أخ وأخت تركتهم لي أمي، أخي يصغرني بعشرة أعوام وأختي تصغرني بثلاثة.

كان أخي ما يزال يتلعثم كلما حاول أن يلفظ الكلام، بينما كانت أختي أقصر من أن تصل إلى حوض الجلي لتساعدني قليلاً. صرت أمّا صغيرة.

حقدت على عماتي وكل أقاربنا الذين يجتمعون في بيت جدي، كانت كل واحدة منهن تحكي عن أبنائها بينما أستمع. كل واحدة منهن تحب أبناءها بينما أختي تبكي. لم يطرق أحدٌ باب بيتنا. كنا وحيدين مثل أيّ شيء مهمل، أيّ شيء لا قيمة له. حينها شعرنا باليُتم.

انقضت أربعة أعوام ونحن نزور أمي كل نهاية أسبوع ونصارع حزننا باقي الأيام في بيت كبير نخاف غُرفه ولا ندخلها إلاّ فرادى، حتى أتاحت لنا الأقدار فرصة الانتقام، إلى حين هاتفنا أبي معلناً «رح أجيبكم عندي تعيشوا معي هون».

لم أعرف أكنا ننتقم من أمنا التي هجرتنا أم من أنفسنا التي لم تكن تَغفر لها، لكن ما حدث هو أننا ودّعناها كما لو أنها غريبة، كما لو أننا سنلتقي بها في عطلة الأسبوع الآتي، كما لو أنها ستسافر معنا.

ربطنا على قلوبنا نحن الثلاثة وسافرنا معه، كان طيباً حنوناً ويحبنا، كنا في المطار وكان يضحك معنا -لم يكن يضحك معنا كثيراً حسبما نتذكره قبل أن نسافر-.

صباح العاشر من أبريل استيقظت لأجد نفسي في غرفة بيضاء تماماً لا مكتبتي ولا خزانة ثيابي فيها، خرجنا إلى المدينة التي أراد أبي أن يُبهرنا بجمالها، هناك كانت البحيرات والنوارس والشطآن والشوارع النظيفة والسكان الشُقر.. هناك كانت الغابة والأنهار، هناك كانت المدينة خاوية.

عدنا إلى البيت ننتحب، حينها تمتمت أختي في أذني «إحنا شو عملنا بحالنا. وتمتمت أنا لنفسي: يا كسرة قلبي!»

أشعلت أول سيجارة لي وأطفأتها في جلدي، أدركت متأخرة

سعاد مردم

أنني لم أكن أعاقب غير نفسي، أن أمي كان عليها أن ترحل لأنها لو لم تفعل كانت ستموت مغبونة، في البداية حقدت على كل شيء، وفقدت الشعور فيما بعد، ودون أن أرضى بالواقع، آمنت بداخلي أن كل ما كان عليّ فعله من البداية حتى الآن أن أجبر إخوتي على تقيؤ الرماد الذي نثرته الحياة في حلوقنا نحن الثلاثة لتظل لعنة الذاكرة داءنا الذي لم وربما لن نشفى منه إلا حينما نموت.

كاتبة من مصر

نسمع بالسيارة ونتخيل بغداد بالألوان

رشيد الخيون

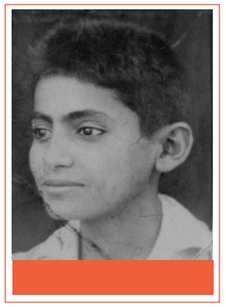

ولدت ونشأت بقصبة قصبة جنوب العراق، وسط الأهوار، كل ما حولنا ماء بماء، لا نعرف اليابسة إلا لماماً، ولو وصل ابن بطوطة (ت 779هـ) إلى هذا المكان لقال فيها ما قاله بغوطة دمشق لكثرة مياهها «قد سئمت أرضها كثر الماء حتى اشتاقت إلى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم والصلاب أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب» (الرّحلة).

فتحنا عيوننا على القارب وسيلة مواصلات. كنا نسمع بالسيارة ونعطيها أشكالاً في مخيلتنا، حتى صورتها لم تصل إلينا، فلا فوتوغراف ولا تلفزيون، مع وجود قليل من أجهزة الراديو. فالأهوار التي حظيت مؤخراً باعتراف اليونسكو إحدى المناطق الأثرية والحضارية، عاشت في عزلة طويلة عن المدن، وصلها الرحالون الغربيون، ومَن كتب عنها مِن الأكاديميين العراقيين، وأخذ فيها شهادة الدكتوراه مِن بريطانيا، كشاكر مصطفى سليم (ت 1985)، وصدر كتابه «الجبايش» مترجماً عن العربية، عاش هذا الباحث ردحاً مِن الزمن في بيت مِن قصب، وحظي بضيافة أهلي، وذلك العام 1953، وظلت الصّلة قائمة معه، وبعد حين التقيت به وكنت بمعية والدي ببغداد.

حتى ذلك الزّمن لم نكن نعرف السّيارة إلا بالاسم، يقص عنها مَن سافر إلى مدينتي البصرة والنّاصرية، والمدن التي كنا نتخيلها بالألوان، ولا أدري لماذا تخيلنا بغداد حمراء والبصرة زرقاء.

كان العام 1961 عاماً فاصلاً في ثقافتي، وثقافة جيلي بتلك المنطقة، يوم وصلت أول سيارة محمولة على سفينة حديدية (دوبة)، يوم جازفت بلدية المنطقة بشرائها وجلبها عبر الفرات، يقودها سعيد آل جويعد، أحد شباب المنطقة، وكان سائقاً ببغداد مع الشّيخ سالم الخيّون.

تجمعنا على الشاطئ حيث رست السّفينة، في شمال المنطقة، وتجمع رجال الحكومة المحلية، وفي مقدمتهم عمّي رئيس البلدية طارق الخيّون (ت 1993)، يتداولون مع نوخذة السّفية وسائق السّيارة كيفية إنزالها، ولم يكن هناك طريق معبد ولا ترابي تسلكه عند نزولها، سوى أرض يحيطها الماء، وطريق ضيق مُدَ بواسطة قوافل الحمير.

كنا مشغولين بالنّظر إلى هذا الكائن العجيب السّيارة (القلاب)، ولونها الأحمر، كي تبدأ بحمل التّراب لمد شارع وسط القصبة. نزلت السّيارة وسط اليابسة، تجمع عدد غفير مِن أهالي المنطقة، وتهاليل بالصلوات، وصعد السّائق، وكان مضطرباً، يدور محركها ليتجه بها صوب بناية البلدية، ونحن نتقافز حولها، مع عصبية سائقها وطرد الشّرطة لنا. كانت تسير ونحن نركض محاذاتها، حتى وصلت إلى قنطرة أمام دارنا، فتداول المسؤولون عن عبورها وهل ستتحمل تلك القنطرة ثقلها، التي لم يعبرها مِن قبل غير النّاس، وهي عبارة عن عارضتين حديديتين مدت عليهما الأخشاب، وكانت مكاناً لصيد السمك بالسنارات.

مرت أيام ونحن نحتفل بهذا الكائن العجيب، نستغل الفرصة وننظر في داخله، وكيف يتمكن السائق مِن ضبط اتجاهه شمالاً أو يميناً، ما هو سرّ السرعة التي تدور فيها العجلات. بعد حين طلبت البلدية سيارتين (قلاب)، وأنزلتا بالطّريقة نفسها، ووقع جرهما بالحبال إلى اليابسة، وبفضل السيارات الثلاث مدت الطرق كتهيئة لربط قصبتنا بالمدن المجاور (البصرة والنّاصرية)، فيتراجع دور القارب، لكنه يعود نشطاً في مواسم الفيضانات (نيسان-تموز) العارمة، والتي تُذكّر بطوفان نوح.

كانت قفزة في حياتي، وحياة أترابي، أن نرى كائناً جديداً، يسير بين بيوتنا، قبل أن نرى العجلة الهوائية أو النّارية. كنا نصحى على صوتها، ولا نهدأ إلا بعد ركنها في كراجها، وننظر لسعيد جويعد (أول سائق بالمنطقة) كرائد فضاء.

غيرت السّيارة مخيلتنا عن الآلات والأدوات التكنولوجية، وأن العجلة ليست مختصة بماكنة الطحن فقط، التي يمتلكها والدي بالمنطقة، ويدور وسطها دولاب ضخم. أخذنا نُقلد السيارة بألعابنا، المصنوعة بأيدينا، بتشكيل الأسيام على عجلات، نحركها بقصبة تُربط في وسطها. كذلك غيرت السّيارة مخيلتنا عن المدن، فما عدنا نحسبها بالألوان. إن نسيت لا أنسى وصية العجوز جارتنا الخالة سكنة، ونحن ننتظر وصول السيارة «لا تركضوا أمامها فتدوسكم، أركضوا بجانبها»، وقد التزمنا بالوصية، فنحن أمام كائن لا يضاهى بسرعته.

كاتب من العراق مقيم في لندن

فادي يازجي

محمد عزاي

ذات عطلة صيفية

سامية العطعوط

كنت ألعبُ مع أولاد الجيران في حارتهم العتيقة الضيقة، كعضوٍ مهم في عصابة الحارة التحتا. كنت أفتخرُ بذلك وأعلنه باستمرارٍ أمام زميلاتي في المدرسة. لم يقتصر لعبي معهم على لعبة الجلّة والسبع حجار وكرة القدم أو الملاطفات الجنسية الطفولية، بل شاركتهم كذلك في لعبة (الحرب). لعبتي المفضلة التي تعتمد على سرعة الجري وقوة العضلات، وممارسة القسوة والوحشية والصراخ.

في أحد الأيّام، عدتُ من مدرستي فرحةً بالعطلةِ الصيفيةِ التي بدأت للتو. مارستُ ما اعتدتُ أن أفعله في نهاية كل عام. خلعتُ مريولَ المدرسة على عجل، وارتديت القميصَ الزهري والشورت الأبيض. بدا جسدي متناسقاً، رشيقاً، جميلاً، مفعماً بالحيوية كفتاةٍ في التاسعة من عمرها. استعددتُ وإخوتي للّعب. أحضرَ الأخُ الأصغرُ الحجارةَ التي جمعها في وقتٍ سابقٍ، وجلبَ الأخُ الكبير العصيّ والمقالع ونزلنا جميعاً إلى الحارة كي نلعب لعبة (الحرب).

لم نشعر بالوقتِ الذي مرّ سريعاً ونحن نتراكض في حالة هياجٍ بين الحارات والأزقة، إلاّ عندما حلّ المساء وأرسلت أمّي أختنا الصغرى في طلبنا.

عدنا إلى البيت منهكين، مغبرّين، مشعّثي الشعور، قذري الوجوه والأطراف والثياب. دخلنا بضجيجنا وغبارنا ومرحنا. كان أبي يجلس في الصالة على غير عادتهِ، صامتاً مطرقاً يفكّر. اغتسلنا وتناولنا العشاء. اختفى إخوتي في غرف النوم. نادتني أمي إلى الصالةِ، فغادرَ أبوبي المكان إلى المطبخ. سألتني أمي بمجاملة:

كيف كان لعبكم اليوم؟

* أجبتْ بحماسٍ:

استمتعنا باللعبِ كثيرا وغلبناهم. وفتحي انطبش ونزل الدم من رأسه، وسمير أوقعني على الأرض بس أنا ما اهتميت، وبكرة عندنا مباراة نهائية في كرة القدم. بدْنا نكمّل اللعبة.

طيب.. طيب ..

قالت الأم في محاولة لإسكاتي، وتابعتْ بنبرةٍ هادئةٍ وجادّة:

اليوم حكى (أبو محمود) صاحب البقالة وفهمي الخضرجي مع أبيك.

ماذا يريدان؟

قالا له بأنك كبرت، وبأنّ..

صمتت الأمُ لبرهةٍ، فقالت الابنة

أنّ ماذا؟

أنّ صدرك قد استدار ونضج. إنهما مستاءان من منظرك، وأنت ترتدين الشورت وتركضين في الشوارع مع الأولاد.

... ؟؟!

دلال. لن تنزلي إلى الشارع بعد اليوم، هكذا قرر أبوك. ولن ترتدي الشورت كذلك. تستطيعين توزيع ما لديك على إخوتك.

صُعقت دلال. حاولت التفوّه.

ولكنني يا أمي أحب اللعب، وأحب ارتداء الشورت، ثم ما علاقة...

قاطعتْها أمُها بحزم

انتهى النقاش. بديش أسمع ولا كلمة.

وخرجتْ من الصالة.

تسمّرتْ دلالُ في مكانها للحظة. جرّتْ جسـَدها إلى الحمام وأغلقتْ البابَ عليها بالمفتاح. جلستْ على الأرض وقد بدت عاجزة عن التفكير، وفجأة نهضت، رفعتْ ملابسها لأعلى، نظرتْ إلى جسـدها، تحسّستْ صدرها، لمستْ بكفيها الصغيرتين تلّين صغيرين يرتفعان، يستديران، يكادا ينفلتان من جسدها. تذكّرتْ حين حاول أبو محمود لمسهما قبل أسبوع فلم تتمالك نفسها.. أخفتهُما تحتَ ملابسها وأجهشتْ في بكاءٍ حارّ...

كاتبة من فلسطين مقيمة في عمان

امرأة النور وغلام زمان

سعيد الكفراوي

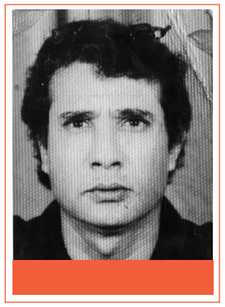

ما الذي فاتني؟ الطفولة؟ إنها أكذوبة الشعر.

لما كبرت وقرأت هذا الكلام، وتأكدت يومها أنه محتاج لمراجعة، لأنني عرفت في لحظة زمن، وكنت يومها بين الصحو والمنام، أن الطفل أب الرجل، وكان عليّ يومها أن أقطع الزمن وأعود إلى هناك.

جميزة تمد فروعها للماء. أمّ وأنا ابنها. وقت بارد من يناير. ونهر صغير يحمل جثث الغرقى، رجالًا ونساء، وفقر دكر يشبه تلك الأيام من أربعينات قرن مضى.

أضيق، وأصرخ وأنا كبير: ارفعوا عن صدري ثقل الأيام وما فات، فأنا غدوت كهلًا، ولا قدرة على الحمول.

والطفل الذي حمّلوه اسمي جاء إلى الدنيا بعد موت حاشد، لذا أطلقوا عليه في الدار «ابن موت».

أطفال ماتوا تباعًا، موتًا عجبًا، وصغار السن. حصدهم الموت مثل شنابر الخيار، ووارتهم أم محزونة كانت تحمل اسم أمّ النبي عليه السلام، وتشد رأسها بطرف طرحة سوداء وتطلق ذلك العديد حتى رزقها الله بولد حمل اسمي، وملامحي، وحظي من الدنيا.

أمّ ولا كلّ الأمهات. سماحة وطيبة وجدعنة مئة رجل.

وارت في التراب سبعة صبيان، وبنات ثلاثا، وأنت جئت مسك الختام. من يومها عرفت اللعنة، وغيروا عتبة الدار بدار أخرى، خائفين من السحر، وحسد الجارة، واشتعلت التعازيم والرقى، سخطوني بنتًا، وألبسوني ثوب البنات، وحكموا على أمي أن تغادر الدار لدار ثانية، وألبسوني ثوب البنات، وأطلقوا عليّ اسم «سعيدة». أتممت عامين وأنا في شكل بنت حتى جاءت صاحبة لأمّي ومدت يدها دون أن تحسب حسابًا ولامست شيئي الصغير، عندها صرخت الجارة: يا نهار أسود، البنت لها بتاع.

ضجت الدار بالضحك، وانهتك سري، وتحولت بقدرة قادر من سعيدة لسعيد، ومن بنت بخصلة شعر سوداء، ولمعة عين رباني، وبسمة تنور مثل شمس الصباح إلى ولد ذكر، فصيح اللسان، خفيف الدم.

كنت أجلس على شجرة أيامها، شجرة جميز عتيقة أرتل آيات الذكر الحكيم، وكانت جدتي «هانم» يسحبها الصوت حتى الجميزة فتصيح بأعلى صوتها:

- لبنى يقرأ المصحف.

ثم تسحبني حتى الغيطان وتلقنني أول المعارف، وأول الحكم، وأسمع صوتها مثل جريان الماء: لولا النور ما كان الظلام، هي حكمة ربك نعرف الحلو من الوحش، وتحدق في عيني وتقول: الرحمة بين الناس عدل والحياة أخرتها الموت، وتواصل: اعتمد على فطرتك في فهم الأمور والزرع في الأجاويد يشيل بعضه.

نذرت أمي لكي تبعد عين الشر عني، وحتى لا ألحق بأخواتي فرضت على الدار نذرها لسيدي «إبراهيم الدسوقي» ذلك الذي أمر التمساح أن يعيد الغلام الذي خطفه من شاطئ بحر النيل، فأعاده.

وهكذا في كل مولد يأخذوني للزيارة والتبريك عند سيدي صاحب المولد الشهير بالزحمة والبهجة.

كان أيامها عندي 8 سنين، أسير يدي في كف عمي، وزحمة المولد مثل يوم الحشر. جلابيب بلدي وجلابيب أفرنجي، طواقي وعمم وشيلان وتلافيع وأناشيد ومواويل تصدح بالورد والشفاعة، ونسوة مكبوسات بالرحمة ورائحة الشهوة تكبس الأنفاس، والأصوات تأتي من بعيد:

مدد يا دسوقي مدد.. مدد على طول المدد.

الليل بلا آخر، تنورة كهارب النور، والإنشاد حتى عنان السماء.

فجأة وجدت نفسي وحيدًا، لا أعرف كيف انفلتّ من كف عمي؟ رأيت نفسي في ساحة بلا أخ، ولعل المولد ليس بدليل، وأنا ضائع في زحمة الخلق مثل غريب، والخيام شبه واحد.

بكيت عجزي وقلة حيلتي، والميدان يضحك بالموسيقى، وصخب الأصوات، والكهارب تحيل الليل إلى نهار.

كأنني أطل على حلم، أو آتي من الجنة!

جاء رجل على مسرح وصاح في الجميع: - قرب قرب.. شاهد وشوف.. مرة واحدة في حياتك.. ست النور.. ست البهجة.. ملها سن مثيل.. ست بتنور لوحدها.. بتنور ببركة الدسوقي.

شدني الكلام وقربت. ورأيتها تخرج من وراء الستارة كملاك، مثل بدر 14، كان عريها حرًا، وبدنها الأبيض مثل فلقة القمر، وضع الرجل المصابيح على جسدها فأنارت الدنيا بنور تاهت مني مصادره، كأنها معجزة وأنا أخرج من متاهة الوقت وأتبع حتى خط آخر العمر، وأسمع صدح الموسيقى حتى أصبحت هذا الكهل أشيب الشعر الذي قرأ يومًا عن الرجل الذي اقترح على نفسه مهمة رسم العالم فرسم الفضاء بصور الممالك والجبال والخلجان والسفن والأسماك والمنازل والأدوات والكواكب والخيول والنمور، وقبل أن يقضي نحبه اكتشف الرجل متاهة الخطوط الصبور التي دأب رسمها إنما كانت هي وجهه.

كاتب من مصر

بشرى مصطفى

مشاهدة الموت

سعيد خطيبي

صيف 1996 لم يكن عادياً، فقد انتقلت فيه دول من «العبودية» إلى التّحرّر، ودخلت فيه الجزائر مرحلة العدمية القصوى. لم يكن صيفاً ساخناً، لكنّه كان مضطرباً سياسياً، بدأ مع التّوقيع على دستور جنوب أفريقيا الجديد، الذي أنهى زمن الأبارتيد، أو التّمييز العنصري، وانتهى مع سلسلة من المجازر في الجزائر، بدأت مع واقعة ذبح الزّهبان السّبعة في دير تبحيرين (حوالي 80 كلم جنوبي الجزائر العاصمة)، في عملية نفذّتها الجماعة الإسلامية المسلّحة، ولم تكشف ألغازها كاملة لحدّ السّاعة، واستمرت مع قتل أسقف كاتدرائية وهران بيار كلافوري (1938-1996)، كان صيفا للبشاعات، ولم يكن التّلفزيون الرّسمي اليتيم آنذاك يقوم بواجبه الإخباري كاملاً، كان يصرّ على تعتيم الواقع، والأنباء الدّامية كانت تصل إلى آذان النّاس سواءً عبر محطات إذاعية فرنسية أو مغربية، أو عبر المجلات القليلة التي كان يسمح لها بالتسويق في البلد، أو عن طريق «التليفون العربي»، أي بتناقل أخبار ما يحصل شفويا بين النّاس.

كنت في سنّ الحادية عشرة، وقد أنهيت حفظَ أكثر من نصف القرآن، وأتممت المدرسة الإعدادية، منتقلا إلى المرحلة الإكمالية، وحصل، في ذلك الصّيف، أن نلت فرصة للمشاركة في مخيّم للأطفال، في مدينة شمالية ساحلية صغيرة، كانت تقع على الحدود مع المغرب، ولا تبعد عن وهران سوى بحوالي 100 كلم.

كان أكبر حلم لأطفال جنوب البلد، ومن كانوا في سنّي آنذاك، هو قضاء إجازة في مدينة ساحلية، فالجزائر حينها كانت قد دخلت حرباً مفتوحة مع الجماعات الإسلامية، التي كانت لا تستثني أحداً من ضحاياها، كانت تقوم بعمليات أشبه باستعراض عضلات، بقطع رؤوس مدنيين، من نساء وأطفال، مع إصرار في كلّ عملية إرهابية على أن تترك اسمها على الحيطان، مع رسائل تهديدية للسّلطة، كانت تكتب بدماء ضحاياها.

في البدء، الوالد لم يوافق ولم يرفض فكرة ذهابي في مخيّم، الشّيء الذي اطمأنّ له أن واحداً من منشطي المخيّم كان من شباب الحي، كان يكبرني بأكثر من عشر سنوات، أوصاه بأن ينتبه إليّ، وفي اليوم الموالي، في حدود السّادسة صباحاً، كنت أحمل على كتفي حقيبة صغيرة، وضعت فيها بعض الملابس والأكل، مستعداً للذهاب إلى مدينة ساحلية تبعد حوالي 800 كلم عن مدينتي الجنوبية، في زمن كان فيه النّاس ينامون ويستقيظون على أخبار القتل والموت والذبح.

كنّا حوالي 60 شخصاً، أطفال ومنشّطون ثقافيون. تجّمعنا أمام مقر الجمعية المشرفة على المخيّم، في الضّاحية الشّرقية من المدينة، البعض كان يجلس على الأرض وآخرون يستندون على حائط، في انتظار الحافلة، التي كان من المفترض أن تصل على الساعة الثّامنة، لتنطلق نحو البحر. لا حديث بين الأطفال سوى عن جمال المدينة التي كنا سنقضي فيها عشرة أيّام. أحدهم كان يسألني: هل تحمل معك نقود جيب كفاية؟ لماذا؟ ربما سنذهب إلى وهران ليوم أو نصف يوم، قال لي. أنا أعرف بيت الشّاب خالد، أضاف. «وهران» كانت عنواناً للمدينة الحالمة، مدينة الرّاي والفرح واللهو. أخبرته بأن معي بعض الدنانير، لا أكثر، وسأحاول أن أقتصد في المصروفات لمرافقتهم!

تجاوز الوقت الثّامنة، وارتفع الضّجيج في المدينة، والحافلة لم تصل. هل تأخّرت وفقط؟! لا بأس، لم يكن أمامنا سوى الانتظار. لكن الأمر ليس تأخرا، فقد جاء واحد من المنشطين الثّقافيين وأخبرنا أن سائق الحافلة الذي اتفقوا معه قد غيّر رأيه ولن يذهب. لماذا؟ هو خائف من أن نقع في حاجز أمني مزيّف! واحدة من أساليب الجماعات الإرهابية، في جزائر تسعينات القرن العشرين، كان تقوم على نصب حاجز أمني، يرتدي فيه الإرهابيون زيّ العسكر، يوقفون المركبات في الطّريق، لنهبها، أوللتّدقيق في هويات الرّاكبين، واعتقال أو تصفية من يشغل منصباً عسكرياً أو إدارياً سامياً.

- إذن، ستلغى الرّحلة! فكرت. لن أذهب إلى البحر. وسأعود إلى رتابة الحيّ الشّعبي الذي كنّا نسكن فيه.

تحوّل الجوّ العامّ بين الأطفال من فرح إلى عبوس. شعروا بقنوط. لم يستمر الأمر طويلاً، فقد توصّل رئيس الجمعية إلى فكرة لإنقاذ الموقف. أحضر شاحنتين، لنقل البضائع والغنم وكلّ شيء آخر، واتفقا معهم على نقلنا إلى وجهتنا، مقابل أن يدفع

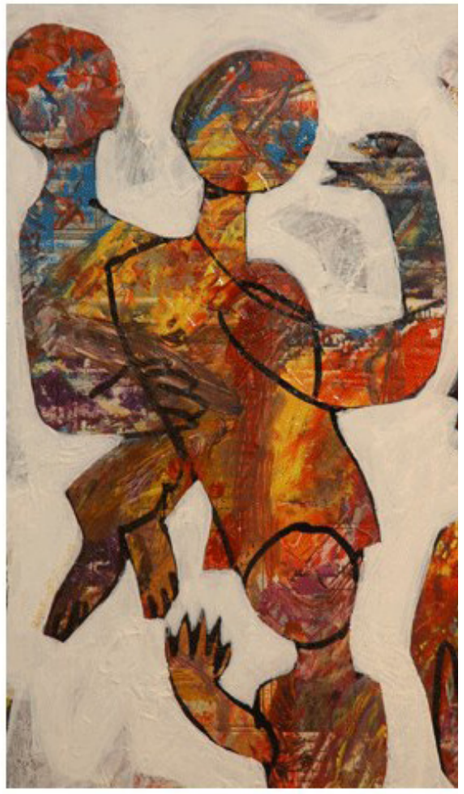

فادي يازجي

لهما عمولاتهما كاملة، مع بعض البقشيش.

هكذا انقسمنا إلى مجموعتين، وقطعنا 800 كلم على متن شاحنتين، في رحلة استمرت يوماً كاملا، فلم نصل إلى وجهتنا سوى صباح اليوم الموالي.

في النّهار، لم تكن الحواجز الأمنية، على الطّريق، «مزعجة»، كانت الشّاحنة تخفض من سرعتها أمام كلّ حاجز عسكري، يطلّ السّائق برأسه ليجيب على بعض الأسئلة، ثم يواصل الطّريق. في الليل، صارت الحواجز «مرهقة» ومذلّة أحياناً، كنا كلّ ساعة تقريباً نتوقّف، ننزل جميعاً، ليفتش العسكر حقائبنا، ونجيب على أسئلة مكرّرة: الاسم، اللقب، اسم الأب، اسم الأمّ.. إلخ. مع ذلك، كنّا محظوظين، ولم نصادف حاجزاً مزيّفا، لم نقع في يد «هذوك» أو «أصحاب اللحية» كما كان النّاس ينعتون الإرهابيين.

وصلنا أخيراً إلى البحر، على صوت المغني الشّاب حسني (1968-1994)، الذي سيصير رمزاً لجيلي وللجيل الذي سبقني، خصوصاً بعد نهايته التراجيدية على يد الإسلامويين. كانت رائحة البحر أقوى من رائحة الدم الذي كان يصبغ وجه البلد.

بعد ساعة من وصولنا، ورغم تعب يوم كامل من السّفر في شاحنة بضائع، كنت في الماء أسبح، فلا همّ لي وقتها سوى السّباحة، كنت أسمع، مثل الكبار، عن القتل وعن قطع الرّقاب، لكني لم أكنت أستوعب الأحداث كما يجب، كنت أتعامل مع الواقع ببعض اللامبالاة، كنت تهمّني نتيجة فريق الكرة المحلي أكثر من عدد ضحايا مجزرة ما، كان الموت أمراً مبتذلاً، لهذا فقد كان النّاس يتحدّثون عنه كما لو أنه شيء عادي.

مرّت الأيام الثّلاثة الأولى طبيعية: سباحة، في النّهار وتسكع في الليل، ومشاغبات بريئة في التلصص على عاهرات يأتين للاسترزاق أمام فندق قريب من المخيّم. وبعد أربعة أيام انتشر خبر رهيب في المخيم: لقد ذبحوا ستة عشر شخصاً، في قرية (س)، التي لم تكن تبعد عن مكان المخيّم سوى ثلاثين كيلومترا. آخر قال إن عدد الضحايا ثمانية عشر. في راديو مغربي شهير كنّا نستمع إليه باهتمام قالوا: ثلاث عشرة ضحية. ثلاثة عشر شخصاً قطعت رؤوسهم! وانقسم المشاركون في المخيّم إلى جزأين: جزأ أوّل قرّر العودة من حيث أتى بسيارات الأجرة، تجنباً لسيناريو محتمل بأن يصل الإرهابيون إلى مخيمنا، وجزء فضل البقاء، وكنت مع الباقيين، الذين قضوا ما تبقى لهم من أيام في خوف. حينها طرأ سؤال كان يتداوله الأطفال بسخرية، ولكنه يعبّر عن حجم المأساة: هل تفضّل أن تموت بطلقة رصاص أم بقطع رأسك؟ كما لو أن الجميع كان متفقا على اقتراب الموت، وليس لهم سوى اختيار الطّريقة التي ستنتهي بها حياتهم! كان الموت لا يبعد عنا سوى كيلومترات، ونحن ندّعي الحياة، بالسّباحة ومواصلة التّلصّص على العاهرات اللائي قلّ عددهن أمام الفندق بعد المجزرة.

لاحقاً، حين عدت إلى مدينتي الجنوبية، كانت الألسنة تتحدّث عن مجزرة قتل فيها سبعة أشخاص من عائلة واحدة، في يوم زفاف ابنهم، الذي كان عسكرياً!

كان صيف 1996، عتبة أولى للتّساؤل عن الموت، لمشاهدة الموت يدنو ثم يبتعد، لتخيّل الحياة لحظة الاحتضار، وللتساؤل لاحقا عن جذور العنف الإسلامي. كيف يقطع مسلم رقبة مسلم آخر بدم بارد! بعد أسابيع من ذلك، ذهبت إلى المدرسة الإكمالية، وهناك صادفت أطفالا أكبر سنا منّي، كانوا أكثر فهما بما يحصل، دردشاتنا كانت تدور حول مخلفات العنف الإرهابي، وطيلة سنوات عمري القصير، ما يزال شبح الموت في جزائر تسعينات القرن الماضي، برصاصة أو بقطع الرّقبة، وما رافقه من أسئلة، يُصاحبني حيثما ذهبت. سؤالي الأهم: كيف وصلت الجزائر إلى ما وصلت إليه من عنف غير مسبوق؟

كاتب من الجزائر مقيم في أوكرانيا

سحر السينما

سلام إبراهيم

حاولتُ وَلمْ أستطع، حاولتُ.. وحاولت دون جدوى، ماذا أفعل لنفسي؟.. قوةٌ مجنونةٌ تجذبني رغم عزمي الشديد على عبور الباب العريض المفتوح المضيء بالصور والوجوه والمجسمات في إعلانات تزين جدران المدخل والواجهات، حسناوات يقطرن حلاوة، مسدسات تدور بين الأصابع، و.. وحقول مشتعلة بالخضرة تعانق الآفاق. عشاق يتعانقون في الخلوات..، دخان معارك، وغابات وأغان ومعارك بالسيوف، بالدبابات. بابٌ يؤدي إلى ظلمةٍ وعالمٍ يجعلني أحلم لأيام وليالٍ. عالمٌ ساحرٌ ينسيني عقوبة الأمس القاسية، ويتداخل مع عالم دكان الحلاقة الساحر الذي يلقيني آخر النهار مخدراً بقصص المدينة وما يحدث في الخفاء والذي أسمعه من أفواه الزبائن فتصيبني الدهشة، حالماً أنسى كل شيء وأجدني أخطو لتحتويني الباحة المضيئة وصوت أم كلثوم الصادح قبيل العرض، أسير على مهلٍ نحو بوابة الصالة مخدراً بروائح السينما وعيون الممثلين المحدقة نحوي والمنبثقة عبر زجاج صناديق العرض الدعائية التي تملأ الباحة العريضة. لا احتاج قطع تذكرة، فجميع العاملين يعرفونني فقد أوصاهم «حمد» صاحب السينما وهو يقودني من يدي ويطلقني في فضاء صالة العرض قائلا للبواب «حسين»:

- سلام يدخل وقت ما يريد مفهوم!

- صار عمي!

عبرتُ العتبة. تلمّستُ أقرب كرسي وجلست، فالصالة أعتمت حال دخولي، لأغوص في بحر الشاشة الغاصة ببشرٍ يبغون مقاصدهم، يحبون ويتباغضون، يولدون ويموتون في الحقول، على ضفاف الأنهار، في الأحياء الفقيرة، في الثلج، والحر والجبال وعلى البغال، في الحرب والسلام. أغوص حالماً وكأنني أعيش معهم.. معهم إلى لحظة انفجار الضوء الصلد المعلن نهاية العرض، الضوء الطارد أحلام المخيلة، الكاشف كذبة حائط القماش الأبيض المؤطر بحاشية سوداء رفيعة. الضوء الملعون الذي يدفعني إلى الممرّ المرتفع حتى باب الخروج، إلى الرعدة والظلمة، إلى رعبٍ مركّبٍ من مخاوف وتحذيرات أمّي وأبي من رجالٍ كبار قد يسخّمونَ وجهي. تصورته شيئاً فظيعاً.. سأدرك لاحقاً ما يقصدون بالضبط. أهرع حذراً متوجساً أبتعد عن رواد السينما، أسلكُ فروعاً تفضي بي إلى منافذ يسكنها الظلام والصمت وظلال مصابيح أعمدة عالية باهتة الإضاءة، أعيش هذه المخاوف طوال الطريق الممتد حتى شارعنا. وما أن أطأ بقدميّ المرتعدتين ترابه حتى تهجم عليّ مخاوف مختلفة، مخاوف كل ليلة تزداد وتتوحش كلما اقتربتُ من باب دارنا الخشبي العتيق الواطئ، فخلفهُ تكمن محنة الليلة، سيستيقظ أبي رغم سكره، سيحتد غضباً، سيهرع حيث يخبّئ عصاه، ستلسعني ضرباته الكاوية، التي تشتد كلما أمعنتُ بصمتي، إذ لم يعد يصدّق بأني كل ليلة أتأخر بسبب السينما كما أدعي. سيستعر غضبه فيشدد ضرباته مكرراً:

- وين كنتْ؟ كل ليلة تتأخر وين كنت؟.. قول بالسينما.. قول يا ابن الكلب.. قول؟!.

-...!.

ماذا سأقول.. ماذا؟ وهو سلفاً لا يصدق أين كنتْ؟!

وقفتُ طويلاً تلكَ الليلة في سكونِ الشارعِ أمام بابنا المسدود، كان الشهر رمضان وجارنا نائب الضباط الورع «أبو محمد» بدأ بصوته الرخيم يردد أدعية انسابتْ في العتمة والسكون صاعدة نحو مصابيح السماء وروحي، أدعيةً جعلتني ألبث في وقفتي أمام الباب متخيلاً وجهه بلحيته الشيباء وقسماته المسالمة، وعينيه الحزينتين المناقضتين لعيني أبي الجاحظتين، الواسعتين، اللتين تقدحان ناراً عند الغضب. صوته اللاهج بالخشوع هدّأ قلبي وجعلني أختصر المحنة ولا أبالي لشيء. فكرتُ مع نفسي وقتها، وكان ذلك أول بادرة لتمرّدي اللاحق الذي قادني من تشرد إلى تشرد حتى وجدت نفسي في بقعة من أرض غريبة تجاور القطب دون أهلي وأحبابي وأمكنتي الحارة، فكرتُ وأنا أتأرجح على حافة الغفوة من تعب النهار الطويل:

- ما حاجتي إلى الدخول، فالليلة صيفية رائقة، سوف يستيقظ أبي حتماً ويذيقني عصاه في غرفتنا الوحيدة كي لا يوقظ إخوتي، وستنقذني أمّي في آخر لحظة! سوف لا يفهم أبداً.. أبداً سحر الشاشة البيضاء ولا يصدق أنها تجذبني كل ليلة.. لا يصدق وأنا لا أستطيع!

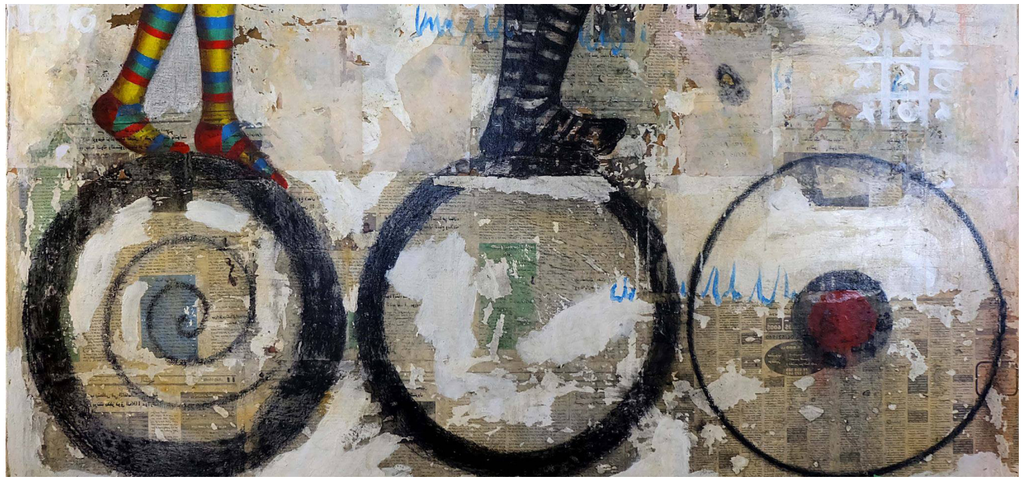

شادي أبو سعدة

تحسستُ ظهري المتورم من عقوبة الأمس، ورجعت من حيث أتيت مفتشاً عن موضع صالحٍ للنوم، وفي منحدر جوار استدارة محلتنا التي كانت نهاية الطرق المعبدة بالمدينة وجدت فراشاً ترابياً ناعماً أسفل المنحدرِ. سويت مكانا بكفيّ يسع لطولي واستلقيت محدقاً بالنجوم المنثورة بكثافة في عمق السواد العظيم، وعلى إيقاع غمزات ضوئهن غفوت حالماً بـ«عنترة بن شداد» يخوض الصعاب والحروب في تيه الصحراء ويقتل أشرس الأعداء لينال حبيبته «عبلة» الضاحكة دوماً. كانت لحظة فريدة لم أنسها طوال العمر، لذة ما بعدها لذة. النوم في سريرٍ من تراب دون عصا، دون تقريع وإذلال. حتى الآن لم أجد فراشاً أنعم من ذلك الفراش المبذول، ولم أجد لذةً كلذة تلك الغفوة في شارع ومنحدرٍ يشكّل ما يشبه المخبأ. تراب ناعم وأحلام وخيال وغفوة لا مبالية كانت عتبة لحياة المغامرة والتشرد التي خضتها لاحقاً.

وكأنني في حلمٍ انحنتْ على غفوتي امرأةٌ جليلةٌ بثيابها السوداء ورائحتها الأليفة المسكرة، جعلت تربت على خدي بأصابعها الحانية ربتاً رفيقاً، ثم هزتني من كتفي وهي تنادي همساً في الظلمة والسكون:

- يمه.. يمه.. أكعد..أكعد يمه.. ليش.. ليش نايم هنا، ما عندك بيتْ.. ليش؟!

كمن كان في قفرٍ موحشٍ شديد الوطأة ارتميتُ بين اليقظة والمنام إلى حضنها غاطاً في عبق رائحتها القديمة المعجونة بكياني، تعلقتُ برقبتها باكياً.. باكياً، شاكياً أردد مفردة واحدة بمرارة:

- يمه يا يمه.. يمه يا يمه!

أرددها مختنقاً بعبراتي. أتذكر بوضوح عباءة أمي شديدة السواد التي لفتني فيها، فشعرتُ وكأنني طيرٌ ضائعٌ وجد ملاذه. أتذكر شكل السماء الضاحكة النجوم قبيل الالتئام بحضنها ودفق الأمان من كلامها الرقيق.

الشيء الذي استوقفني وسيكون مفتاحي لاحقاً لبلوغ حرية سمحت لي المغامرة والثورة هو: ردّ فعلهم الضعيف على ترك البيت والنوم في الشارع بالنسبة إلى عائلة لها تقاليد صارمة إذ لم ألمس في كلامها شدةً ولوماً وتقريعاً بل رقةً وتوسلاً وحنواً:

- تعال يمه.. تعال!

تمنعتُ متخيلا أبي يقف منتظراً بعصاه في مدخل البيت فقلت لها متوسلاً:

- اتركيني أنام هنا أحسن!

- لا تخاف يمه.. لا تخاف. أبوك يحبك ويخاف عليك، ما راح يضربك.. ما راح يضربك!

سحبتني صوب بيتنا الذي يبعد قرابة مئة متر. سرتُ بعناء، أكاد أتهاوى من النعاس.

كم بَحِثِتْ في الزوايا والبيوت والشوارع المجاورة حتى عثرت عليّ؟!

وبشيطنة طفلٍ يبدو ظاهراً شديد السذاجة اكتشفتُ مبلغ ضعف الأب والأم إزاء مظاهر التمرد التي يبديها طفلهم. فعند دخولنا ساحة البيت تَصَنّعَ أبي النوم فتعالى شخيره. قادتني إلى فراشي المبسوط جنب إخوتي وأخواتي. غطتني وأسرت لي بهمس:

- لا تخف.. نم ابني نم.. أبوك نائم!.

لكنني لم أنم. لبثتُ أتتبعها وهي تندس جوار أبي. أرهفتُ السمع. كان الصمت مطبقاً، وفيما كنت أشرع في النوم سمعتُ أبي يسألها:

- أين وجدته؟!

كاتب من العراق

شرارة الطفل الخارق

سلام سرحان

شرارة الحدث الأول، التي هيمنت على حياتي وأبقتني طفلا إلى الأبد، هي أيضا الذكرى الأولى منذ هبوطي على هذا الكوكب. كانت نقطة البداية، حيت قالت أمي إن «سلام إيجابي دائما... حتى لو وضعته في النار يقول إنها جنة».

ربما كان عمري ثلاثا أو أربع سنوات، حين سمعت تلك العبارة لأول مرة، لكنني سمعتها منها آلاف المرات بعد ذلك. لا أدري كم كنت إيجابيا قبل تلك الذكرى الأولى، لكن قيل لي إنني لم أكن أشكو أو أبكي إطلاقا منذ أيامي الأولى.

نشوتي بتلك العبارة، فرضت هيمنها المطلقة على حياتي حتى الآن، وأصبحت بوصلتي الوحيدة. وجعلتني أغالب كل ما يحدث لي وأقاوم بأيّ ثمن إظهار أيّ استياء مهما كان الإزعاج أو الألم.

أصبت كثيرا بجروح بالغة، لكنني كابرت الألم دفاعا عن ذلك الانطباع، الذي شغفت به. أصبحت أتلذذ بانبهار العائلة والأقارب والجيران وبعدها في المدرسة، وباتساع الحديث عن طرائف مواقفي في مواجهة ما يثير الاستياء والألم.

كانت المكابرة شاقة أحيانا وتتطلب أن أطوّر مهارات في التركيز على الإزعاج والألم، لكني كنت أتلقى معونة هائلة من نشوة متابعة نظرات الإعجاب في عيون المحيطين بي.

أصبح الألم واللحظات التي تفترض الاستياء، مخلوطة بنوع مذهل من النشوة. وتطورت تلك المهارة لتصل إلى التحديق بقوة في جوهر الألم، وكأنه كلب ينبح، وينتظر أن أرتجف ليهاجمني إذا بدا عليّ الخوف والاستسلام.

تراكمت تلك النشوات الفريدة، فتلاشت عندي ردود الفعل التلقائية على كل ما يفترض أن يدعو للاستياء حتى لو كان ألما جسديا قاسيا. كنت أحدق فيه وأبحر في ثناياه بحثا عن كيفية حدوثه، فتتسلل إليّ نشوة الشعور بالقوة.

كان المحيطون بي يشعرون بالاستياء تلقائيا من حر الصيف اللاهب أو المطر، فيهربون إلى الظل، فيما كنت أبدي لامبالاتي واستمتاعي، ربما بشيء من المكابرة في البداية، لكنها تحولت فعلا إلى لعبة راسخة.

أصبحت فعلا أسيطر على الألم وأجد فيه موضوعا للتأمل، لكن متعتي الكبرى كانت فيما أصبحت أوفره للمحيطين بي من قصص يتداولونها عنّي وكأنني طفل خارق.

كانت قصص عدم اكتراثي بالألم وعدم استيائي من أيّ شيء، تستأثر بحصة كبيرة من أحاديث العائلة والجيران والأقارب والمدرسة، وبدأت أفلسفها فتجد حكاياتي صدى طيبا لدى كثيرين، ويحاول البعض تطبيقها بدرجات متفاوتة.

دفعت بعض الثمن أحيانا، حين كان بعض أخوتي وأصدقائي يتراهنون على إزعاجي، وكنت أدفع الثمن، حرصا على نشوة أن أراهم يفشلون في إيصالي إلى الاستياء الشديد. أحيانا أعجز عن الصبر على مضايقاتهم الجسدية، مثل ليّ الذراع، فأسارع للتفلسف وإيجاد مبررات تحفظ صورتي لديهم.

كبرت لعبتي السرية وبلغت ذروتها حين تعرضت لحادث سير مروّع، أدّى لغيابي عن الوعي لمدة شهرين، وقيل إني فارقت الحياة وأن قلبي توقف فعلا، لأن أحد الجروح قطع الشريان الأبهر في الرقبة.. أي أنني ذبحت فعلا.

يقول شهود الحادث أن الطبيب أكد أنني ميت حين تم نقلي إلى المستشفى، لكن أحد الأقارب أجبره بغضب شديد أن يخيط الجرح ويعطيني دماء، وحين فعل ذلك، عاد قلبي لضخ الدماء تدريجيا.

بقيت في السرير 6 أشهر وانتصرت على آخر المشككين بقدرتي على التحكم بالألم. كانت نشوتي من انبهار الجميع، تعوضني عن مقاومة الألم، الذي كنت أفقد السيطرة عليه أحيانا.

حين انقضت سنوات الطفولة وكبر محيط الأشخاص الذين تتقاطع حياتي معهم خمد جانب كبير من لعبتي السرية التي بقيت هناك في محيط العائلة والأيام الأولى.

لم تعد خفايا لعبتي تظهر للآخرين، إلا في بعض الحلقات الصغيرة من الأصدقاء، وأصبح الظاهر منها قليلا جدا ويثير حكايا واستغرابا أقل، لأني لم أعد طفلا، من وجهة نظرهم فقط! البالغون المصنعون بإيقاع محكم، لديهم توقعات جاهزة ويستغربون أيّ إيقاع وردود أفعال لا تناسب توقعاتهم، لذلك كان عدم اكتراثي للظروف القاسية، يثير أحيانا غضب البعض،

عمر قيد

في أوساط يعمها الاستياء الشديد خلال سنوات الحرب في ثمانينات القرن العشرين.

وقد حاول كثيرون افتعال مشادات معي، فقط لأنني كنت مبتهجا دائما وقادرا على الخروج من أيّ مأزق، بفضل عدم ارتهاني لردود الأفعال الجاهزة، الذي مكنني من التوازن على جميع الحبال المشدودة، وكان ذلك يثير غضب البعض.

تعرضت لمواقف حرجة بالمعدل الذي تعرض له معظم العراقيين، في تلك الأيام الشاقة، لكن ردود أفعالي الخارجة عن التوقعات مكّنتني من الإفلات من قسوة النتائج.

في فترة الخدمة العسكرية الإلزامية كنت في وحدة حسابات مالية في بغداد، حين تم إرسالي إلى جبهات القتال لمدة شهر لمعايشة أجواء الحرب، وهو إجراء يشمل جميع العسكريين خارج الوحدات القتالية. كنت أقوم بواجباتي في جبهة القتال دون استياء والابتسامة تعلو وجهي، إلى أن أخبرني أحد المقاتلين، أنني قد أتعرض للغدر، ولن يعرف أحد من أين جاءت الرصاصة.

أخبرني أنه سمع بعض المقاتلين الغاضبين يتوعّدونني لأني أبدو مبتهجا، وخاصة أنني كنت أفتح كتابا لأقرأ حين تطلق مشاعل التنوير في الأرض الحرام. نصحني بأن أقطّب وجهي وأعبّر عن مواساتي لهم على الظروف القاسية التي سيواصلون مواجهتها بعد انقضاء أيامي المعدودة هناك. ففعلت ونجوت.

تلك اللعبة والمران، أوصلاني إلى سلطة كبيرة على جسدي استمرت حتى اليوم، وأصبحت قادرا على الانتفاض وزجر أيّ ملامح أولية للمرض، ولا أذكر أنني استسلمت لمرض طوال حياتي.

أصبحت أثق بوسائلي وقدرتي على مواجهة أيّ مرض أو تعب أو ضعف، ومازلت أستغرب استسلام المحيطين بي للمرض. وكثيرا ما درّبت بعض الأصدقاء على كيفية دحره، وكانت استجاباتهم متفاوتة، وأكثرها نجاحا مع ابنتي، لكن ليس بالدرجة التي لديّ.

تلك الشرارة التي أطلقتها أمي منذ أيامي الأولى هيمنت أيضا على حياتي الثقافية، فمنعتني من ذكر الألم أو أيّ نوع من الضعف في كتاباتي، إلا بالمعنى المضاد والوجودي الإيجابي. كما منعتني أيضا من قراءة أيّ كتاب واقعي، لا يحاول توسيع وكسر حدود وجودنا الضيق والبحث في آفاق لانهائية.

ذاكرتي كانت على الدوام انتقائية ومثقوبة ويفلت منها الكثير من الحوادث الفريدة. أحيانا يروي بعض أصدقائي المقربين مثل علي السوداني ومنذر عبدالحر وفاروق يوسف وعلي جبار، حكايات طريفة تتصل بمواقفي الخارجة عن التوقعات، فلا أجدها في ملفات ذاكرتي.

تدريجيا توارى هذا السر الكبير عن الأنظار، ولم يعد يعرف به سوى محيط طفولتي الأول وعدد قليل من أصدقائي المقربين، لكن الشرارة التي أطلقتها أمي بتلك العبارة لا تزال تتوهج وتمنحني لذة لا تعرف الانطفاء.

مازلت ذلك الطفل الخارق الذي صنعته أمي بتلك العبارة.

شاعر من العراق مقيم في لندن

صفحة من حياتي

سميحة خريس

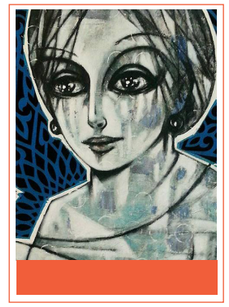

عام 1967 كُسر إيقاع الحياة كلها باحتلال فلسطين، كنا جيلاً يتحمل فوق طاقته، رغم بصيص الأمل الذي يعدنا بالنصر.

لم تكن إجاصة القلب قد نضجت واحلوّت بعد، ولكنها انفطرت بضياع البلاد، الواقع الأليم الجديد بكل ما خالطه من إيمان بأنه حال مؤقت واختبار لإمكانيات العروبة التي نؤمن بها كما إيماننا بالله يفرش مساحة قاتمة على طفولتي، فَوَّتُّ على نفسي التمتع العميق بما تحفل به طفولتي من فرص مغايرة ومختلفة، في الحادية عشرة من عمري أخربش بلغة بسيطة ما أسميه شعراً عن الوطن، ثم في صبيحة يوم جاء أشبال فلسطين لزيارة الدوحة حيث نقيم.

كانت منظمة التحرير الوليدة تهيئ جيلاً من الأشبال لاسترجاع الحق الضائع، جاؤوا في مهمّة رسمية تتلخص في جمع التبرّعات للمنظمة، وارتبك إيقاع حياة الأسر العربية، وهم يهيئون للمعرض المنتظر، كَلّفت مجموعة من البنات (كنت بينهن) للقيام بواجب الاستقبال في المعرض وتوزيع وردات من البلاستيك على الداخلين، وأعددت لهذه المهمة السامية بتعيين مكان وقوفي، مرتدية ثوباً خاصاً، جوارب «هيلا هوب» بيضاء طويلة تدخل من أصابع قدمي حتى الخصر، وفانلة قطنية بيضاء ضيقة بأكمام طويلة، كما ربط في وسطي جمع من الكشاكش البيضاء المنفوشة المصنوعة من ورق الكروشيه، كان الزيّ مرعباً، لا يليق بي وجسدي يتمرّد على الطفولة. اصطففنا يوم الافتتاح نحيّي الداخلين، ثم فجأة؛ رأيته. دخل الأشبال في خطوات واثقة محيين الجماهير تحية عسكرية، ارتفع صوت التصفيق، وسادت النشوة، ولم تفارق عيوني الفتى الأسمر الذي يتقدم بوجه جاد وابتسامة خفية، إنه أجمل من أن يكون حقيقياً، بثيابه المرقطة كأنه قادم من فلسطين للتو.

علق اسمه الحركي في القلب بللاً يروي بتلة زهر تتفتح.. غيفارا.. اسم حاد فج غامض، لا يشبه الأسماء الرائجة، أعرف أنه ليس الاسم الذي أسماه إياه أبواه، ولكنه الاسم الذي اختارته الثورة، ولا يجدر بي عشق اسم سواه، العالم يهتز كما هديل الحمام. وأنا؛ أحب، القلب الطفل الجاهل البكر؛ يحب.. أحب غيفارا.

تمردت على ثوب البجعة الكريه في الأيام التالية، ارتديت فساتين تجعلني أبدو أكبر، تصرفت مثل معتوهة حين وقف قربي يجمع التبرعات، فخلعت سلسلتي الذهبية ووضعتها في صندوقه، كأني ألحقها بالقلب الذي فرّ وخرّ عنده.

مساءً؛ أنّبتني أمي على التفريط بالسلسلة، قالت إن عائلتنا تبرعت بما يفوق قدرتنا، وإن فعلتي سفه أعاقب عليه، لكني لم أتوقف كثيراً عند غضبتها، فأنا عاشقة صغيرة لاهية في ملكوت الشعور الوليد الماتع الذي يذيب الروح. ذلك المشهد الذي علق في الذاكرة انبعث ليكون مشهداً في روايتي «دفاتر الطوفان» حين تتبرع البنت الصغيرة بأساورها للثوار.

حلمت أن غيفارا يجتاز النهر ليقوم بعملية فدائية ضد المحتلين، وإنه يعود شهيداً، فأبكيه ويكتشف العالم أني حبيبة الشهيد، أحببت أن أكون حبيبة الشهيد في حكاية خرافية تفوق حكاية قيس وليلى، ولكني لم أقو على النظر للفتى في عينيه، ناهيك عن محادثته أو الإفصاح عن حرائق القلب لأيّ كائن على وجه الأرض، وانتهت ليالي المعرض وسافر الأشبال.

بعد أيام وصلتنا صحيفة كتبت عن جولة الأشبال خبراً موسعاً، في الصورة المرفقة الشبل غيفارا يقف بقبعته باسماً ناظراً إلى الأعلى، يكاد يغمى علي وأنا أقصّ الأطراف بحرص، أدس الصورة في كتابي، ثم أصنع لها جيبا خاصاً من الكرتون حتى لا تنثني ولا تفسد، وأضعها تحت المخدة، أنام فوقها؛ أسفح دمع العشق الأول احتراقاً واشتياقاً لمجهول، وتقوم الطامة في بيتنا حين يُعثر على الصورة ترقد تحت الوسادة، صاح أخي: صورة ولد تحت المخدة.

تناول أبي الصورة وأمعن النظر فيها، نظر إليّ: هذه من جريدة! ثم إلى أخي: لا تتدخل في ما لا يعنيك.. صورة أعجبتها.. عندها ذوق.. غيفارا مرة واحدة!

راجعت نفسي كثيراً حول موقف أبي الضاحك الذي شابته سخرية مرحة. بالقطع ليس الفتى العابر الذي جعله يغفر لي ويطرب لمشاعري، ماذا يعني اسم غيفارا؟.. لم أكن أعرف أين تقع أميركا اللاتينية ولا الأرجنتين، ظننتها ضيعة من ضيعات فلسطين، بحثت فاندلق غيفارا الكبير أمامي سيلا من فتنة محملة بالبطولة والرجولة والكرامة والنضال، غيفارا.. الحب

شادي أبو سعدة

الأول.. الذي ما زلت أبحث عنه في كل وجه بلا جدوى.. كبّلني بوسامته وسيرته وتاريخه بمقاييس لا سبيل إلى تحقيقها، وكلما تقدم بي العمر؛ وقرأت أكثر عن المناضل وما له من كتابات إبداعية وفكرية، ازددت قناعة أن النبض الأول للقلب لم يخطئ الدرب، وعرفت كم ظلمت هذه المقاييس الرجال الحقيقيين الذين التقيت بهم. وكم أفسدت عليّ صورته البهية أنماط الثوار والحكام والمفكرين.

تغيرت الحياة كثيراً مذ ذلك اليوم، ولكني لم أتغير، ما زلت أبتلع ريقي وأمسك دمعتي كلما سمعت المغنية الفرنسية نتالي كاردون تصيح: معك إلى الأبد.. تشي غيفارا.

كاتبة من الاردن

صورة على الجدار

سهير المصادفة

ما الذي يجعل لحظة بعينها ماثلة أمام أعيننا طوال حياتنا، ندور حولها، ونسبر عمقها في أيامنا، ونتذكر أدّق تفاصيلها، وتنتابنا الرعدة نفسها خوفًا أو حبًا أو حنينًا لها! تتكاثف رائحتها رغم توغلها في الزمن، وتتقاطع ظلالها فوق رؤوسنا وتنبعث من أرجائها موسيقى خاصة تظل تتردد في فضاءِ مسائنا. وإذا ما استمعنا إلى ما يُشبهها فجأة حتى لو كنا في الهند أو السند أو بلاد الواق واق، نتوقف في الحال عن السير إذا كانت خطواتنا تغز السير نحو سباقٍ ما، ونصحو من نومنا الهانئ إذا ما كنا نيامًا ونتأمل هذا اللحظة التي تقفز فوق لحظتنا الآنية ناصعة الوضوح.. قد يكون هو كل ما تبقى من سنوات طفولتنا.. مجرد جدار قديم معلقة عليه صورة زعيم يهطل منها لون أسود تتشخ به إذ فجأة البلاد ـ ولا نفهم آنذاك لماذا ـ وتنبعث منها ترنيمة خافتة وشجية إلى أقصى الحدود، وعلى الرغم من أن ملايين الجموع ترددها إلا أنها تغيبُ في همسٍ آسرٍ.. الوداع ياااا جمال يا حبيب الملايين.. الوداع.

كثيرة هي اللحظات الأولى التي حفرت خريطتها الواضحة في أرواحنا وجعلتنا نكتشف مَنْ نحن ومَنْ سنكون تحديدًا ولو بعد تسعين عامًا، هذه اللحظات الأولى أبث أن يجرفها النسيان أو تشوشها لحظات مُتشابهات، وظلت أمام ملايين الدقائق المُتعاقبة تُكرّر بهدوء: ها أنا أمارس خلودي الخاص.

كان طلاء غرفتي الأولى المعلقة عليه صورة جمال عبدالناصر متهالكًا وضائعًا في عدة ألوان تميل جميعها إلى الاصفرار، كنت أرى على صفحة هذا الجدار كلابًا شرسة، وملوكاً تُكلل رؤوسها تيجان غريبة الشكل لم تستطع البشرية تصميمها فيما بعد، وأتابع بشغف هروب طفلة مُعفرة الجديلة تشبهني تمامًا يعدو خلفها رجل عملاق ذو لحية بيضاء، كان إخوتي الصغار يضيفون كل يوم ما يصلح لأن يكون عينَ نسر أو قمرًا مستديرًا فيزداد ثراء المَشاهد.. من غرفتي الأولى هذه، ظل أوّل ما يلفت انتباهي في أيّ غرفة جدرانها.

كانت لي على كل حال عينان متمرستان على إزاحة الأثاث أيًا كانت ضخامته وإلقائه بعيدًا وتحرير جدار واحد على الأقل مما يعيق رؤيته.. أزحت كنبة إسطنبولي عملاقة، وصالون ماركة روميو وجولييت، وغرف نوم من موضات متعاقبة وصورًا لقطط قطيفية الملمس وراقصة الكانفاه الشهيرة التي يقعي بالقرب من ركبتيها الطبال بطاقيته الصغيرة وطفل جميل باك وآيات قرآنية مرّصعة بلمعة زاعقة تؤهلها أن تكون مرايا.

ظلّت الغرفة ماثلة دائمًا أمامي وخلفها الحقول التي رغم اخضرارها نهارًا بقيت موحشة شديدة السواد ليلاً مسكونة بكل حكايات الجن والعفاريت والقتلى والمقتولين والأطفال الرضع المرميين في لحظاتِ تخلٍ مؤلمة والخارجين من السواقي والترع بلونهم الأزرق الباهت... قليلة هي الذكريات التي أتذكرها قبل السادسة.. ربما جملة مبتورة لا أتذكر قائلها أو نصف حكاية أو مشهد غارق في عشرات المَشاهد التي تُشبهه، سمعت في هذه الأيام للمرة الأولى: أنني لست طبيعية. صرخت بها أمي في وجهي ويبدو أنها كانت تسألني لساعات عن شيء ما أو تدعوني إلى طعام ما، بينما كنت أتابع على الجدار كيف ستتمكن إحدى الأميرات المحبوسات في برجٍ عالٍ من الهرب من الجنيّ الشرير الذي يحبسها هناك.

تبدل الجدار المُتحرر من أثاثه والمواجه لعينيّ مرارًا، ظلّ لفترةٍ تقترب من السبعة أعوام مجرد جدار زجاجي هو محصلة نوافذ عملاقة ملتصقة ببعضها البعض تصفعها ثلوج موسكو وتتراكم على إفريزها لمدة ثلاثة أشهر كاملة، ثم تذوب بعد ذلك على مهلٍ مشكلة أضخم معرض نحت لتماثيل تعرف جيدًا أن مصيرها الوحيد هو الأفول، ثم صار جدارًا ممتلئًا بمئات الكتب التي يخرج منها كل ليلة مؤلفوها يتحاورون معي أحيانًا ويوجهون لي اللوم أحيانًا أخرى وهم يلهون بكلماتي ولكنهم دائمًا ما يربتون بحنان بالغ عند الفجر على كتفي.

مع تبدل الغرف وتبدل جدرانها ومرور السنوات اكتشفت ببساطة أننا نكاد نُولد هكذا.. على نحو ما سنكونه.. جزءٌ كبيرٌ منا ربما هو الجزء الأهم يظلّ محتفظًا بشفرة خاصة تُحدد هويتنا، فأنا ما زلت أرتعد كلما رأيت حتى على شاشة التلفزيون حشرات صغيرة زاحفة، بينما أتأمل بهدوء الوحوش الكاسرة، ما زلت أرى النخلات العاليات في باحة الدار وهي تزحف إليّ، وما زالت الحكايات والشخوص تتبدل كل ليلة.

علي علي

أو ليس مدهشًا أن ما تغير في استقبالي للعالم هو سقوط بعض القشور.. ربما كانت هي القشور التي سقطت من طلاء غرفتي القديم ونمو قدرتي على إزاحة الحقول والنخلات السائرات والغرف والبيوت والجدران بجميع أشكالها لأتابعَ في فضاء افتراضي شاسعٍ شخوصًا تخرج مني كل ليلةٍ، وأطارد فيه نهاياتِ رواياتٍ من تأليفي أنا.

كاتبة من مصر

ذكريات الطفولة

سهير شكري

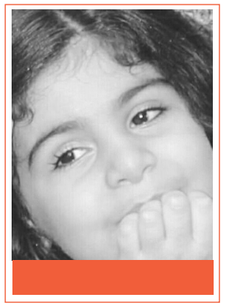

كانت أوامر الحاج سيد أبي أن تكون ساعة النوم وإطفاء الأنوار بعد صلاة العشاء، تغلق كل الأبواب بالمتاريس وندخل الى حجرات نومنا أو قل إلى زنازين اعتقالنا.

وعندما كنت آوي إلى فراشي تدخل أمّي تشدني من ضفيرتي وتقول لي قبل أن تنامى لا بدّ أن تسترجعي كل يوم أعمالك وتسألي نفسك هل تستحقين النوم والراحة ماذا أنجزت هل أرضيت ربك هل قمت بكل ما طلب منك بمنتهى الأمانة.

يطير النوم من عيني كل ما لمس جسدي السرير وأجلس أحملق في الظلام وأظل هكذا حتى الصباح وقد يغلبني النوم وأنا جالسة وحتى الآن كبرت وماتت أمي وجززت ضفائري ومازلت أنام جالسة.

وحينما بلغت العاشرة من عمرى عندما كنا ندخل إلى حجراتنا للنوم بعد صلاة العشاء ولا أنام وأظل جالسة في فراشي أحملق في الظلام تفتق ذهني على أن أضع بطانية ثقيلة خلف شراعة باب حجرتي الزجاجي لتحجب نور المصباح الكهربائي عن الخارج كي لا يراه أبى ويكون مصيري علقة ساخنة وأقرأ ما شئت وجلست أقرأ كتابا في حجم الجيب أسمه اللص الظريف أخذته من بيت جدتي.

في يوم استيقظ أبي ورأى نور غرفتي من عقب الباب ففتح بابي وأسقط في يدى لقد ضبطني متلبسة بخرق أوامره في عدم النوم فى الوقت الذي حدده وقرأت كتابا لم يسمح به هو، ارتعدت أطرافي أمسك بالكتاب وبعد أن تفحصه قام بتمزيقه وألقى به في سلة المهملات وضربني بكفه على وجهى قائلا «تقرئين أدب الشوارع يا غبية.. لك عندي في الصباح عقاب شديد». وخرج وقد نزع البطانية من خلف الباب وأطفا الأنوار.

جلست طوال الليل خائفة وفي الصباح الباكر خرجت إلى مدرستي قبل أن يستيقظ أبي ولم أتناول فطوري وعندما عدت من المدرسة في الظهيرة رغم أني أتضوّر جوعا ادّعيت المرض وأني لا أستطيع تناول الطعام كي لا أجلس على المائدة مع أبي في الغداء كما تعودنا.

فوجئت بأبي يدخل حجرتي وفي يده كتاب النظرات والعبرات للمنفلوطي ويقول لي انهضي لتناول الغداء ولا تقرئي إلا ما أرشحه لك. ورغم أني كنت صغيرة إلا أن الكتاب أعجبني

وبدأ أبي يجلس معي ويناقشني في الكتاب ومن يومها وأنا أقرأ وبسبب ذلك كنت أحصل على أعلى درجات في الإنشاء التي يقال عنها الآن التعبير.

بدأت بعدها علاقتي بأبي تتحسن بعد أن أخذت منحى أوصلني لاعتقاد أني لا أحبه ولا يحبني منذ كنت في السادسة من عمري كنت عندما أحس بوقع أقدامه على السلالم أجرى لأختبئ منه في أيّ مكان قريب كي لا يراني ولا أراه كنت مثل الفأر وهو القط المتوحش المخيف.

وكان للقطط في حياتي تواجد مخيف في كل المراحل فعندما انتقلنا إلى طهطا في صعيد مصر نزلت صاحبة البيت إلى أمي تحذرها وتنذرها بعدم التعرض للقطط بالضرب لأنهم أولادها وكنت في الخامسة من عمري خفت ورأيت علامات الخوف والدهشة على وجه أمي وظللت أتخيل كيف تلد المرأة قططا، وما شكل القطط التي تلدهم المرأة؟ هل وجوههم آدمية ويسيرون على أربع أم على قدمين ولهم ذيل أم لا؟ وهل يتكلمون أم ينونوون وهل يأكلون طعاما مطهوًا مثلنا أم يأكلون العظام والفئران.

وهكذا شغلني الموضوع إلى أن علمنا أنهم في الصعيد يعتقدون أن المرأة التي تلد توأم تسرح أرواحهم في الليل على هيئة قطط، ومن يومها وأنا عندي فوبيا من القطط وأعتقد أنهم إنس في هيئة حيوانات.

وكثيرا ما أشبه الرجال في قصصي بالقطط فعندما كنت في الخامسة من عمرى طلب أبى كوب ماء وأنا في غاية السرور هرولت وأحضرت له الكوب لعلى أحظى برضاه لشعوري أنه يفضل أخي عليّ. فوجئت به يلقى الكوب على الأرض ويسبني ويعنفني لأن الكوب مملوء حتى حافته فتململ ونزلت بعض قطرات الماء على ملابسه شعرت بالخجل والانكسار انزويت منسحبة في حزني الصموت لقد سعيت جاهدة لنيل رضاه فأصابتني لعناته وإذلاله.

طلب أبي من أخي بعد ذلك كوب الماء.. فأحضره مثلى تماما

علي علي

مملوءا حتى حافته.. وقفت أرقبه من خلف الباب كيف سيعنفه مثلي لكنه ابتسم واحتضنه.

وأمي كانت دائما عندما أقع في أيّ غلطة وأعتذر وأبرر ذلك بأنني لم أعرف أن هذا التصرّف غلط هي كانت تسمي أيّ خطا حرام والصح حلال كانت تقارنني بالقطة التي تفرق بين الحلال والحرام.

كانت تردد دائما كيف لا تعرفين الحلال من الحرام والقطة تعرف إذا ألقيت لها بقطعة لحم تأكلها مسرورة وتهز ذيلها شكرا وتتمسح بك أما إذا خطفت قطعة لحم تفر بها وتختبئ خلف المقاعد لتأكلها لعلمها أنها أتت فعلا حراما.

عندما كبرت وخطبني أحدهم ونظرت في عينيه ووجدتهما بلون عيون القطط رفضته رغم أنه لم يكن به ما يمنع الا عيونه.

وفي أول مجموعة قصصية لي.. مع أني لم أدخل عالم الأدب إلا بعد أن بلغت الستين كتبت قصة فأرة وقطط قلت فيها «منذ طفولتي وأنا أشعر أني فأرة صغيرة ضعيفة لا أجيد الاختباء والاختفاء، عندما أسمع صوت القط المنفوش ذي العينين الثاقبتين أرتعد خوفا، لكنى أحيانا أدخل الجحر ويظل ذيلي خارج الجحر فيشدني القط ويكيل لي اللكمات.

كبرت.. ذهبت إلى جحر آخر فوجدت قطا أكثر توحشا وشراسة يعيش بالقرب منّى يمد يده داخل الجحر يشدني من رأسي يوثق أقدامي يقفل باب الجحر عليّ.

أذهب إلى عملي، أحاول أن يكون لحياتي معنى لكني أحاط بقطط أكثر عددا وأفظع توحشا هذا يشدني من ذيلي وذاك يضرب رأسي وآخر يدوس قدمي.. كبرت.. تركت العمل.. لون شعرى تغير.. قدماي تؤلمني.. عظامي وهنت... عيناي لا تبصران جيدا.. وقفت مع نفسى .. هل أكمل حياتي من جحر إلى جحر؟ لقد كبرت ووعيت الدرس. لا بد من المواجهة. من الخطأ أن أستسلم إنه الموت.

طار النوم من عيني . نظرت في المرآة لا بد أن أغير من شكلي أبحث عن هدف يشغلني.. أغير من سلوكي للأفضل ما دمت أحيا.

في الصباح أخذت حمامي ألقيت جانبا بحجابي وضعت باروكة ذات لون كستنائي على شعرى لا بأس فأنا من القواعد لكني لن أستسلم أبدا.

وضعت بعض المساحيق الخفيفة على وجهى لأخفي لوني الباهت. لبست ملابس (كاجوال) وحذاء رياضي كما تفعل الصغيرات.

لم أنس أن أضع في حقيبتي بخاخة صدري، بخاخة أنفي.. أدوية السكر والضغط، وأدوية هشاشة العظام.

قفزت لأركب الترام بكل أمل في حياة جديدة متحررة متمردة على كل ما فات من قهر وعبودية.

الزحام صعب الاختراق.. كل الطلبة والموظفين رغم انتشار خبر أنفلونزا الخنازير يتزاحمون داخل الترام.. لكنّي لن أتخاذل عن مشروعي في التمرد لقد عزمت على السير فيه حتى النهاية.

رغم إحساسي بالإعياء.. كرأمتي وباروكتي لا تسمحان لي أن أطلب من إحدى الفتيات أو الشبان ترك مكانه لي كي أجلس..

ما هي إلا لحظات وأحسست باختناق ثم وقعت مغشيا عليّ ولم أفق إلا وأنا عائدة إلى جحري يحملني قط.

هكذا تأثرت منذ طفولتي حتى الآن بالقطط والرجال.

كاتبة من مصر

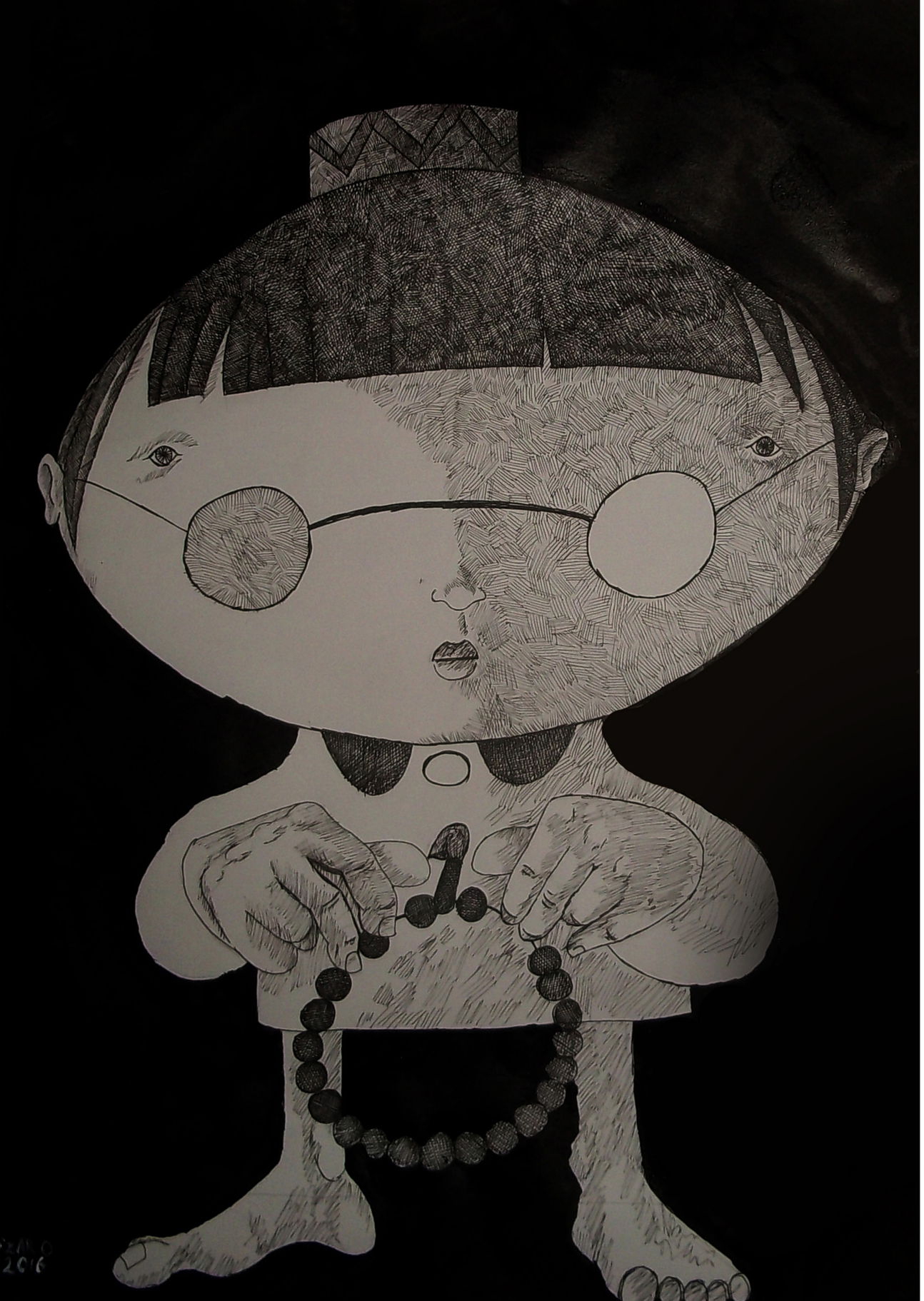

نزار ضاهر

هدية للنسيان

شرف الدين ماجدولين

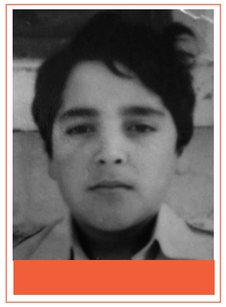

أذكر جيدا ذلك اليوم البعيد من طفولة تسكن خلايا الذاكرة، يتعلق الأمر ربما ببدايات صيف سنة 1977، كنا مقبلين على امتحانات نهاية السنة، عندما طلب منّا مدرس الفرنسية أن نقف لزميلنا إبراهيم الخالدي، الذي حضر متأخرا وباكيا رفقة عمه ووالدته المتشحة بالبياض، أذكر لهجة الأستاذ الآمرة وتجهمه الغريب عن أجواء دروسه في حصة الفرنسية المكتنفة دوما بمسببات الدعابة والهزل، حين طلب منا أن نقرأ الفاتحة على روح والد زميلنا إبراهيم، الذي استشهد في حرب الصحراء. كنا في الصف الرابع الابتدائي في مدينة صغيرة بالجنوب المغربي اسمها "سيدي إفني"، لم تمض أكثر من ثماني سنوات على استعادتها من المستعمر الإسباني، وكان أكبرنا لا يكاد يتجاوز عقده الأول إلا بسنة أو سنتين، حين رفعنا أكفنا الصغيرة لقراءة الفاتحة بخشوع، لإدخال والد زميلنا الجنة.

وقف بعدها مدرسنا ليتحدث عن فضل الشهيد ومرتبته عند الله، لم نكن نفهم من معنى الشهيد سوى أنه محارب قضى في الصحراء، ولم تكن المسألة جديدة علينا إذ فقد أزيد من ربع زملائي آباءهم في تلك الحرب التي امتدت لسنوات طويلة. وطالما تكررت لحظات الغياب غير المبرر لزملاء عديدين خلال المواسم الدراسية اللاحقة، لكن لحظة بكاء إبراهيم كانت فارقة، إذ كان محبوبا لمواهبه العديدة من صيد العصافير إلى حفظ صيغ تصريف الأفعال بالفرنسية إلى حكاية وقائع خيالية مدهشة، كان وحيد والديه دونما إخوة أو أخوات، ممّا جعله يعوّض ذاك الفقد بنسج علاقات صداقات متينة مع جلّ زملائه في الفصل، وفي النهاية كان هو من يحرز المرتبة الأولى بعد إعلان نتائج الامتحانات.

ولمواساة إبراهيم وزملائه التلاميذ المكلومين بهذا الفقد، الذي أطفأ شعلة نشاط لافتة، اقترح مدير المدرسة -الذي لم يكن شخصا آخر سوى والدي العزيز- على هيئة التدريس منح أبناء شهداء حرب الصحراء، جوائز تحفيزية، في حفلة نهاية السنة؛ جنبا إلى جنب مع المتفوقين من التلاميذ، كان لديه إيمان داخلي عميق وهو المتديّن الحافظ للقرآن، أن تلك الهدايا ستدرأ الشر عن أبنائه (الحقيقيين والمجازيين)، في البيت والمدرسة. لا أدري حقيقة ما سبب جعل كل الجوائز عبارة عن كتب، فالحلوى أو الملابس أو لعب الأطفال، بدت على الدوام أكثر جلبا لمشاعر الحبور لدى الطفل الذي كنته، إنما لم تكن تسؤني أيّ كتب أتلقاها هدية، من أساتذتي أو أقاربي، وفي النهاية كانت الجوائز التي منحت لإبراهيم وزملائه الأيتام والمتفوقين، عبارة عن منشورات مصرية ولبنانية: قواميس صغيرة، وكتب تعليمية، مع عدد كبير من قصص الأطفال، من تأليف الكاتب المصري المعروف في أوساطنا محمد عطية الأبراشي من مثل " الابن النبيل" و"الأميرة الحسناء" و"الراعي الشجاع" و"السلطان المسحور" وغيرها.

منح إبراهيم هديته لتتلقفها أيدي أصدقائه في ذات اليوم، متناوبين على تصفحها وقراءتها، من دون إحساس بالذنب، وإنما بنزعة طفولية إلى تأميم الهدية التي قصد بها تبديد المشاعر الأسيَة وجرّ صاحبها إلى عوالم خيالية تنتشله من وهدة الحزن الحالك. من وقتها ركبني شبه يقين أن الحكاية والقصة والرواية يمكن أن تكون وقاية من الفقد أو مواساة له، لا أدري هل لذلك دخل في مساري النقدي أم لا؟ لكني وجدتني في مرحلة اختيار موضوع أطروحتي للدكتوراه منحازا لنص "ألف ليلة وليلة" الذي تقوم فيه الحكايات بتأجيل الموت.

اليوم حين أستعيد ولعي المبكر بفنّ الرواية لا أستطيع فصله عن قدرتها على مجابهة الفقد والخسارة والموت، واستنبات حيوات انتهت إلى مجرد صور في الذاكرة، واستعادة فضاءات تلاشت وأقارب قضوا تباعا وأصدقاء اختفوا، يبدو النص تعويضا وتعزية وأملا في خلود افتراضي. لهذا أصدق بعمق اعتراف عشرات الروائيين بأن الرواية حمتهم من الانتحار، أو الجنون أو اللاجدوى، وأهدتهم القدرة على تحمل عيش تنجاب من حناياه الأفراح مثلما تهرب السنوات والشهور والأيام من رصيد العمر.

كاتب وأكاديمي من المغرب

مدرسة الأنطاكي

طه عدنان

في منتصف السبعينات، لم يكن يزعجنا، شقيقي وأنا، ذلك السفر اليومي من درب «مارشينوار» بحومة «باب الخميس» إلى مدرسة الانبعاث بعرصة الملاك. كانت «الانبعاث» منزلًا عصريا بمعايير تلك الأيام حوّله أصحابه إلى مدرسة للتعليم قبل الابتدائي. أمر ممتاز إذن أن يصير للحومة ملاذ تربوي عصري نستجير به من جهامة السي بلقايد وكُتّابه القرءاني العتيق بزنقة سيدي موسى الزحّاف، وهو الكُتّاب الذي حوّل التعليم إلى شأن بالغ الخشوع قبل أن يكبر تلامذته القدامى من أبناء الجوار ويحوّلوا مدرستهم الأولى تلك إلى مسجد بعدما غادر السي بلقايد مجلسه الجليل في قلب الكتّاب إلى دار البقاء. في مدرسة الانبعاث كانت الأجواء أكثر انطلاقا وأقل قتامة من كتاب السي بلقايد. فهناك اكتشفنا لأول مرة أن الدراسة تعني أيضًا فيما تعنيه ممارسة الرسم وترديد الأناشيد. لذا لم نكن نتردّد في رفع عقيرتنا مع نهاية كل حصة لنصدح بملء حناجرنا:

«مدرستي حلوة/مدرستي حلوة/مدرستي جنّة/فيها تربّينا».

أمّا في عيد العرش حين كنا نحضر إلى فناء المدرسة بدرهم في الجيب وكأس فارغة من أجل الشاي، فقد كنا نتدرّب في الطريق إلى المدرسة على الأغنية الأثيرة لدى معلمنا السي أبو البنّاء:

«شمس العشي قد غرّبت واستغربت/عيني من الفورقا...».

بوصولنا لستّ سنوات، سن التسجيل في المدارس العمومية، عدنا إلى باب الخميس من جديد. وبالضبط إلى درب الحاج أمين المجاور لدرب مارشينوار حيث مدرسة الأنطاكي الابتدائية. كانت معروفة لدى العامة بمدرسة البرادعية بسبب وجودها في زنقة البرادعية ومجاورتها لصنّاع البرادع. لم أستسغ يومها أن يستولي البرادعية الذين يتنافسون في تتويج حمير المدينة وضواحيها بالبرادع على مدرسة نقصدها لتنوير عقولنا كي لا نظلّ حميرًا. هكذا، كنتُ أصرُّ على «الأنطاكي» تسميةً للمدرسة وعنوانًا لها. الأنطاكي الذي نصّبتهُ حكمةٌ غامضةٌ شيخًا على المكان. فهناك في الجوار كان مستشفى الشيخ داود الأنطاكي المتخصّص في أمراض العيون والمعروف بسبيطار الخميس يُعَدّ أهمّ معالم حومتنا العتيدة ومفخرتها في كلّ مراكش والنواحي. وفي حيّز مستقطع من المستشفى الكبير، كانت تقبع مدرسة الأنطاكي للمكفوفين، بالإضافة إلى مدرستنا الصغيرة التي يريد هؤلاء البرادعية الأجلاف مصادرة اسمها العلمي المرموق.

مدرسة عمومية في بيت مراكشي عتيق. بيت فسيح من أربع غرف في الطابق الأرضي ومثلها في طابقه العلوي. غرف طويلة كما يقتضيه المعمار التقليدي القديم تحوّلت إلى أقسام طويلة مظلمة. طولٌ فادحٌ يُغري بتحوير هجائية ابن الرومي لصديقه عمرو لتصير:

«وجهكَ يا قِسمُ فيه طول/وفي وجه الكلاب طول».

اقتصار القسم على صفين طويلين من المقاعد كان يسهل كثيرا من مهمة المعلم. ففي الصفوف الأمامية يجلس المجتهدون الذين غالبا ما يكتفي المعلم بهم وبتجاوبهم. أما الصفوف الخلفية فهي منفى الكسالى الذين من حين إلى آخر يُفاجئنا المعلم وهو ينادي على أحدهم بعد ضبطه متورّطا في شقاوة ما ليمارس عليه عقوبة «الفلقة». يستلقي التلميذ على ظهره ويرفع رجلين حافيتين بعد أن يتمّ تثبيتهما جيدا بحبل مشدود إلى طرفي عصا غليظة يشدّها رفيقان قويان من جهابذة الكسل -في الغالب كان عشيق ولد «درب درقاوة» وأبو الخير ولد «عين إيطّي» يفيان بالغرض- لينهمر سوط المعلم مدرارًا على الرجلين الصغيرتين في مشهد تعذيب ألفناه كما لو كان جزءا من وسائل الإيضاح البيداغوجية التي لا غنى للحصة عنها. طبعا كان علينا تأطير علاقة ودية مع عشيق وأبو الخير لأنهما إذا ما أضمرا للواحد منّا شرًّا فإنهما بشدّ الفلقة وإحكامها جيّدا حول قدميه الطريتين يجعلان حفلة التعذيب تبدأ حتى قبل أن يهوي سوط المعلم. ورغم أن العناية الربانية حشرتني منذ القسم التحضيري في زمرة المجتهدين إلا أنني لم أنجُ من عقوبة الفلقة بسبب فائض الشقاوة. كنّا نجد متعة لا تضاهى في إطاحة دواة حبر من نريد الانتقام منه ليسيل الحبر على دفتر الزميل الذي يعاقَب فورًا على ذلك، في انتظار أن يتطوّع فاعل خير كاشفًا للمعلم اسم الفاعل الحقيقي ليجد هذا الأخير نفسه معلقًا برجلين مرفوعتين إلى أعلى فيما صراخُه يتعالى ليعمّ أرجاء المدرسة.

حسام بلان

لم يكن في مدرستنا جرس. كلّ ما أذكره، أن تصفيقًا للمدير أو لأحد المعلمين في الفناء -الذي كنا نسمّيه تعسفًا ساحة- كان يكفي لننتفض في مقاعدنا مُخدِثين تلك الجلبة الجميلة التي تبشّر بفترة الاستراحة أو بانتهاء الحصة. فترة الاستراحة كانت تعرف اكتظاظا للتلاميذ بتلك الساحة/الفناء حيث نمارس فوضانا الصغيرة تحت عيون المعلمين ونظراتهم الشزراء. لم نكن نهرب من نظراتهم إلا حين ننعطف باتجاه المراحيض. للذهاب إلى المراحيض كنّا نعبر بهوا مظلما يصيب بالرهبة. على جدران الممرّ المؤدي إلى المرحاض رُسِمت عينٌ تتوسّط كفًّا. كان يُشاع أنها تخرج من رسمها على الحائط لتنكّل بالأطفال. كم كانت هذه العين الشيطانية تثير في قلوبنا الصغيرة من الرعب. تبدأ البنات بالصّراخ والتصايح فيعدو الصغار إلى الخارج لا يلوون على شيء. وكم مرة كان علينا أن نستعطف الحارس لكي يفتح لنا باب المدرسة للذهاب إلى بيتنا في الدرب المجاور من أجل قضاء الحاجة بعيدًا عن هذا الممرّ الموحش ذي العين المتوحشة.

لكن مشهد الفزع الأكبر عشناه خلال ظهيرة قائظة من شهر مايو. الطقس كان حرًّا والفترةُ استراحة. وكنا نركض في ذلك الفناء الضيق ونتناطح كالخرفان عندما صرخت المعلمة نعيمة صرخة هائلة قبل أن تقع مغشيًّا عليها. هبّ المعلمون إلى نجدتها وتحلّق حولها التلاميذ ليكتشف الجميع وجود ثعبان على مقربة من باب القسم. بدأ الصراخ والعويل والركض في كل اتجاه. الثعبان نفسه فقد عقله فزعًا من صراخنا ليزحف سريعًا دونما هدف واضح مثيرا حوله المزيد من الصراخ والتدافع. هنا برز إلى

فادي يازجي

المشهد معلمنا السي الشروقي. كان إلى جانب حارس المدرسة بطلا ملحمة الفزع، إذ أفلحا في قتل الثعبان منهيين فصل الهلع ليتم حمل المعلمة نعيمة إلى مكتب المدير فيما عدنا نحن إلى أقسامنا وقد أهملنا تمامًا حكاية الانتباه إلى السبورة لنكتفي بتفقد أرجلنا الصغيرة حتى لا يلتفّ حولها ثعبان أو أفعى.

«مدرستي حلوة/مدرستي حلوة/مدرستي جنّة/فيها تربّينا».

الجنة ظلت حبيسة الخيال ولازمة النشيد، فكل شيء في مدرسة الأنطاكي كان يُحيل بالمقابل على النار وعذابها، من رسم العين في ممر المرحاض إلى ثعبان الساحة مرورًا بفلقة المعلم. كما أن كلّ معالم هذا البيت المراكشي المتهالك كانت تُحيل على العتاقة والقدم. إذ لم يتغيّر في هذه البناية شيء تقريبا مذ كان والدي تلميذا في ردهاتها في الخمسينات من القرن الماضي. كان مديرهم حينها الشيخ الفقيه عبدالسلام المسفيوي جبران. وكان السي قبّاب أحد المعلمين. السي قبّاب بقامته الفارعة ولحيته البيضاء وجلبابه الصوف ظلّ هناك في نفس المدرسة وفي نفس القاعة يُدرّس نفس المستوى ربما ليصل ماضي والدي البعيد بحاضرنا الشاحب.

*** *** ***

كدأبي كل سنة، قضيتُ عطلة رأس السنة بالحمراء. وفي صباح مراكشي صاف ومشرق، كنت رفقة أخي بالسيارة عندما طلبتُ منه أن نعرج على «عرصة الملاك» و«باب الخميس» لنلاحق بعض ذكريات الصّبا هناك. دلفنا إلى قشيش، وركنّا السيارة قرب إعدادية عبد المومن. تذكرتُ فرحنا بتلك الأربعاء السعيدة التي كانت فيها مادة التربية البدنية أول حصة نفتتح بها الفترة الصباحية. كنا نذهب إلى الإعدادية لابسين ملابس الرياضة بعدما أقنعنا الأسرة بأن تغيير الملابس في مستودع الإعدادية مضيعة للوقت. كنا نريد أن نظهر للجيران أترابا وأمهات أننا لم نعد مجرد أطفال ندرس بالابتدائي. بل صرنا من تلاميذ الإعدادي الذين يحملون دفاتر كبيرة الحجم ويلعبون الرياضة في المدرسة ويشاركون من حين لآخر في الإضرابات التلاميذية التي كانت تندلع في شوارع المدينة بتواترٍ مطلعَ الثمانينات.

عرّجنا إلى باب الخميس. وهناك فاجأني السي عبد الله بقامته القصيرة ولحيته التي وخطها الشيب وراء كونتوار مكتبة السنّة. المكتبة التي كنّا نزدحم خلفها بلائحة الأدوات في بداية السنة. كان السي عبد الله يتحرك في مكتبته بهمّة نحلة كما لو أن العقود الثلاثة ونيف التي تفصله الآن عن لحظتنا البعيدة محضُ إشاعة. الفرن الذي كان تناوبُنا، شقيقي وأنا، على توصيل الخبز إليه على رؤوسنا الصغيرة بسيزيفية مضنية ما زال على حاله كما لو أن بوصلة الزمن توقّفت تمامًا في تلك الناحية. أذكر الآن فرحتنا بيوم الجمعة. ليس فقط لأنه كان يوم عطلة، بل بسبب الكسكس الرحيم الذي، ولو لم نكن مغرمين به، كان يُريحنا من عناء إيصال الخبز إلى الفرن. الحمّام الذي كان والدي يصطحبنا إليه بعد صلاة الفجر مباشرة، ظلّ أيضًا ولسنوات حصة تعذيبٍ صباحي لا أنسى مكابداتها. حدث معنا أكثر من مرة أن جلسنا في برد الشتاء المراكشي القارس منتظرين أن يفتح الحمّام أبوابه لنغتسل سريعا ونخرج كما لو أن الاستحمام طقس محرّم نختلسه في غفوة من الجميع. السقاية الفسيحة المتاخمة لدرب السقاية حيث كانت تسكن زميلتنا مريم العبديوي تحوّلت بكل بشاعة إلى موقف للسيارات. السقاية التي كنا نمرح فيها خلال ظهيرات مراكش القائظة كأفراس نهر صغيرة جفت من مائها لكي تفسح لصفائح الفولاذ في المجال. هذه السقاية ذات الطراز السعدي البديع يمكن أن تتحوّل سريعا إلى تراث إنساني في أيّ بلد يحترم عمرانه.

وصلنا إلى درب الحاج أمين حيث مدرستنا القديمة، لينتصب أمامنا سور أخفى الساحة الصغيرة التي كنا نصطفّ فيها أمام الباب منتظرين خروج الفوج الأول قبل ولوج الباحة الداخلية للمدرسة. لقد تمّ تحويل الساحة التي أرّخت لحروبنا ومعاركنا الصغيرة إلى موقف لسيارات الفرنسي الذي اشترى البيت وعمد إلى ترميمه محوّلًا مدرستنا الكئيبة إلى «رياض» باذخ يقبض فيه على سحر الشرق وعبقه.

وقفنا أمام الباب الخشبي الهائل الذي انتصب سدّا منيعًا أمامنا وأمام سيل الحنين. ضغطتُ على الجرس ليخرج الحارس الجديد للمكان. شاب في الثلاثين يرتدي بلوزة زرقاء يباطِنُ أساريرَ الترحيب التي ارتسمت على محيّاه بعضُ التوجّس. يشتغل في الرياض منذ عشر سنوات ولا يعرف شيئا عن ماضيه الأكاديمي العريق. رويتُ له بعض فصول الحكاية واستأذنته في زيارة سريعة لمدرستي القديمة. كان رده بالنفي حازما. استدركتُ مقترحًا عليه إخبار المالك الفرنسي عساه يكون أكثر تفهّما لرغبتي الملحة في أن أطل للحظات فقط من باب هذه البناية على قعر طفولتي الغابرة. قال بأن صاحب البيت مشغول بضيوفه من السياح الفرنسيين الذي اختاروا قضاء رأس السنة بمراكش، وهم الآن يستعدّون لتناول وجبة الغداء، ولن يجرؤ على إزعاجهم. هكذا اعتذر منّا بأدب ثم أوصد الباب خلفه لنرجع أدراجنا تاركين الضيوف الفرنسيين يستمتعون بلحظتهم السياحية في هذه الجنّة الصغيرة. هل قلت جنّة؟ يبدو الأمر كذلك. فكّرتُ في أن مدرستي القديمة قد تحوّلت أخيرًا إلى جنّة. تمامًا كما في النشيد. جنّة حقيقية بلا فصول ولا معلمين. جنّة مفتوحة في وجه السياح. وحدها سياحة الذاكرة والوجدان لم تخطر على بال رضوان، هكذا سمّيتُ في البال الحارسَ الباسِمَ ذا «البلوزة» الزرقاء.

شاعر من المغرب مقيم في بروكسل

ومضات بوينس أيرس

عاصم الباشا

تأتيني صور من تلك الطفولة في بوينس أيرس، تلك المدينة- الميناء الهائلة، الرمادية والضبابية شتاءً وكثيرة الناموس في حرّ صيفها الدبق، ذلك لأنها رطبة على مدار السنة لموقعها عند مصبّ نهر لا بلاتا، أعرض أنهار العالم، في المحيط الأطلسي.

أذكر تلك المياه العكرة الضاربة إلى لون الطمي الأصفر، حسب الإضاءة، فقد تستحيل رمادًا شبه قاتم أحيانًا. وجدت لونًا مشابهًا في بحر كوريا الجنوبية الذي يسمّونه «البحر الأصفر».

كما أذكر، في يوم صيف حار، ولعلّني كنت في الثامنة أو التاسعة من العمر، كنا عائدين على متن سيارة جار لنا (والدي كان نزقًا وأدرك، بعد تجربة قصيرة لامتلاكه سيارة، بأن من الأفضل أن يسوق شخص آخر) بعد قضاء النهار على ذلك الشاطئ الجنوبي من العاصمة ذات المياه العكرة، كان الازدحام هائلاً وقافلة السيارات التي تنوي الدخول إلى المدينة تتحرّك ببطء شديد. كنت جالسًا في الخلف بجانب النافذة اليسرى وقد هبط الظلام وتوقّفت السيارة عندما شهدت مقابل وجهي، الذي كان يطلّ محاولاً التنفّس، مشاداة بين ثلاثة رجال. رأيت بجلاء (كان لا يبعد عنّي أكثر من متر واحد) كيف أخرج أحدهم مسدسًا وأطلق النار على صدر غريمه. لا أنسى كيف سقط الرجل.. وتحرّكت السيارة.

في السيّارة إياها، والسائق ذاته الذي لا يمكن مقارنته بفانخيو (بطل العالم في سباق السيارات آنذاك والأرجنتيني الجنسية) حدث في مناسبة أخرى أن توقّفت السيارة فوق سكة القطار ونحن نعبرها. حدث ذلك ونحن نسمع صافرة القطار القادم ترتفع، لكن المحرّك لا يدور والحواجز الآلية بدأت تنخفض.. أدرك سائق السيارة التي خلفنا الخطر المحدق فدفع سيارته وصدمنا من الخلف إلى أن خرجنا من فوق السكّة. لكن حماقة سائقنا جعلته يتوقف وهمّ بالخروج من السيارة لمعرفة العطل عندما صدمنا السائق من خلفنا بشدّة أكبر. خرج سائقنا ليحتجّ بكثير من النزق وصارخًا: لماذا تدفعنا وقد خرجنا من فوق السكة!؟ فأجابه الآخر بوجه كالح، أذكره، والقطار يمرّ مسرعًا من خلف سيارته: أجل، سيارتك خرجت، لكن سيارتي كانت فوق السكّة. تمّ تقديم الاعتذار اللازم.

من تراه ذلك الشخص الذي أنقذني وأهلي آنذاك؟

أحاول تذكّر ماهية اللغة السائدة في البيت. لا شك أنها كانت خليطًا عجائبيًا، فوالدتي لم تكن تعرف من العربية سوى مفردات معدودة وكانت تخاطبنا بأسبانية بديعة (تلك التي تستخدمها إلى اليوم)، وداومت على ذلك في سوريا، ما ساعدنا على المحافظة على اللغة الأمّ، بالإضافة إلى تلك الكتب والمجلاّت التي جلبتها معها وباتت شبه مندثرة لكثرة التعامل معها. وكان لوالدي لكنة المهاجر العربي، لكنني شبه واثق من أنّه كان يسبّ ويصرخ بالعربية كلما أقدمنا، أنا أو أخي عمر، على ما لا يرضيه. ما كنّا نفهم ما يقول صراخه، لكن اللهجة كانت بيّنة ومقنعة. وللحقّ، لأنني أذكر، كان يكرّر المفردة الأسبانية «كاراخو» (وهي كلمة تستخدم للتعبير عن الغضب، وهي غير موجودة في القواميس الأسبانية. لعلّها من لغة أهل البلاد الأصليين) ويدسّها في تعابير غضبه، واستمرّ على ذلك في سوريا.

أذكر أنني كنت أشعر نفسي، في الشارع، مع أترابي، في المدرسة.. مغايرًا للجميع.. أنني مختلف عنهم في أمور لم أك أعيها بعد، ولعلّ ذلك الإحساس هو الذي دفعني إلى التستّر بالصمت، ممّا جعلني الحاضر الغائب دومًا.

لكنني كنت هناك، ولم أكفّ عن التهام ما حولي ككل الأطفال المستغرقين في اكتشاف هذا العالم البائس.

أسرّت لي أمّي بعد سنوات كثيرة، تتجاوز الأربعين، بأن أخي عمر كان رضيعًا عندما حملت بي. كانت في العشرين من عمرها وما من أمّ أو عمّة أو خالة أو قريبة لها أو لزوجها تمدّ لها يد العون والنصيحة. المرأة الوحيدة التي أذكر مرورها بالبيت والتي طالما اعتنت بي وبإخوتي كانت «تيا» (عمّة أو خالة) فوطمِه، أي فاطمة بإحدى لهجات يبرود. لكن خبرتها كانت محدودة لأنها لم تنجب قطّ. ما زالت حيّة تعنى بنباتات بيتها الخارقة وقد تجاوزت التسعين، تحبنا ونحبها جميعًا. هي التي علّمتني أهمية مخاطبة النباتات لتستجيب لنا رضيّة.

لذا، تابعت أمّي البوح، حاولت إجهاضي بكل الوسائل المتيسّرة والتي كانت تتسقّطها لدى كل أنثى تفترضها خبيرة في هذا الشأن. جرّبت حمّامات الخردل الحارق والقفز من أماكن مرتفعة

قادي يازجي

وغيرها من الوسائل التي لم تسترسل في سردها.

لكنني تشبّثت، على ما يبدو، ولم أرض سوى الميلاد نهاية. وإن كان، على العموم، بداية.

هذا يدلّنا إلى أنني كنت أحمق حتى وأنا في رحم أمّي!

لعلّه سبب الحضور الغائب الذي التصق بي إلى اليوم.

لم أسألها ما إذا كان والدي على علم بمحاولاتها.. من قبيل الفضول، لا غير. على أيّ حال ذلك لا يغيّر شيئًا.

ذكريات كثيرة تتداعى إلى الذهن. سجّلت بعضها في «الخواطر» على ما أذكر، كبعض تفاصيل الدار التي كنا نقطنها.. والجيران.

أمّا كيف كنت أتفهّم كوني مغايرًا، والواقع أن كلمة «تفهّم» ليست الأنسب.. لنقل أنني كنت أستشعر ذلك الانتماء الآخر. أحاديث والدي لي ولأخي عمر (ولدت مريم بعدي بأربع سنوات وتبعها فؤاد) عن ميزات وامتيازات سوريا، وكيف أن كل شيء هناك أجمل وأطيب. فإذا كنا نأكل المشمش يستخفّ قائلاً: هذا ليس مشمشًا، هذا زبالة! ثم يجمع يديه جاعلاً فراغًا بينهما يناسب لاحتواء تفاحة كبيرة ويتابع: هكذا هو المشمش في يبرود!..

الحبّ والشوق يعمي أحيانًا، وهذا أمر طبيعي.

ثم وجود الكتب المطبوعة برسوم عجيبة لا نفقه منها شيئًا. سرعان ما حاول والدي تعريفنا بلغته. كان مهاجرو يبرود، وكان في حيّنا تجمّع لا بأس به منهم، قد أسّسوا «الجمعية اليبرودية» التي مازالت قائمة، وكان والدي من الناشطين فيها. كان مقرّها في شارع «ألبرتي» الموازي لشارعنا، على مسافة لا تتجاوز المئتي متر عن بيتنا. اجتمعوا وقرّروا التعاقد مع معلّم للغة العربية. أذكر أن كنيته كانت «عبّود»، سمين، كبير (ربما لأنني كنت صغيرًا) أصلع.. وكان من جبل لبنان.

عددنا، الطلبة، ما كان يتجاوز أصابع اليدين، وكان لا يحضر أكثر من النصف، بالتناوب.. فليس من السهل على أطفال يؤمّون المدارس صباحًا، وأحيانًا عصرًا، احتمال ساعة أخرى مساءً تحرمهم من اللعب مع أترابهم في الشارع.

المهمّ، كانت المحاولة فاشلة تمامًا، فالسيد عبّود كان يكثر من تشبيه الغالبية بالحمير، وكان يهوى القول: هاك صفر قدّ رأسك يا حمار! ويرسم شكل الصفر على كامل الصفحة. كان رودولفو عدول الأكثر حظًّا بتلك الأصفار. صار فيما بعد من رفاقنا في دمشق، إلى أن قرّر العودة إلى الأرجنتين. فهذا ما حصل لغالبية أبناء المغتربين الذين قرّروا العودة إلى «الوطن» مع أبناء تجاوزوا العاشرة من عمرهم. معظمهم لم يحتملوا التغيير.. ما عدا ندرة.. أنا منهم.

تقاطروا عائدين، بمن فيهم شقيقي عمر، رفيق الطفولة والمراهقة.

ثمة عائلات عادت برمّتها، لكنّ والدي لم يقو على الاعتراف

بالإخفاق. وهناك رفاق انتظروا وفاة الوالد (كآل جمعة، من بلدة الضمير) ليعودوا كومة واحدة مصطحبين معهم الوالدة المغلوبة على أمرها (باستثناء أنثى منهم كانت قد تزوجت قريبًا لها).
اللافت للنظر أن غالبية ذلك الرعيل من أبناء المغتربين العائدين لم يتمّوا أيّ دراسات. بمجرّد عودتهم إلى مسقط الرأس توجّهوا إلى الأعمال. منهم من نجح بفضل الفساد، كآل جمعة السالف ذكرهم، والغالبية ما زالوا يسكنون أحياء الفاقة.
الطريف أن إحدى بنات آل جمعة، وكنت معجبًا بها وربما عاشقًا، على الرغم من أنها كانت تكبرني بعدة سنوات.. لكنني كنت أحاول الدنوّ منها، ولأنها كانت تملّ حبيسة البيت وجدت متنفّسًا في محاولة تعلّم وممارسة بعض الرسم فطلبت مني مساعدتها. وهكذا كان، ثم أدخلتها في أجواء هواة التشكيل (في السادسة عشرة كنت من المواظبين على مركز توفيق طارق وكنت أشارك في نشاطات جمعية «أصدقاء الفن»).
نعود إلى الطرفة: تلك المرأة الجذّابة أصبحت زوجة الرئيس الأرجنتيني كارلوس منعم، سيء الذكر للخراب الذي سبّبه لذلك البلد، واليبرودي الأصل.
صادفت مرّة مقابلة معها مرفقة بالصور. كانت قد فقدت ألق الجمال البعيد بسبب تكرار عمليات تجميل ما أظنها كانت بحاجة إليها. كدت لا أتعرّف عليها. صرّحت أنها خرّيجة كلية الفنون الجميلة! فابتسمت مفكرًا: ربما كليّتي!
طبعًا، لا يليق بزوجة رئيس أن تكون بدون دراسات عليا، ما لم نقل قريبة من الأمّية. لكنني لا ألومها، فنحن نعيش في عالم لو شاء «الخالق» أن يجعله بهذا القدر من التلفيق والكذب والنفاق لعجز عن ذلك.
لكنني أشكر المصادفات التي أبعدت آل جمعة من طريقي، فجميعهم باتوا مضربًا للمثل في الفساد والنهب بمساعدة صهرهم الفاسد.
ما من حدود أو قوميات أو معتقدات في مدرسة الفساد العالمية.
وقد زاد حبّي وإعجابي بأخي عمر، الذي بقي على علاقة شبه يومية مع تلك الجماعة إذ عادوا إلى الأرجنتين في الفترة ذاتها (سنة 1970)، وكان يلتقي كثيرًا في بيت العائلة المرشّح للرئاسة عن الحزب البيروني كارلوس المذكور. وعندما فاز في الانتخابات سارع أخي إلى الانتساب للحزب الراديكالي المعارض، لأنه أدرك أنه قد يصيب نتفًا من النهب الذي كان يعرف أنهم مقدمون عليه، وأنه سينتهي ملطّخًا.. ففضّل الابتعاد عنهم جميعًا ليبقى فقيرًا، نظيف السيرة والشرف، في بلدة نائية على سفح جبال الآنديس، تفصله عن عاصمة الفساد 1500 كلم.
ما زال يعمل بالنجارة (على قدّ الحال) في تلك الجغرافيا البعيدة.
كثيرًا ما يتساءل المرء: ماذا كان ليحدث لو..؟
لأنني تساءلت: ماذا كان ليحدث لو رافقت أخي في رحلة العودة تلك؟ فلا يأتيني سوى جواب واحد مبنيّ على ثقة وقناعة شبه مطلقتين: لكنت يا ولد بين الثلاثين ألفًا من اليساريين الذين قضوا في السبعينات إبّان الحكم العسكري المدعوم من قبل اليمين المتطرّف، الكنيسة والراعي المعتاد: الولايات المتحدة الأميركية التي كانت قد انتهت لتوها من قتل سلفادور ألليندي في تشيلي المجاورة وأوصلت المجرم بينوتشيه إلى السلطة.
ومن يدري؟ ربما كنت لأنضمّ لحركة «توباماروس» اليسارية التي كانت تستلهم رؤى الأرجنتيني تشي غيفارا، لأنتهي، كما انتهوا، قتلى منثورين في غابات الشمال الشرقي وبقية الجغرافيا الأرجنتينية.
لا أنسى فتاة أرجنتينية جميلة وذكيّة من مدينة كوردوبا، عرجت على بيت حمايَ في باريس لبضعة أيام في طريق عودتها إلى بلدها بعد إقامة غير معلنة وقصيرة في ألمانيا الشرقية (تسميتها بالديمقراطية غير دقيق بالمطلق).
حدث الانقلاب بعد أوبتها بقليل وتوالت جرائم «الاختفاء». ما عدنا نعرف عنها شيئا. أنا شبه واثق أنها بين المفقودين.
كان نصيب النساء، وبخاصة الجميلات منهن الأكثر فظاعة، فالاغتصاب الجماعي كان «طبيعيًا» والتعذيب الجسدي «عاديًا» (كإدخال جرذون حيّ وهلع في الرحم ليمزّقه بأظافره وهو يحاول الخروج منه).. قبل رميهن أحياء من الطائرة المحلّقة فوق المحيط الأطلسي.
الخطف، التعذيب والقتل (الذي يسمّونه اختفاء) كانت سياسة العسكر. عقول العسكرتاريا لا تصل إلى غير هذا.
ودام الأمر سنوات.
هكذا جرى «إخفاء» اثنين من أبرز كتّاب الأرجنتين آنذاك: هارولدو كونتي (ترجمت له قصة) ورودولفو والش، ويقال إن نهاية المغنّي الشعبي الشهير ذي الأصول السورية خورخي كفروني كانت على يد تلك العصابات.
صحيح ما يقوله الفيلسوف الأسباني أورتيغا إي غاسيت « أنا هو أنا مضافًا إليّ شروطي».
لو عدت في سنة سبعين إلى مسقط رأسي لعدت إليه شيوعيًا. تمسّكت، وما زلت، بالجدلية في السابعة عشرة.. بعد المرور بمرحلة التديّن التي لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر.
كان بحثي عن الحقيقة في المراهقة شرسًا بالفعل.
لا أستطيع شكر أيّ طرف لـ«إنقاذي». لعلّه الارتباط والتمسّك بجذور الوالد، وبخاصة الثقافية منها، واستغراقي الوله في محاولة الإبداع. ولا ريب في أن للوالد دورًا هامًا في تقديم أرضية التمسّك. فقد تسنّى لي بفضله، وأنا في الثامنة من عمري، أن «أتذوّق» القنابل المسيّلة للدموع.
ذلك لأن بعض أبناء الجالية العربية في بوينس أيرس قرّروا الخروج بتظاهرة احتجاج وإدانة للعدوان الثلاثي على مصر

سنة 56، فقرّر الوالد أن نصحبه أنا وعمر. ما كان متوقعًا أن تواجه التظاهرة السلمية بذلك العنف. فرّقت السلطات الحشد بتلك القنابل وبالعصيّ.
أذكر كيف كنا نلجأ إلى مداخل البنايات ونقرفص وفي عيوننا نيران مندلعة تكاد تمنعنا من الرؤية.
عدنا ثلاثتنا إلى البيت بعيون حمراء ومحتقنة. لكنني ما زلت أفتخر إلى اليوم بأنني شاركت في الدفاع عن حقوق ما يسمّونه «الوطن» منذ نعومة أظفاري، كما يقال.
أصرّ على اجتناب استخدام مفردة «الوطن» بدون هلالين، لأن الحياة علّمتني أن من المحال أن يكون المقصود جغرافيا بحدود مرسومة، ثم أن «وطني» هو الرصيف الذي أمشي عليه بكرامة، أينما كان. وليست هذه شروط «الوطن العربي» اليوم، من المحيط إلى الخليج ودون استثناء.
لذلك ما زلت وسأبقى مدافعًا عن حقّه في الكرامة، فهو لن يتجاوز تخلّفه بدونها، وبإصلاح مفهوم الشرف الذي ساهم ويساهم المتأسلمون بتشويهه بالتعاون مع الطغاة المتسلّطين على الشعب.
ما زادت العمائم وقلنسوات الخوارنة في بلد إلاّ واستفحل التخلّف والعنف فيه. رؤية استعراضية للتاريخ تقنعنا بذلك.
كما يرينا التاريخ أن حكم «وكلاء الله على الأرض» سرعان ما يهوي في الفساد والتفسّخ. أما كانت هذه نهاية التاريخ القصير لكل من المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس؟ فكيف يثق الناس بمن يتوّجون رؤوسهم بالعمائم؟
عودًا إلى صور الطفولة البعيدة تلك.
دار الحضانة تلك التي أودعنا فيها الوالدان أنا وعمر، في مبنى تبدّى لي آنذاك هائلاً. لعلّه كان قصرًا لعائلة ثرية استحال روضة للأطفال.
اللعب صباحًا مع بعض الرسم، ثم تناول الطعام فالقيلولة الإجبارية. عشرات الأسرّة الصغيرة (من النوع الذي يُطوى) في قاعة كبيرة مرتفعة السقف جدًا.. والنوافذ التي تكاد لا تنتهي.
أذكر أنني ما كنت أنام، ربما عمر، وكنت أقضي ذلك الوقت مستلقيًا، فالمراقبة لا تسمح بالتحرّك، متأمّلاً السقف وما تيسّر لي من موقعي.
لم يطل المقام في دار حضانة الأغنياء تلك، لأنها كانت تبعد عن بيتنا وكان نقلنا إليها ومنها مرهقًا ومربكًا لوالديّ.
في يوم مغادرتنا قالت إحدى المربّيات لوالدي، وكانت تقصدني، «إنه يحبّ الرسم فاهتمّوا بالأمر».
يبدو أن ذلك الرأي دفع والدي إلى تسجيلي فيما بعد في أكاديمية للفنون وأنا في السابعة من عمري. سبق لي أن تطرّقت لهذا في مكتوب سابق.
قبل ذلك كان شقيقي عمر قد دخل المدرسة، وكان لا بدّ لي من الانتظار سنة ليحقّ لي.
ربما بسبب من الملل أو من قبيل اللعب، كنت أجلس معه لمراجعة الدروس. ما كان يفعل عن رضى بل بضغط من الوالدة التي كانت تراقب دراسته.
وهكذا، عندما حان وقت انضمامي للمدرسة قالت والدتي للوالد الذي أخذني ليسجّلني إنني أعرف جيدًا منهاج الصف الأول. حكى والدي ذلك لمسؤولي المدرسة (وكانت حكومية ولكن غير متخلّفة كمدارسنا!)، فقاموا بامتحاني وبدأت حياتي الدراسية من الصفّ الثاني، بجانب أخي عمر.
ربما حدث في تلك السنة، أذكر أنني أحببت طفلة كانت تجلس خلفي، كان اسمها أدريانا وكانت سمراء، لأنني لا أعشق سوى السمراوات.. ولأنّني مِعشاق! (على وزن مِزواج، وكلا المفردتين لا يتضمّنهما القاموس، لكنهما مفهومتان وأنا أهوى التجديد).
نُقلنا في السنة التالية لمدرسة أخرى فانقطع ذلك الحب الأول.
في خمس سنوات من الدراسة مررت وأخي في أربع مدارس مختلفة. لم أفهم قطّ سبب ذلك.
في المدرسة الأخيرة أحببت إحدى المدرّسات. كانت تحلق شعرها قصيرًا كالصبيان، وكان شديد السواد مشابًا ببعض الشيب. هيفاء القدّ وفي نظرتها شيء ما غامض.. وكأنها ليست هنا.. مثلما كان يحدث لي. لعلّني أحببتها لهذا.
المرة الوحيدة التي تعرّضت فيها لمعاتبة وتعنيف في تلك المدرسة الأخيرة كان في يوم شتائي بارد، رطب وعلى شيء من الضبابية. أذكر البرودة في الركبتين، لأن التقليد آنذاك كان إلباس الأطفال السراويل القصيرة، تحت بدلة المدرسة ناصعة البياض. الجوارب كانت تحمي الجزء الأسفل من الساق.. أمّا الركبتان..
لعلّ النسوة اعتدن تلقّف لسعة البرد في الركب.
توجّهت مع أخي مشيًا، جري العادة، عندما لاحظت بالقرب من المدرسة رجلاً أشيب ملتح يجلس على كرسي من النوع الذي يُطوى وأمامه حامل لوحات «سفري» خفيف، يستعدّ لتصوير منظور الشارع بالألوان الزيتية.. فتوقّفت أرقبه بينما تابع عمر طريقه.
دخلت المدرسة متأخرًا ذلك اليوم، ولذا كانت المعاتبة.
أذكر أنني حاولت تقليد ذلك الرجل الأشيب مرارًا فكنت أعبر الشارع لأجلس في الرصيف المقابل لبيتنا وأحاول رسم ما أراه.
أذكر بجلاء كافة تفاصيل واجهة البيت.
كانت السوسة قد بدأت تتغلغل.. تلك التي أحاول إزاحتها الآن.
من «رسالة في التذكّر». غير منشورة.

نحات وكاتب من سوريا مقيم في غرناطة

علامة قيامة أم نبوءة موت

نجمةٌ في لباب شمس

عبدالرحمن بسيسو

فيما هي تَضُمُّ كفَّها اليُمنى على كيسِ الجواهرِ الأُرْجُوانيِّ وتخطو صوبَ الدَّرج الحجريِّ الصَّغير، أومأتْ سُلافة إليَّ أنْ أتبعها، ففعلت. وسويَّة صَعَدْنَا الدَّرجَ فَصِرنا في وسطِ الشُّرفة، فتقدَّمتْ هي خُطوةً أُخرى لتجلس على أريكة البامبو المزدوجة وتُؤشِّر إليَّ أنْ أُجاورها في الجلوس على الأريكة نفسها، ففعلتْ. وهَأنذا، وأنا أستعيدُ، الآن، بعض وقائع هذه اللَّحظة التي وَقَعَتْ قبل ما يربو على نصف قرنٍ من الزَّمان، أُسْلِمَ نفسي إلى الطِّفل الذي كُنتهُ، والذي كانَ اسمهُ في ذلك اليوم "نَصْراً"، والذي يبدو أنَّه قد أكْمَلَ، الآن، رحلةَ صعوده من أعماقي، فَوصلَ المحطَّة التي أقف "أنا" على رصيفها في هذه اللَّحظة، لأرحّبَ به وأدعوهُ "أنتَ".

هكذا صار بمقدورِ الطِّفلِ الَّذي كُنتُهُ أنْ يُواجهني، وأنْ يمدَّ يده الصَّغيرة لمصافحة يدي التي شارفت خطوط كفِّها الباهتة على زَوَالٍ يُعِيدُهَا إلى صَفاءِ خُطوطِ كَفِّه، وإلى وضوح تفرُّعاتها، وتشابكاتها، ومنحنياتها المتعرِّجة في تداخلٍ صميميٍّ حميم. نعم، لقد صَارَ بمقدور هذا الطِّفل الذي كُنْتُهُ، قبل ما يربو على نصف قرنٍ، أنْ يجلسَ في مكاني، الآن وهُنَا في "براتسلافا"، أمام شاشة كمبيوتر جاءت إليَّ من مُستقبله الذي كانَ ينتظرهُ، وربَّما الذي لا يزال عاكفاً على انتظاره، حتَّى هذه اللَّحظة، في مِسْقَطِ رأسِهِ ورأسي "غزَّة".

ها هو يُجالسني، ليسردَ عليَّ، وعلى من سيقرأُ أو سيسمعُ من النَّاس، ملامحَ مشهدٍ وحيدٍ من حكاية طويلةٍ سيقولها ما سيكتبُهُ بأطراف أصابعه، أو ما سيرويه بلسانه وصوته، ليُضيء تلك اللَّحظات الحارقة التي كانَ لهُ فيها أنْ يقرأ ما دُوِّن من أبياتِ شِعْرٍ أُوحِيَ بها إلى أبيه الذي هو، أيضاً، ومنذُ ما قبل لحظة الميلاد، أبي، فنطقها لسانُهُ، لِتُدَوِّنها ابنتهُ سُلافةُ، التي هي شقيقةُ مُجالسي وشقيقتي أيضاً، على ورقةٍ بيضاءَ في دفترها الصَّغير، فيما الأبُ، المُوْحَى إليهِ بِهَا، يَبُثُّهَا، عبر صوته الجهوريِّ ذي الرَّنين الجاذبِ، في أُذنيها، وفي فضاء فجر اليوم الذي كانَ هو، بحسب نُبوءة الوحي، آخر يومٍ في مَسار حياته، وأعلى ذروةٍ أدركتها خطواته الواثقة في منحنى وجوده المُحدَّد بفترة وجيزةٍ، كرفَّةِ عينٍ، في دروبِ الحياة!

***

يا إلهي .. عجِّلي يا سُلافة وأخْرِجي وَرَقةَ النُّبوءَةِ الغَامِضَةِ من داخل هذا الكيسِ المربوطِ إلى حَبْلٍ أُرْجُوَانِيٍّ يُطوِّق عُنقك مُزَيَّناً بِخَمْس خَرَزاتٍ من عقيقٍ أَزْرَقْ.. أَخْرجِيهَا.. وإليَّ بهَا.. إليَّ بهَا.. إليَّ بهَا لعلَّ لِمَا فِيْهَا مِنْ كلماتٍ أنْ يُطْفِئ هَواجسي فَيُهَيئنِي للتَّهيُّؤ لشطحة "شمِّ النَّسيم"، أو لعلَّهُ يَجْعَلُنِي أَشْرعُ في شَمِّ هذا النَّسيم مِنَ الآن.. أو لعلَّهُ يُمَكِّنُ أُسْرَتَنا بأسرها مِنْ أنْ تَشُمَّ، كما قالتْ أُمِّي هذا الصَّباح، بعضَ النَّسِيم في هذا اليوم المُسَمَّى، منذُ أوَّلِ شهقة عبرتْ رئةَ الحياة إلى آخر زَفْرةٍ سَتَخْرجُ مِنْهَا، "يومَ شَمِّ نَسِيمْ"!

بِطَرفي إبهام كَفِّها اليُمْنى وسَبَّابَتِهَا، سَحَبَتْ سُلافةُ الورقةَ مِنْ قَلْبِ الْكِيسِ، وَشَرَعَتْ تَفْتَحُهَا وهي تَعِدُنِي أَنْ تُسْمِعَني، بِصَوتِها المسكونِ بصوتِ الوحي السَّماويِّ مَحْمُولاً على صَوتِ أبي الشَّيخ الأزهريِّ، النُّبوءَةَ التي هَبَطَ بها الوحي عِنْدَ الفَجْرِ، فَجَرتْ على لسانِ أبي أبياتاً مِنْ شِعْرٍ أَمْلاها عَلَيهَا، فَدوَّنتها على ورقةٍ بيضاءَ في دفترها الصَّغير.

تَفَجَّرتْ يَنَابِيعُ عَينَي شقيقتي الواسعتين جداولَ دُمُوعٍ سَاخِنةٍ تُشَقِّقُ الرُّوحَ، وتُطْفئ مَناراتِ الضَّوءَ، وشَرعَ صَوتُها الحزينُ، الآسي، مُجَرِّحُ النَّبراتِ والرَّنين، يبثُّ في الفضاء أثيرَ كلماتِ "نبوءَةَ موتٍ" جاءتْ مَحْمُولةً على جناحيِّ طائرٍ سَماويٍّ رَفْرَفَ فوقَ رأسِ أبيها عِنْدَ الْفَجْر، نازلاً بوحي يحملُ قَبَسَ صفحةٍ من كِتابِ السَّمَاءْ:

أَرَى الدَّهْرَ إنْ صَارَعْتَهُ فَهْوَ صَارِعُ
وَهَلْ يَصِلُ الإنْسَانُ واللَّهُ قَاطِعُ

بشرى مصطفى

أَقُولُ لِعَينٍ لا تَمَلُّ بُكَاءَهَا
لكِ اللَّهُ مَا تُجْدِي عَلَيكِ المَدَامِعُ
ونَفْسِي أَبَتْ إلَّا مَقَاماً عَلَى الأسَى
رُوَيْدَكَ هلْ ما فَاتَ بالحُزْنِ رَاجِعُ
إِذَا أَمْسِكتُ عَينِي بِفَضْلٍ مِنَ الْكَرى
تَمَنَّعَ أَمَّا سُهْدُهَا فَيُطَاوِعُ
وَمنْ عَرَفَ الأيَّامَ مَعْرِفتي رَأى
مَنايَاهُ عن تلكَ المُني وهيَ وَازِعُ
تَبيَّنتُ قبْرِي في القُبُورِ ومَنْ رَأَى
بِعَيْنِي رَأى اللَّذاتِ وَهْيَ مَصَارِعُ

ما إنْ نطقتْ سلُافةُ، والدَّمعُ ينهالُ سَخِيَّاً سَاخِناً من جَمْرتي عينيها، الجُمْلَةَ الفعليَّةَ التي تفتحُ، في اكتمالِ أركانٍ ووضوحِ مَقْصَدٍ ومَعْنَى، مطلعَ صَدْرِ البيت الأخير: "تبيَّنتُ قبري"، حتَّى شَقَّتْ صَدري شهقةُ موتٍ أَحْسَسْتُ أنَّها تُمَزِّقهُ وهي تَدْفعُ رأسيَ إلى الخَلْفِ لترطُمَهُ بحديد قفصِ شُبَّاكِ الغرفة المُطلَّة على الشُّرفة، والذي تحتهُ، بالضَّبط، يجلسُ كلانا على كنباية البامبو المزدوجة.

نَهَضَتْ سُلافةُ وأَمْسَكَتْ بيديَّ الاثنتين لتحول دوني والإقدام على أمرٍ اعْتَدْتُ ألا أجدَ مناصاً منه متى قَبَضَ على خِنَاقي ضيقٌ لا يُردُّ إلا به. فما إنْ أَيْقَنَتْ أنني قد اسْتَعَدْتُ بَعْضَ تَوازُنِيِّ

النَّفسيِّ والجَسَديِّ، حتَّى راحتْ تتحسَّس مُؤَخَّر رأسي لِتَتَفَقَّدَهُ عَنْ كَثَبٍ فَتَتَيَقَّنَ أنَّهُ سَلِيمٌ وأنْ لا دمَ ينزفُ من جُرحٍ فيه، أو لتتصرَّفَ وفْقَ مُقْتَضَى الحَال. وإذْ أَدرَكَتْ شقيقتي أنَّ ما أصابَ مُؤَخَّر رأسي لا يعدو أنْ يكونَ إلا رضَّاتٍ ستتلاشى عمَّا قريبٍ دونَ أنْ تتركَ أثراً، سألتني إنْ كانت هذه الرَّضاتُ تُؤلِمني، فأجبت نافياً، بِحَسْمٍ قَاطِعٍ، أنْ يكون ثمَّة من شيءٍ ظاهريٍّ يُؤْلِمُني!

ولعلِّي أُفكِّر الآن، وأنا جالسٌ لأكتب، أنَّ "شَهْقَةَ الموتِ" التي لَمْ تُمِتْنِي مُكْتَفِيَةً بِكَدْمِ مُؤَخَّر رأسي لِتُوَقِّعَ بصمتها عليه رُضُوضاً أصابتْ بها الأنسجة القابعة تحت جِلْدَتِهِ المحميَّةً بصلابة عَظْمِه، وبكثافة الشَّعر الأسود الذي يُغَطِّيهِ، قَدْ جَعَلَتْ سُلافةُ تُشْفِقُ عليَّ، أو تَشْعُرُ أَنَّهَا في حَاجةٍ لأنْ تُكَافئني على عِنادي وصَبْري وصَلابة رأسي، فَسَلَّمَتْنِي الورقةَ التي مَكَثْتُ أَبْحَثُ عَنْها، وأُلاحِقُهَا، لِأَخْذِهَا مِنْهَا، مُنذُ مَطْلعِ الْفَجْر!

***

بين إبهام وسَبَّابة كفِّي اليُمْنَى مَفْتُوحَةٌ هي الآن، وها هي تتمدَّدُ أمام عينيَّ الدَّامِعَتينِ بِصَمْتٍ كَظِيمٍ لا يَسْكُبُ على الخَدَّينِ دَمْعَاً! وها هي تَرْتَسِمَ في مُخَيِّلَتي قِطْعَةً من قِمَاشٍ حَريريٍّ شَفَّافٍ، نَاصِعِ البياض؛ قطعَةً من حرير لا يُشبهُ حريرها إلَّا ذاكَ النَّاصعِ الشَّفاف الذي كانَ الشُّيوخُ، وكبارُ المُتَصَوِّفة، يَلُفُّونهُ حولَ طربوشٍ أُرجوانيِّ اللَّونِ، لِيُشَكِّلوا، بحبٍّ لافتٍ وإتقانٍ فريد، اللَّفَّةَ الكبيرةَ البيضاءَ التي بها يُتَوِّجُونَ رأسُ أبي.

تَمَدَّدَتْ قِطْعَةُ الحَريرِ، أكْثَرَ فَأَكْثَرَ، أمامَ عينيَّ، فصَارتْ بِوسْعِ السَّماءِ واكتست لونها الأزرقُ الصَّافي. وفي وسط هذه السَّماء التي أُبْصِرُها الآن، كَمَا كُنْتُ قَدْ أَبْصَرْتُهَا في صباح السَّادس والعشرين من نيسان (أبريل) من العام خمس وستين وتسعمئه وألف، تَوَهَّجَتْ الجملةُ المفيدةُ، ذاتُ الدَّلالة الواضحة والمقصد السَّاطع والمغزى العالي: "تَبَيَّنْتُ قَبْري" وقد أحاطت بها، من كُلِّ جانبٍ، غيومٌ خضراءُ تُبرقُ بأنوارٍ تأخذُ البصرَ، وفي مُقَدَّمِ رأس كُلِّ غيمةٍ منها عبارة: "كِتَابُ السَّماءْ"! فهل هذه علامةٌ أُخْرى من علاماتِ "قيامة أبي" التي اخترقت أصواتها مسامعي وتواترَ ظهور صُورها أمام عينيَّ منذْ أصيل الأمس؟ أم إنَّها إشارةٌ سَماويَّةٌ تقولُ إنَّ أبي راحلٌ، اليَومَ، إلى مدارٍ وجوديٍّ آخرَ لا يتجلَّى وجودهُ الحقُّ إلا في رحاب فضاءاته المفتوحة على فضاءاتٍ مفتوحةٍ على الأبد؟!

شَعَرتْ شقيقتي أنني قد ذهبتُ في سَرْحةٍ بعيدةٍ تُحَاكي سِرْحَاتِ أبي، فهزَّت كتفيَّ قائلةً: هَا هِي الورقةُ في يَدِكْ، فاقْرَأْهَا، فَانْتَبَهتُ، أو لَعَلِّي أكونُ قد خرجتُ من غَفوة طالتْ دُهُوراً وتَمَدَّدَتْ في ما لا يُحْصَى من الدُّهور لتضعني في مدارات وجودٍ لا يبدأُ، ولا ينتهي، ولا يتناهى. ولَعَلِّي أَكُونُ قد أَشْفَقْتُ على نفسي، وعلى شقيقتي، في ذلك اليوم النِّيساني القاسي، الجليل والنَّبيل، إذْ امْتَنَعْتُ عن أنْ أَردَّ على دعوتها لي بقراءة الورقة بالقول "قرأتها في كِتابِ السَّماء"، "قرأتُهَا في كِتابِ السَّماء"، وإذْ لُذْتُ بالصَّمْتِ الجارحِ وأنا أَنْهَضُ واقفاً على قدميَّ مُكتفياً بإشارةٍ تُومئُ إلى أنني سَأَشْرعُ في القِرَاءةِ لأَحْفَظَ، عن ظَهْر قَلْبٍ، نُبُوءةَ السَّماءِ!

عاجلتني سُلافة، وأنا أنهضُ لأخطو صوب غُرفة النَّوم، بقولها "انْتَظِرْ، فَلَدَيَّ ما أبوحُ به إليكْ، ولكنْ احْلِفْ بِحَياةِ اللهِ وَحَقِّ رأسِ أَبِيكَ أَنَّكَ ستُعِيدُ الورقةَ إليَّ فَور انتهاءِ حَاجَتِكَ إلى الاحْتِفَاظِ بِهَا. أنتَ تعلمُ الآنَ أَنَّني سأحتاجها بعد قليلٍ، إذْ سيأتيني أَبُوكَ ليطلبَ مِنّي تدوين المزيد من الأبيات التي سيُعَاودُ الوحي الهبوطَ بها عليه، أو لعلَّ ذاكرتهُ منقطعةُ النَّظير قد اختزنت جميعَ الأبياتِ التي أجراها الوحي على لسانه فجرَ هذا اليوم، فأملاها عليَّ ولمْ أُدَوِّنُهَا لسببٍ سأُطلعك الآن عليه، فَلْتُعد إليَّ الورقة التي هي بحوزتك الآنَ، فور فروغك من الحاجة إليها، لأنِّي أُفضِّلُ، لأسبابَ عديدةٍ، مُتَابَعَةَ الكتابةِ على الوَرَقَة نَفْسِهَا.

***

ما إنْ استجبتُ لطلبِ سُلافة وحَلَفْتُ "وِحْيَاتْ أَلَّهْ أُوْحَقْ راسْ أَبُويَهْ رَحْ أَرَجِّعْ الوَرَقَة"، حتَّى اطمأنَّتْ، وراحت تَبُوحُ إليَّ بما احتفظت به لنفسها لساعاتٍ طِوال "في الفجر، حينَ أملاني أبوكَ البيت السَّادسِ، والأخير من المقطوعة التي دوَّنتُها، والذي يبدأ بـ"تبيَّنتُ قبري"، أَمْسَكَ بيدي جُمُودٌ خشَّبَهَا، أو لعلَّة جَعَلَهَا قطعةً من حَديدٍ جَمْريٍّ مُسْتَعرِ اللَّهيب، فبالكاد أَكْمَلْتُ تدوينَ هذا البيت حتَّى عين قافيته "مَصَارعُ". لقد شَعَرتُ حينها أنَّ نارَ يَدي الحديديَّة المُلتهبةِ قد رمَّدَتِ القَلَمَ الذي تَحْمِلُهُ أصابعي المحروقة، ثمَّ رمَّدتْ أصابعي، فلم أتمكَّن من الكتابة. حِينَهَا قُلْتُ لأبي: هَلَّا تَوَقَّفْتَ عن إملائي مِثْلَ هذا الشِّعر؟ أَتوقظني عندَ الفجر لأكتبَ في دفتري "تبيَّنتُ قبري"، وغيرها وغيرها من جملٍ وعباراتٍ تقول إنَّني أُدوِّنُ الآنَ قصيدة "رثاء ذات"؟! أبي أنتَ أعْلَمُ العُلمَاءِ بأغراضِ الشِّعر، فَأَمْليني، بِرَبِّكَ، قصيدةً في غرضٍ آخر، في الغزلِ مثلاً، في الاعتزاز والفخر، في التَّأمُّل والتَّفَلْسفِ، في الوصفِ والمدح، في الاعتذار النبيل والصَّفْح الجميل، أو حتَّى في التَّقريعِ والهَجَاءِ، أو في الرَّثاء بإطلاق، ولكن ليسَ في "رثاءِ الذَّات"، ليس في "رثاء الذَّات" يا أبي، ليسَ في "رثاء الذَّات"، أبداً.

صَمَتَتْ سُلافةُ قليلاً لِتُمَرِّرُ إلى أَعْمَاقِ رئتيها شَهَقَاتٍ مُتَواتِرَةٍ من نَسَائِمِ هَواءِ الصُّبحِ، ثمَّ تابعت: انفجرتْ جَمَراتُ عُيُوني في بُكَاءٍ حَارق، فَأَخَذَني أبي بين سَاعِدَيهِ وضمَّني إلى صدره، وراحَ يَمْسَحُ بكفِّيه دُمُوعي، ويُرَبِّتُ على كتفي، ويُقَبِّل جبيني، وهو يقول "البكاءُ لا يُجدي يا ابنتي، فأوقفيه.. والدَّمعُ لا يُجْدِي، فكفكفيه.. لكِ الله يا ابنتي.. وكَفَي اللهُ كلَّ عينٍ لا تَمَلُّ بُكاءَها". وكي يُعيدني إلى توازني مُطْفِئاً حُرْقَةَ قلبي ومُكَفْكِفَاً دَمْعِي عبر تخفيف وقع اعتراضي على تدوين أبيات شعريَّة في "رثاء الذّات"، أوضحَ لي أبوكَ أنَّ هذا الذي أملاهُ عليَّ هو ما جادت به القريحةُ الآن، وهو ما هبطُ به الوحيُّ ليمليه على القريحة واللِّسان، وأكَّدَ لي أنني سَأجِدُ ما يَروقني من الشِّعرَ في أبياتٍ أخرى سيمليها عليَّ، بعد قليل، شريطة أنْ أُدوِّن ما أسمعُ بدقَّة وسرعة تناسبان دقَّة الإملاء وسُرعته.

تابعت سُلافةُ وهي تَفْرُك أَصَابِعَ كفِّها اليُمْنَى كأنَّما تُهيِّئُهَا لمتابعة التَّدوين، سألتُ أبي: وهل ثمَّة من أبياتٍ كثيرةٍ ستأتي، أجابني بقوله "نعم يا لُولُوص، نَعَمْ يا سِتْ لولوص، سَأُكملها إلى مئة بيتٍ، إلى مئة بيتٍ، ولكنْ، بالطَّبع، إِذَا شَاءَ اللَّهُ؛ إِذَا شَاءَ اللهُ؛ إِذَا شَاءَ اللهْ".

ما إنْ نَطَقَت سُلافةُ الجملة الأخيرة: إِذَا شَاءَ اللَّهُ، حتَّى وجدتني أبْصِرُ وجه أبي يتوهَّجُ، في مُخيِّلتي، بأنوارٍ سَماويَّةٍ تُحَاكي أنوار وجدانه الإنسانيِّ الصَّافي، وعقلهِ المُتَنوِّر الرَّحب، وقلبه الواسع النَّبيل، وهو يَنْطِقُ هذه الجملة "إِذَا شَاءَ اللهُ"، ضاغطاً على كُلِّ حرفٍ فيها، وعُيُونُه تَرنو إلى أعلى أعالي السَّماء، فيما يداهُ، مفتوحتا الكفين، تَصْعدانِ فضاءَ ذلك العُلوِّ العَالي، فتُلامِسَا بأطراف الأصابع لبابَ الشَّمس، لِتَجْعَلانِي أَشْهَقُ مُنادياً "أَبِي" بصوتٍ يُحَاكِي صوت أَبِي: أبي، كفَّاكَ غَيمَتَانِ خَضْرَوانْ، وأَصَابِعُكَ الخَمْسَةُ نَجْمَةٌ في لُبَابِ شَمْسْ!

***

ربَّتُ، بمودَّة لا تتناهى، على كتفِ شقيقتي، وضَمَمْتُهَا إلى صدري، فراحتْ تَمْسَحُ بكفِّها اليُمْنَى رأسي، وتُلامسُ، برهافةٍ، الرُّضوض التي ليَّنتْ، فيما حسبت، صَلابةَ قشرته إذْ خَدَشتهُ لِتُسْكِنَ في قشرته من الوجعِ ما يُشَتِّتُ الوجعَ السَّاكن في مركزه والذي لا ينبعُ من شيء سوى توالي ظهور العلامات التي تقولُ إنَّ هذا اليوم النِّيساني الأسود، هذا الاثنين الحزين، هو "يومُ قيامة أبي"!

وَضَعْتُ الورقة في جيب بيجامتي، وذَهبتُ من فوري إلى الحَمَّام، فوضعتُ رأسي أسفل الحنفية التي تتوسَّطُ الحَوضَ الرُّخاميَّ العريضَ وفتحتُها على وُسْعِهَا، فَتَدفَّقَ الماءُ سخيَّاً بارداً ومُنْعِشَاً، فأطفأ بعضَ جمراتِ الهواجسِ وأوجاعِ الرُّضُوض التي أشعلتْ وجداني وشقَّقَتْ رأسي. تَوضَّأتُ، تحسباً من أنْ يصطحبني أبي معه إلى المسجد العمري الكبير الذي سَيَؤمُّ في رحابة المُصَلِّينَ صَلاةَ الظُّهر. أَخَذْتُ مِنْشَفةً بيضاءَ من داخل خزانةٍ حديديةٍ تقعُ بجوار الحوض، وتيقَّنتُ أنني أُغادر الحمَّام بلا ماءٍ قد يَشُرُّ من أطرافي لُيبلِّل بلاطَ البيت، وأنَّ كفَّيَّ جافتان فلا تُبللان الورقة التي سَأُخْرِجَها الآنَ من جيب البيحاما لأتابعَ حِفْظَ النُّبُوءة التي تحتويها عن ظهر قلب!

فادي يازجي

وَجدتُني أَتَمَشَّى في غُرفةِ النَّوم، جيئةً وذهاباً بين الأسِرَّة الحديديَّة المستلقية على جانبيها، وأنا أُكرِّر، بصوتٍ خفيضٍ، قراءةَ الأبياتِ السِّتة، عَشْرَ مرَّاتٍ لُكلِّ بيتٍ، مُركِّزاً في النِّهاية عِنْدَ حاجتي إلى حفظ توالي "الفَواتِحِ"، أي الكلمات الأُوَلْ في هذه الأبيات، كي لا يَسْقَطَ من ذاكرتي، أو من القوَّة الحافظة في عَقْلِي، بيتٌ منها. وبغية ترسيخَ الحِفِظِ للتأكُّد من أنَّ هذه الأبيات ستُرافقني على مدى العُمُرِ، وعبرَ كُلِّ مُنحنىً من مُنْحَنَياتِ الحياة، التقطتُ من الدَّرْج العلويِّ لمكتب خشبيٍّ قديمٍ قائمٍ على الجهة اليُسرى من باب الغرفة، قَلَمَ رصَاصٍ سَمِيكَ اللُّبِّ وذا لونٍ غامقٍ، فبلَّلتهُ بريقي معتقداً أنَّ هذا سيُصَعِّب إزالة ما سأكتبهُ من كلماتٍ على جِلْدٍ بَاطِنِ كَفِّيَ الْيُسْرَى.

جلستُ على ذلك الكُرسيِّ وشرعتُ أكتبُ بخطٍ يُحاولُ تقليد خطِّ شقيقتي سُلافة، ذاك الرَّشيق الأنيق، والمقروء بوضوحٍ ساطع: أرى؛ أقولُ، ونفسي، إذا، ومَنْ، تبيَّنتُ. وإذْ وجدتُ أنَّ الفَواتِح لا تكفيني لأتذكَّر بقيَّةَ صَدرِ البيت الشِّعْريِّ وتَمَام عَجْزِه، ارتأيتُ إضافة بعضِ الكلمات الثَّواني، فَحَصَلْتُ على ما يُشبه بيتاً مُفكّكاً مِنِ الشِّعرِ غير أنَّهُ يَسْهُلُ عليَّ حفظه: أرى؛ أقولُ، ونفسي أبتْ، إذا أمسكتُ، (ثُمَّ) ومَنْ عَرفَ، تبيَّنتُ. وهكذا مَيَّزتُ الأربعة الأبيات الأولى ببنية إيقاعيَّة ليس لَوَقْعِها أنْ يكفَّ عن ترسيخ حضوره في نَفْسي، وأبقيت البيتين الأخيرين في بنية ذِهنيَّة تصوُّريَّة تَفْتَحُ أَقبيَة الأرض على قباب السَّماء، فلا تقولُ لي مِنْ شيءٍ سوى أنَّ أبي سَيَنْهضُ، هذا اليَومَ، إلى قيامته!

***

تَهَيَّئتُ للذَّهاب مع أبي إلى سوق الزَّاوية المُجَاورِ للمسجد العِمَريِّ الكبير وقَصْرِ البَاشَا، وجَلَستُ عند حافَّة شُرفة البيت الأماميَّة، فوقَ أعلى درجةٍ من درجاتِ الجهة اليُمْنى من الدَّرج الحجريِّ المزدوج، المُفْضِي نُزُولُ درجاته إلى "شارع النَّصر"، مُنتظراً قُدومَ أبي. وإذْ كُنتُ قيدَ انتظارٍ ذِي أَمَدٍ غَيرِ مَعْلُومٍ، رُحْتُ أُتابعُ، بوتيرة تفصحُ عن توتُّرٍ فادح، فَتْحَ كَفِّ يَدِي اليُسْرَى وقَبْضِهَا، لأُؤْخَذُ تَمَامَاً بِمَا تُطْلِقُهُ الْكَلِمَاتُ الْمَرْقُومةُ على جِلْدِهَا من هواجسَ وتَهيُّئاتٍ وصُورٍ تَغمرُ وجْدانيَ، ولا يغيبُ عن أيٍّ منها وجهُ أبي الذي أنتظرُ إطلالته لِأَمْضِي في مَعِيَّتِهِ!

ناقد وشاعر من فلسطين مقيم في براتشسلافا

رهاب الماء

عبداللطيف محفوظ

لم أولد بمدينة فاس، مع ذلك لا أحب غيرها. أعُدُّها مدينتي (ولو كره الكارهون، وتَقَوّل العنصريون)، فإذا لم يكف أنني عشت فيها صباي وطفولتي، فهي مدينة والدي وخمسة من أسلافي.. في مدينتها القديمة ترعرعت ولعبت وتربّيت، ووعيت ذاتي والعالم من حولي. لذلك كلما استحضرت الماضي البعيد حلّت في ذهني، فتراكبت الذكريات مع أبوابها وأزقتها وحدائقها. بيد أن أكثرها وقْعا وتأثيرا تلك التي ارتبطت بحادث البِرَكةِ بحديقة «جنان السبيل».

كنت في شهر أغسطس من سنة 1968 في الثامنة من عمري، وكان صيف ذاك العام حارا، لذلك عملت العديد من الأسر على الاستعداد مبكرا لرحلة الصيف إلى شمال المغرب.. أما أسرتي فلم يكن بإمكانها تقليد تلك الأسر التي اعتادت على حزم حقائبها ولفّ أغراضها من لحاف، وبسط، وأوان في رزم وسلال وعلب كارتون، متوجهة إلى مدن الشمال لقضاء شهر أو أقل؛ كل واحدة حسب إمكاناتها. حيث لا تعود ترى، في أيام الشهر الأولى، إلا الحمير والبغال وهي تحمل الأمتعة متجهة نحو محطة أبي الجنود. وطوال الأيام التي تسبق السفر تخفت رغبة أبنائهم في اللعب، وتكثر سخراتهم، فيمرون بنا، على غير العادة، غير عابئين بلعبنا، مسرورين فرحين بوعد الشواطئ وحمامات الشمس ومداعبة الموج. أما نحن المغلوبين، فنلعب، في تلك الأيام، بلا حماس؛ إذ يصير مجرد مداراة لحزن نابع من فراق أصدقاء أعزاء، لذلك كنت أتملّى وجوههم الطافحة بالحبور وبالكثير من الغبطة التي تعزّي حسرتي..

لكن حالما يتناقص الأصدقاء بالدّرب نستعيد مرحنا، ونعيد الحياة إلى لَعِبِنَا، وفي المساء حيث السمر في زوايا الحي، على عتبات البيوت المهجورة، يصرّح البعض أن رحلة الشمال قد خلصتنا من شركاء لعب فاشلين، ويصرّح آخرون أن اللعب في غيابهم بلا طعم.. نختلف، ثم نتوافق..

لم تكن كل فترات النهار صالحة للعب، وبخاصة ساعة العصر وما بعدها. لذلك كنت أفضّل أن أتجوّل في المدينة متوجّها تارة إلى ساحة باب الفتوح التي كانت في محيط مقبرة قديمة تبدو بعض مقابرها مجرد ثقب تصلح بيوتا لحيوانات ضارية.

كانت الساحة بين باب الحمراء وضريح سيدي علي بوغالب الذي اشتهر موسمه بختان أطفال المساكين وفق طقوس الختان الأرستقراطي، وبها يوجد فضاء للحلقات الشعبية لرواية القصص، حيث هناك من يروي سيرة ذي يزن، ومن يروي سيرة علي بن أبي طالب، ومن يروي سيرة حمزة البهلوان.. وتارة أتوجّه إلى ساحة أبي الجنود أو باب المكينة، حيث حلقات متنوعة بين حلقة (الأقرع الملاكم) الذي يصنع الفرجة بتوريط متفرجين في نزال، ليعمل على مضاعة فرجة مشاهدة النزال بالتعليق الساخر من اللكمات العشوائية لمتنافسين بلا تجربة. وحلقة السرد العجيب ذي التوجه السوريالي المنضد على الواقع اللغوي والمعيشي؛ ومن أبقاها في الذاكرة محكيات (البزاويز) الذي يفسر الأحلام بشكل ساخر، ويربط كل التأويلات بكلام نابي وساقط يجعل كل امرأة وقفت وهي لا تعلم بمضمون الحلقة تفز، وقد غطت وجهها، تاركة شلالا من الضحك.. وحلقة السحر المحيرة التي يجلب فيها (سي موسى) قنينات المشروبات والحلوى.. وحين يصيبني الملل من التحلق، أذهب أبعد أكثر إلى حديقة «جنان السبيل» التي تفصل بين المدينة القديمة وحيّ فاس الجديد الذي بني في عهد الدولة المرينية. وهي أقدم منتزه بالمدينة، وأكثرها شساعة، بها أشجار فريدة وممرّات ظليلة تنعش الروح، وتمنح الملاذ الرخي من قيظ فاس. يعبر هذه الحديقة وادي الجواهر الذي توزع مياهه عبر شبكات متقنة من خلال قنوات مركزية بكل درب. كنا نسميها (المعدة)، ربما استعارة لكثرتها وتشابكها. وعند مخرج الوادي من تحت السور الجنوبي الشرقي للقصر الملكي تنتصب ناعورة أثرية لا زالت، لحدّ الآن، ترفع المياه وتوزّعها، شاهدة على مجد غابر. وفي نهاية مجرى الوادي بالحديقة وسع المسؤولون المجرى وعمّقوه حتى صار مثل بركة اصطناعية تنتهي بفتحة في حدود المترين، مسقوفة برصيف ضيق للمارة من غير حاجز جانبي. يتدافع الماء بقوة، في الفتحة، محدثا صوتا صاخبا وهو يصطدم بأعمدة حديدية وضعت، لا شك، لتمنع مرور الأجسام الكبيرة، لينساب تحت البنايات.

في غفلة من المسؤولين، أو بتواطؤ منهم، حوّل أبناء الأحياء المجاورة لجنان السبيل هذه البركة إلى مسبح، يرتمون فيها ويسبحون متضاحكين سعداء.. وأنا الطفل الغرّ الذي يعرف الموت والغرق ولا يعرف السباحة، أقف جوارها، ذات أصيل، أتفرّج على الأطفال يقفزون مرحين، إذا بطفل يدفعني في غفلة مني بقوة نحو البركة، كانت الدفعة مفاجئة وقوية لم أستطع معها التماسك فارتميت في البركة، وأنا لا أفكر إلا في الموت الذي سَيَتَخَطّفُني. غيبتني الارتماءة المفاجئة عن الوجود، لذلك لم أعلم ما الذي جرى في تلك الثواني إلا من خلال ما سمعته لاحقا ممّن أنقذوني. فهمت من حكيهم لماذا لم أغرق؟ فقد سقطت قريبا جدا من الجسر المغطى حيث الاندفاع القوي للماء، وبعفويتي الفطرية كنت أصرخ وألوح، بشكل عشوائي، بيدي، الشيء الذي جعلني في ثوان أصل إلى بوابة النفق تحت الجسر، ولم يستطع أحد من الأطفال اللحاق بي لخطورة الانحدار، لكن صياحهم جميعا جلب كل المتنزهين بالأماكن القريبة، فأقبلوا يعدون..

لا أذكر شيئا عن الثواني الفاصلة بين سقوطي ولمس الحديد لجسدي، فسلوكي في تلك الثواني لم يكن صادرا عن وعيي الذي لم أسترجعه إلا لحظة التماس... لكنّني أذكر كيف تشبّثت بالعمود الأفقي الأعلى بقوة تفوّق طاقتي، وقد عاد الوعي الصافي إليّ، وأنعشتني جلبة قادمة، فظللت أقاوم تيار الماء وغمره لي بمحاكاة الرياضيين وهم يقوّون سواعدهم عن طريق التشبث بعماد عال والارتقاء بالجسد إلى الأعلى بشكل متكرر. مرت اللحظات كأنها الأبد.. وفجأة أحسست بيدين قويتين تشتبكان تحت ذقني وتحيطان قفاي، وتجذباني إلى الأعلى.. اختلطت عليّ مشاعر الفرح والخجل والخوف والحقد على الفاعل.. ونسيت حتى واجب شكر ذلك الشاب الذي أدين له بالحياة. وقد بلغني فيما بعد أنه انبطح على بطنه وتدلى بنصفه الأعلى لإنقاذي، وساعده أربعة شبان بالجلوس على ساقيه وفخذيه لكي لا يسقط هو الآخر، وإلى جانبه آخرون، أحدهم هو من تسلمني منه..

وبين لحظات إخراجي من الماء ووقوفي على رصيف الجسر سمعت كلاما كثيرا: من يحمد الله على سلامتي ومن يلومني ومن يشتم الطفل الذي دفعني بعد أن سمع الحكاية... حالما خرجت من دهشتي، هربت من خجلي وخوفي تاركا ورائي تعليقات سمعتها في الأيام اللاحقة في الحيّ، لم أتوقف إلا وسط بيتنا مرتميا في أحضان أمي التي سألتني بخوف عن سر البلل، فقلت لها، كي لا أحرم من جولاتي: وأنا عائد من التبرك بزيارة ضريح المولى إدريس شعرت بالعطش فأردت أن أشرب مباشرة من سقاية النجارين، فسقطت في حوضها. لا متني وغيّرت ملابسي. ومنذ ذلك اليوم أُصِبْتُ بِرُهَاب الماء، ولم تعد تفارقني صور الموت كلما رأيت بِرْكة أو سدا أو نهرا.

كاتب من المغرب

لؤي كيالي

اللون الأخضر والفقد

عبدالله مكسور

في الربع الأول من عام 1991، لا أذكر تحديداً تاريخاً حقيقياً لذلك، كلُّ ما تناهى إلى أذنَيّ كانت أصواتٌ ممتزجةٌ بحرفيّةٍ عاليةٍ بين الصراخ والبكاء والعويل، أصواتٌ تتعالى في الأزقة القديمة للقرية التي كانت شاهدةً على المجازر العديدة قبل عقد واحد من انطلاق الأصوات.

طيْبةُ الإمام المكان الجغرافي الذي شهدَ ولادتي فأقدمُ مشهدٍ في ذاكرتي الشخصية الجمعية يعودُ إلى مطلع 1985 وصورةِ جدّي الأول لأبي ممداً على الخشبةِ الصمّاء جامداً بعد أن شهدَ السفربلك والمملكة العربية السورية والوجود الفرنسي وعصر الاستقلال والانقلابات المتعددة وصولاً إلى حكم البعث وما تلاه من مصادرةٍ لكل شيء، جدّي لأبي الذي رحَل بصمت عقب المذبحة الكبرى، ظلَّ غائباً عن كلِّ شيء منذ أن انقلبت البندقية نحو صدر الشعب وغاب على إثرها الكثير من شباب قريتنا، قصصٌ تتناسخُ من بعضها البعض، واحدةٌ هي صورةٌ طبق الأصل للأخرى، تلك القصص ظلّت طيّ الكتمان، نتداولُها بلغة العيون في المدرسة بين طلّابٍ وُلدوا صباح الليلة التي شهدت المذبحة، كان المعلّم الغريبُ عن قريتنا مثلاً يسألُ طالباً عن اسمه فيجيب: محمد، فيسألُ المدرس عن اسم الأب فيقول الطالب: محمد، وأمام دهشة تكرار الاسم بين الولد والوالد يُدرِكُ المعلّمُ أنَّ هذا الصبيَّ حمَل اسم والده دون أن يراه!

ذلك الجيل عاش حاملاً ألم الفقد الذي اختزَلَهُ بكلمات قليلة: الدولة أخذَت أبي!

عشر سنوات تقريباً والغياب يفرض سطوته دون أن نعي لماذا، فآثار الرصاص المزروع عنوة على الجدران كان كفيلاً بالحديث عن أسرار تلك الأيام التي هزّت محافظة حماه وضواحيها وسط سوريا، نمشي بين الخراب الماثل في كل خطوة ونتعلّم الصمتَ بعد أن قضينا سنواتنا الأولى نتعلّمُ الكلام، هي دهشةُ البحثِ عن سبب للأصواتِ التي انطلَقت في الربع الأول من عام 1991 حين أفرجت الأجهزةُ الأمنية بعفوٍ رئاسيٍّ عن المسجونين الأبرياء.

الصباحات التي كانت تتشابه فيما بينها باللاجدوى، صارت ذلك اليوم تستنهضُ الفرَح من ألسنةِ النساء اللواتي ما فتئن يتناقلنَ الخبر بخروج «أبو الأيهم»، أبو الأيهم كان عمي لأبي وبالصدفة حمَلتْ اسمهَ قبل الغياب بقليل، ركضتُ أسارع الخطى نحو بيتِهم لأرى تجمهر الناس هناك، الدموع في كل عين، سنواتٌ من القهر مضَت تقتلها زغاريدَ وأحضانٌ وأسئلةٌ واضحةٌ تنتظرُ إجابات عمياء، وحدها الإجابات عمياء في كل ذلك الوضوح المعقَّد، يتهامسون خوفاً ويبكون خوفاً ويبتسمون خوفاً، يتداولون أحداثاً عِجافاً في سنوات عِجاف، كنتُ أقفُ عند عتبة باب الغرفة الكبيرة أرقُب العيون الزائغة، دخان السجائر رخيصة الثمن، الثناءات على الله بالحرية الدائمة، لم يتحدّث أحد عن الدولة الظالمة، عن الرئيس القاتل، عن أجهزة القمع التي سكنَت في خلايانا تلك اللحظة، وحدَهُ الواصلُ حديثاً إلى حريَّتِهِ كان يدركُ كم الجمعُ معطوبون وضعفاء.

تلك اللحظة كنتُ أنظر إلى أبي الأيهم، أتخيَّلهُ بصورتِهِ التي رأيتُها مراراً قبل السجن، آثار المنفردات والتعذيب الممَنهَج، حالة الرجل المستَلَب أمام ما حدَث ويحدث، بحثُهُ عن سنواتِهِ الضائعة في الصمت والمجهول، يومَها لم أكن أعي أنَّ القاتل كان حاضراً أيضاً بصورتِهِ المعلّقة فوق الرؤوس، سنواتٌ أخرى ستعود هذه الحادثة بحضورها الفوجع لتعيد حساباتي للأشياء.

يحدث أحياناً لأشياء صغيرة تكون بحجم العمر كلّه، تلك الفترة كانت إعادةَ خلقٍ لجيلي الذي وقعَ بالصدفة أيضاً كضحيّةٍ للصمت، لقد أتقنّا الصمت رغم أن الضحايا كانوا بيننا، أشياء لا تشبهُ نفسَها، العجز عن الفهم تحوّل عند وقوفي على العتبة في الغرفة الكبيرة إلى محاولة لطرح الأسئلة على ذاتي، أسئلةٌ صارت سجناً كبيراً بعدَ أن عجزَ المُعتقَل السابقُ عن تحديد مكان اعتقالِهِ في الشهور الأولى، هذا يعني احتمال سيرنا ذات يومٍ على شارعٍ أو حديقةٍ تضمُّ تحتها سجناً.

في العاشرة من عمري صرتُ أكرهُ اللون الأخضر ومشتقاتِهِ بالكامل، صارت الخشيةُ من سيارات الشرطة حين أراها في الشارع هاجساً يقتلني خوفاً من الاعتقال المنسيّ في غياهب السجون، اللون الأخضر الذي طالما حاولت التصالح معه ولكني فشلت لأنه ارتبط في وعيي الأول بالفقد وخسارة العمر.

كاتب من سوريا مقيم في بروكسل

محمد عزاي

طفولة الزفت

عزيز أزغاي

كان المرحوم والدي مجرد أجير بسيط بيد مثقوبة، دُفن جميع أخوته العشرة إلى جانب قبر جدنا في تربة الريف، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. ومن هناك، قررت والدته أن تحمله، وهو طفل ما يزال، على كتفيها وتسيح به في أرض الله الواسعة، هروبا من مجاعة كانت قد أكلت الأخضر واليابس من مغرب الأربعينات.

من ضواحي مدينة الحسيمة في أقصى ريف الشمال، مرورا بطنجة، كانت وجهة الجدة قد وقعت على مدينة الدار البيضاء، التي تعرف بها والدي على والدتي، قبل أن يتزوجا ويقررا معا إغراق العالم بضجيج الأطفال، فيما كانت تعتبره جدتي، المكلومة في صغارها الأموات، تعويضا لها عن خساراتها الإنجابية السابقة.

وفي هذه المدينة الغول، كانت الإقامة الأولى عبارة عن غرفة مكتراة مع الجيران بحي درب ميلان، وتحت سقفها جئنا، أنا وإخوتي الثلاثة، إلى العالم، قبل أن تقرر الأسرة الانتقال بعدها إلى حي بن امسيك الصفيحي، الذي كانت له سمعة طيبة، جراء مقاومة ساكنته التاريخية الشرسة للمستعمر الفرنسي، طمعا في الاستفادة من أكثر من غرفة، مع فناء داخلي يتوسط ما كنا نعتبره بيتنا الجميل الواسع، الذي لا يكلف والدي أقساطا كرائية مؤرقة.

ما بين سنة 1965 تاريخ ميلادي وسنة 1978، تاريخ إنهائي لمرحلة طفولتي المتأخرة، التي صادفت عملية محو حي بن امسيك من الخريطة المجالية المغربية،عشت كما لم أعش. بالمعنى الذي يحيل على الشيء ونقيضه. في هذه المرحلة تعلمت كيف أكون «رجلا »، أو بالأحرى، كيف أستطيع أن أحرق المراحل من أجل أن أمسك النضج من قرنيه، وأسخره لاقتناء حاجياتي الضرورية، التي لم تكن إمكانات الأسرة قادرة على توفيرها لي كاملة، خاصة كتبي ودفاتري وبعض ملبسي، الذي كان أغلبه مستعملا.

وعلى الرغم من ذلك، لم أكن أحس بسطوة هذا الفقر المستشري، ولا بجلال ضيمه الذي يجرح الروح، ما دامت ساكنة الحي كلها من الفقراء المعوزين (إذا عمت هانت)، ثم لأن أسرتي كانت توجد في وضعية «أفضل» قليلا من باقي الأسر الأخرى المجاورة، ممن كان أفرادها يكملون، في أغلب الليالي، عشاءاتهم في الأحلام.

على أن ما هالني حقا، وأنا في هذه السن المبكرة، وفي هذا الحي الصفيحي بالذات، الذي نضجت فيه قبل الأوان، هو ذلك الإحساس القاسي بالاجتثاث، جراء اتخاذ المصالح الرسمية قرارا بترحيل ساكنته إلى منطقة صفيحية أخرى نائية، من أجل فسح المجال أمام أول مقطع من الطريق السيار في المغرب، شاءت «المصلحة العامة» أن يمر فوق موطن صباي. هكذا، بين عشية وضحاها، اختفى حي بن امسيك طيب الذكر، أو بالأحرى اختفى جزء أساس من طفولتي. أكثر من ذلك، لم يكن مقدرا تجميع المرحلين بما يضمن استمرار علاقات جواراتهم السابقة؛ فذاب بذلك ملح كل حياتنا الماضية. تفرق الجيران، واختفى أصدقاء الطفولة.

شخصيا، لم أكن مستعدا لضرب صفح عن جزء من تاريخي الشخصي، بما يمثله هذا التاريخ، على بؤسه وقذارته، من أفضية متواضعة وأحداث بسيطة وصداقات حميمة. أتذكر الآن تلك الأزقة الضيقة الحارة حديثة التبليط. أتذكر أبواب البيوت المفتوحة على الدوام. أتذكر منظر الأمهات وهن يقلبن زرعهن المغسول، المفروش فوق الأرض، في انتظار أن يجف. أتذكر اصطفافنا نحن الأطفال أمام السقايات العمومية لجلب نصيبنا من الماء. أتذكر تحلقنا حول مذياع الحي الوحيد للاستمتاع بقصص ألف ليلة وليلة والأزلية وسيف بن ذي يزن. أتذكر متعة الذهاب مع الأصدقاء إلى سوق الجمعة الأسبوعي (وكان يسمى شطَيبَ) لارتياد حلقات مروضي الثعابين والقردة وشاربي الماء الساخن والموسيقيين الجوالين. أتذكر ذلك السفر المرهق، الذي كان يقودنا، مثل أيّ عصابة صغيرة، إلى قطع أكثر من عشرين كيلومترا، مشيا على الأقدام، كلما اشتقنا لقضاء يوم من الجوع بما كان يسمى شاطئ عكاشة، والذي لم يكن لا شاطئا ولا هم يحزنون، بقدر ما كان عبارة عن مكب لنفايات مجارير المدينة والمعامل المجاورة لها. أتذكر، الآن، كل ذلك وغيره كثير، وأقول في خاطري، لقد كانت مجرد حياة رثة و«مليئة بالثقوب»، ثم أرجع لأضيف: لكن مذاقها، مع ذلك، كان له مفعول العسل على اللسان!

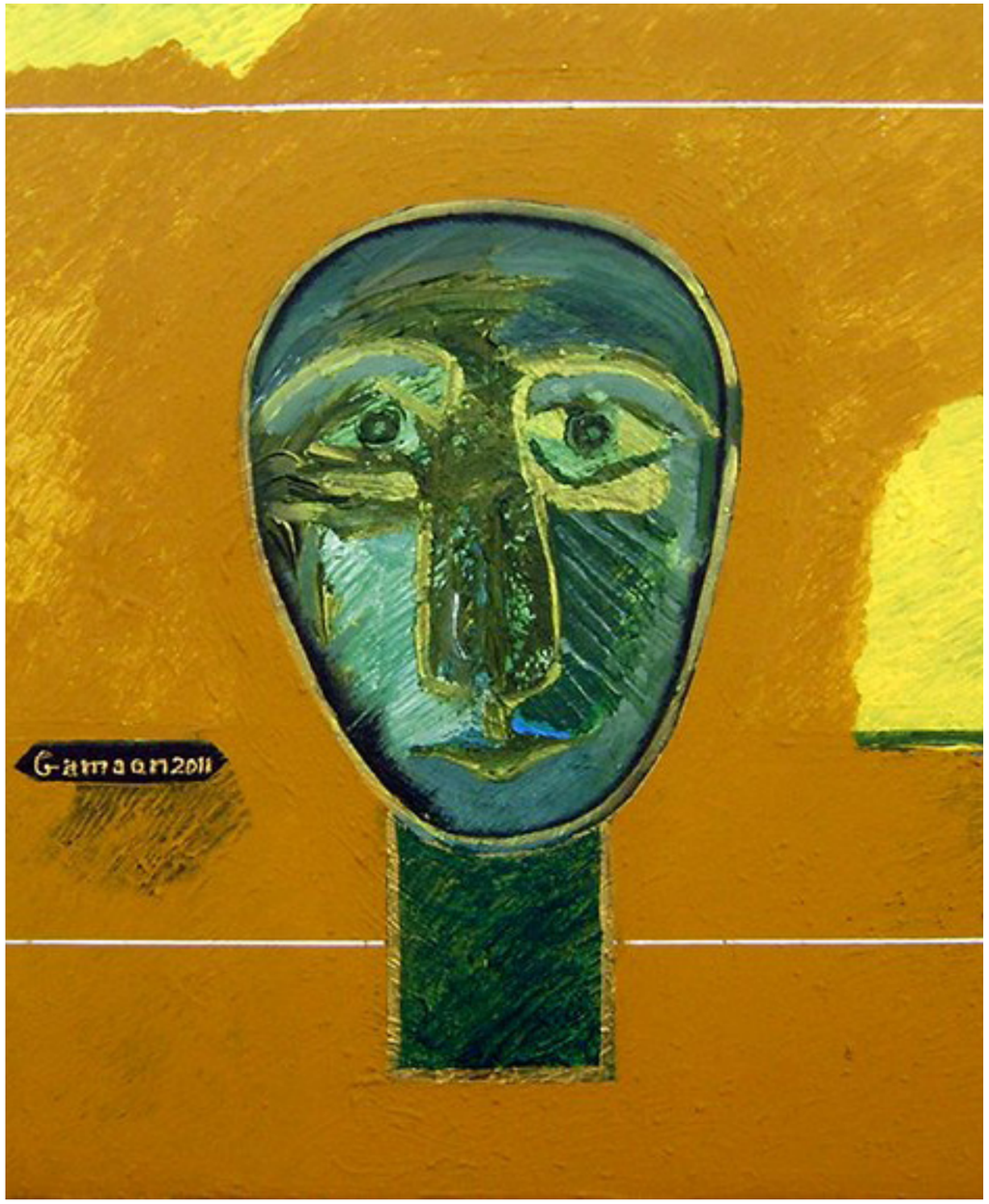

حسين جمعان

ثم فجأة اختفى كل شيء، لتبدأ معه حياة أخرى جديدة، كان من اللازم أن يصبح لها هي الأخرى مذاقها الخاص بها. لتبقي ذكرى موطن طفولتي -الذي أمر بجانبه من حين إلى آخر- مجرد شريط من الزفت الأسود تذرعه سيارات المتعجلين من المسافرين، ولا أحد منهم فكر لحظة في أن يلقي تحية لأهل الأرض السابقين؛سكان حي بن امسيك الصفيحي طيب الذكر والذكرى، الذي كنت واحدا من ساكنته.

شاعر وفنان تشكيلي من المغرب

رجل في عباءة سوداء

عفاف طبالة

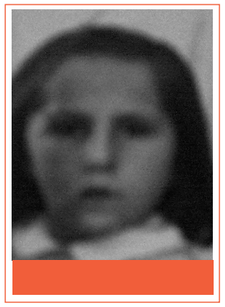

في 1980 عُرِض عليّ إخراج برنامج سهرة وثائقي عن «مولد النبي». قبلتُ العرضَ بحماس رغم ما كان يحيط العمل من مشاكل. كانت فرصة لأرى مرة أخرى مشهدًا رأيتُ ما يشابهه وأنا طفلة في سن الخامسة على أقصى تقدير، مشهد عجزتُ حينها عن فهم معانيه، وعانيت لسنوات من غموض دلالاته، فظلتْ صورُه محفورة في ذاكرتي تاركة أثرها الكبير.

في نهاية عصر يوم صيف وقت القيلولة، والهدوء يسود الشارع، المتراصة على جانبيه بنايات أغلبها فيلات صغيرة بحدائق. كنتُ وحدي، متعلقة بقضبان الباب الحديد لحديقة بيتنا، أتسلى بمتابعة المارة القلائل في الشارع، أسرح، تأخذني الخيالات إلى البعيد فأنفصل شيئا فشيئا عمّا يحيطني فيما يشبه غفوة.

وأنا في هذه الحالة بين النوم واليقظة، زحفت إلى سمعي أصواتٌ غير واضحة قادمة عن بعد، تردد كلمات غامضة، بشكل إيقاعي منتظم. أخذتْ تقترب وتعلو شيئًا فشيئًا، حتى ظهر في إطار رؤيتي المحددة بقضبان باب الحديقة مشهدٌ لم أرى له مثيل من قبل. اختلطت صور المشهد أمامي بالخيالات في رأسي وبدت وكأنها امتداد لها وجزء منها؛ أو كأنها كابوش حي.

رأيتُ مجموعة من الرجال، بعضهم بذقون وشعور طويلة، يرتدون ملابس غير اعتيادية من عباءات وجلابيب وعمم مختلفة الأشكال، يسيرون في موكب ممتد، يحملون أعلامًا ملونة، يتمايلون في حركات هي كالرقص لكنها ليست برقص؛ فوجوههم متجهّمة وبعيدة عن مرح الرقص. وبعضهم كان يصل تمايله لحد الشطحات.

وفي وسط الصف الأول للموكب كان رجلٌ طويلُ القامة، يرتدي عباءة سوداء وعلى رأسه عمامة كبيرة خضراء. يتقدم بخطوات ثابتة. حين أصبح في جواري رأيته يلتفت إليّ وشعرتُ أنه ثبّتَ نظره عليّ للحظات، التقت عيني بعينيه. نفذت نظراته واخترقت لاوعيي وسكنته.

تسمّرتُ في مكاني لا أقوى على الحركة لأفرّ إلى داخل البيت، وعُقِدَ لساني فعجزتُ حتى عن الصراخ.

كنت أشاهد المنظر وفي رأسي أسئلة بلا إجابات: من هؤلاء؟ ماذا يفعلون؟ هل هم أشرار؟ لماذا يرتدون هذه الملابس الغريبة؟ هل هم بشر مثلنا أم من الجن التي يحكون لنا حكاياتهم؟

كنت في سنّ لا تسمح بصياغة هذه الأسئلة في كلمات. فظلت أسئلتي بلا إجابات. وظل الغموض يحيط بالمشهد ويولّد الرعب في قلبي.

رحل الموكب، لكنه لم يتركني.

عندما وضعوني في السرير لأنام هذه الليلة، وأطفئت أنوارُ البيت ولم يبق إلا السهاري بضوئها الخافت وما يولده من خيالات مضخمة، رأيت الرجل ذا العمامة الخضراء الكبيرة، يقبل من عمق الطرقة المواجهة لباب الحجرة الموارب في اتجاهي وهو مثبت نظره نحوي.

كنت أرتعد خوفًا، لا أعرف إن كان عليّ أن أغمض عينيّ حتى لا أراه، أم أن أبقيهما مفتوحتين لأتأكد أنه لن يدخل الحجرة ليؤذيني.

لسنوات لازمتني هذه الصور والأصوات في منامي. لم أُسِرّ بخوفي منها لأحد. ظلت سجينة ذاكرتي وأنا سجينة غموضها.

كنتُ مع مجموعة العمل مستغرقين في تصوير موكب مولد النبي. فرأيته.. هو. بعباءته السوداء وعمامته الخضراء يتقدم في ثبات أبناء طريقته الصوفية. التقت عيني بعينه، ابتسم، بدا سعيداً لأننا نصوّره، ابتسمت. فلم يعد الغموض يحيط بالمشهد.

فادي يازجي

كاتبة ومخرجة من مصر

يوم الاحتفال

علي سفر

في ذكرى الحركة التصحيحية، قررنا الهروب من المدرسة، جمعنا بعضنا، وانتظرنا خروج الصفوف إلى الباحة، حيث سيجتمع المدرّسون مع المدير، ليقودوا الطلاب كلهم إلى حيث ستجتمع المدارس كلها في الاحتفال المهيب، وما إن خرج صفنا من الباب حتى بدأنا بالتسرب من الرتل..

لم يكن لدينا خطة لما بعد الهروب، بل كان لدينا إحساسنا بأن عدم حضور الاحتفال سيكون أهم من تدخين السجائر خلف سور المدرسة، أو التلصص على طالبات مدرسة البنات، أو الذهاب لعند واحد منا لمشاهدة فيلم sex..

اقترح أشقانا أن نركب الباص وننزل إلى ساحة المرجة للتسكع فيها، فوافقنا كلنا، وصعدنا دون أن نقطع التذاكر، فنحن طلاب، وقد أعفانا القائد من ذلك. ولأننا في يوم خاص ونحتفل بطريقتنا، فتحنا النوافذ وبدأنا نبصق على المشاة، ورغم أن الشتائم أغرقت أهالينا، إلا أننا لم نهتم، وحتى حين صرخ علينا سائق الباص، أغلقنا النوافذ وصمتنا قليلاً، وحين وصلنا إلى آخر الخط، وفتح الباب، بصقنا على النوافذ ونزلنا مسرعين..

في المرجة وقفنا عند عامود التلغراف العثماني، لكننا لم نستطع قراءة ما هو مكتوب عليه بسبب لافتات الاحتفال التي كانت تحيّي حافظ الأسد قائد المسيرة، مللنا.. فقررنا الذهاب إلى سينما غازي، وهناك قرب بابها كانت فرقة وزارة الداخلية تعزف الموسيقى الحماسية، وبينما تجمع الناس حولها، كانت عيوننا تلتهم بحماسة أيضاً جسد الممثلة إغراء الأبيض البض، في صورها المعلقة عند الباب الخارجي للصالة التي تعرض فيلم «أموت مرتين وأحبك».

لم نكن نملك ثمن الدخول، ولم يكن هناك مجال للاحتيال على قاطع التذاكر، حتى الصور كانت وراء الزجاج المقفل، فشعرنا بالخيبة.. وانسللنا وراء الجموع المبتهجة بعزف الفرقة، ووجدنا أنفسنا أمام ملهى الكروان، حيث علقت صور الراقصات، شبه العاريات، ولم يكن حظنا منه أفضل من حظنا في سينما غازي؛ فقط صور، كما أنه لا فائدة من البقاء هناك إذ أنهن لا يظهرن في النهار أمام الباب.

غادرنا المكان، ثم عبرنا إلى محطة الحجاز، حيث رأينا القطار العثماني القديم، ولم يلفت انتباهنا فندق الشرق، بل عبرنا إلى الحلبوني، ثم نزلنا صوب سوق المهن اليدوية، في التكية السليمانية..

كان هناك بضعة سواح يلبسون ملابس محتشمة، ولكنهم كانوا لطفاء إذ طلبوا تصويرنا، فأخذ كل واحد منا وضعية تشبه وقفات نجوم السينما، ولكن بملابس الفتوة..

وحين انتهوا من ذلك ذهب الشقي بيننا نحوهم وطلب منهم نقوداً فلم يقبلوا أن يدفعوا، فبدأنا نبصق عليهم، ونشتمهم، لكنّ موظفاً من وزارة السياحة خُلق فجأة أمسك بي وبطالب آخر، بينما هرب البقية، ودفع بنا إلى محل الرسام وطلب منه أن يبقي علينا عنده حتى تأتي دورية الشرطة السياحية.

كنا مرعوبين، وكان الرسام يحدق بنا ويبتسم بشماتة، بدأ الطالب الآخر يبكي، بينما كنت أحاول البقاء متماسكاً، وأنا أقول له إننا لم نفعل شيئاً.. فقام من مكانه وأغلق علينا الباب من الخارج وذهب..

كان المكان ممتلئاً بلوحات رسمت فيها شوارع دمشق القديمة، ولكن فوق مقعد الرسام كانت هناك لوحة رسمت فيها امرأة بصدر عارٍ، قال رفيقي هذه فاطمة المغربية، قلت له: لا، فاطمة لا تخلع ثيابها!

اقتربت من اللوحة فوجدت بعض الكلمات فوق رأسها، وقرأت «في أول درس علمتك أن الحب يظل شهياً طوال العمر، حتى أني أرضعتك ماء عيني ورسمتك وشماً فوق جفوني»..

فتح الرسام الباب، وشاهدني أنظر إلى اللوحة، فسألني إن أعجبتني، واستحيت أن أقول له نعم..! فلم يلحَ بسؤاله، ولكنه طلب منا أن نغادر المكان بسرعة قبل أن تأتي الشرطة السياحية وتعتقلنا بتهمة الإساءة إلى السياحة في سوريا، فخرجنا لا نلوي على شيء، وركضنا هاربين، وحين عبرنا الباب الغربي للسوق، وجدنا أنفسنا في باحة التكية أمام المتحف الحربي، بين عشرات من المجندين الذين كانوا يرقصون على أغنية «رعاك الله»، عبرناهم مسرعين، وحين صرنا أمام المتحف الوطني وجدنا رفاقنا الأشقياء يدخنون كلهم سيجارة واحدة، وحين رأونا أعطونا سيجارة لنا وحدنا كي نهدّئ من روعنا، فأشعلناها، ومضينا جميعاً صوب البرامكة، بينما كان صوت موفق بهجت مازال يصدح: رعاك الله يا بو الثوار رعاك الله يا بو الأحرار، معاك الشعب بو سليمان معاك الشعب معاك االله.. الخ.

كاتب من سوريا مقيم في إسطنبول

الكرة الممزقة

عماد المي

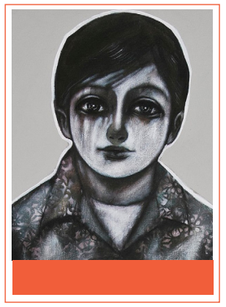

كنت أدرس بالسنة الثامنة أساسيا بالمدرسة الإعدادية بغزالة التابعة لمحافظة بنزرت في الشمال التونسي. كنت ألعب كرة القدم مع أصدقائي التلاميذ في الشارع، فجأة، في منتصف الشوط، توقّفت عن الانتماء إلى الفريق الذي أنتمي اليه!، صرت خارج اللعبة أراقب الآخرين، كنت أقيّم الآخرين وأقيّم نفسي.

أن أكون هناك، راكضا وراء الكرة، لم يكن لذلك أيّ معنى، بل وأكثر من ذلك: لم أكن أفهم ما يفعله أولئك الأطفال، ما الذي كان يحفّزهم، ولماذا ذلك القذر من الحماس!

استغرق الأمر لحظة واحدة، ثمّ عدت إلى اللعبة، أخذت أركض، وأصرخ، وأهاجم.

وعندما اندمجت بكل طاقتي في اللعب أتى رجل في الأربعين من عمره يصرخ على ابنه مطالبا إياه بالتوقف عن اللعب والعودة إلى المنزل وأعلمنا بأنه هنالك وحشا بشريا سفاحا يقوم باختطاف الأطفال في مثل سننا وأنه قبل نصف ساعة وقع الإعلان في التلفاز على اختطاف طفل في سن الثانية عشرة، وقد طلب الخاطف مبلغا من المال مقابل إرجاعه لأهله.

لم نعره انتباها وواصلنا اللعب والصراخ وكان فريقي لحظتها قد سجل هدفا في شباك المنافس، أخذ ابنه فعوضناه وواصلنا اللعب. مضى وقت قصير وقدم رجل آخر وطلب منا التوقف على اللعب وإلا سيمزق الكرة أشلاء بموسه لم نعره اهتماما وعندما خرجت الكرة أمامه أخذها بين يديه ومزقها بكل عنف وقسوة حينها توقفنا عن اللعب لاعنين ذلك الرجل الشرير، وبدأ الجميع يتحدث عن قصة الطفل الذي وقع اختطافه فساد الرعب الجميع وأخذ كل واحد طريقه إلى البيت.

بقيت وحدي أنظر إلى تلك الكرة وهي ممزقة بدت لي وكأنها رأس طفل فصل عن باقي الجسد شعرت أن عينيّ امتلأتا دموعا، غادرت المكان راجعا لبيتنا في الطريق مررت بجانب مقهى سمعت أحد الرجال يتحدث لأصدقائه عن واقعة اختطاف الطفل وكيف أن الخاطف طلب من أهل الطفل فدية مالية مقابل إرجاع الطفل للأهل.

دفعت النقود وذهب أهل الطفل إلى المكان الذي قيل لهم إنهم سيجدونه فيه، غير أنهم عثروا على الطفل جثة في جمجمته كسر كبير، وأنه ألقي القبض على المجرم وسيقع إعدامه شنقا. حينها شعرت بخوف جارف، ومشيت مهرولا، أنظر بلا انقطاع خلفي، وصلت إلى المنزل شاحبا مرتعشا ومبللا.

سخر أخي مني وصاح وقع في الماء وقع في الماء يا له من أحمق.

نظرت لي أمي واعتبرت أن حالتي مزرية. أردت أن ألقي بنفسي في حضنها لتحضنني، وتمرر يدها على رأسي بكل عطف ولطف وحنان الأم إلا أنها جفلت مني.

كنا عائلة ريفية وليست من شيمنا حركات الملاطفة والكلمات الحنونة والمشاعر العفوية. في منزلنا تبقى المشاعر في مكانها داخل الجسم محبوسة لا تغادره.

سألتها وأنا أرتعش هل ستدفعان أنت وأبي فدية إن اختطفني أحد ما، هل ستنقذانني.

التمعت عيانا أمي وابتسمت وكانت نادرا ما تبتسم فقد زادتها ابتسامتها جمالا ورقة فأردت تقبيلها لكن تذكرت أن هذا لا يحدث داخل عائلتنا فتملكت مشاعري وقبضت أنفاسي وأخذت نفسا عميقا كي لا أبكي وأبدو ضعيفا في نظري أمي.

تمتمت أمي ببعض الكلمات غير المفهومة وقالت لي طبعا سندفع حياتنا لأجلك.

هدأ قلبي وتذكرت تلك الكرة الممزقة وأنا أنظر لها وحدي وقد غادر كل الأطفال مهرولين لمنازلهم وبدا لي ذاك الرجل الذي مزق الكرة وكأنه وحش مثله تماما مثل خاطف الطفل وقاتله.

ومن وقتها كرهت لعب كرة القدم وكلما أراها تبدو لي وكأنها رأس بشري فصل عن جسم صاحبه والبقية يلعبون به. ومن وقتها إلى اليوم أمقت كل أشكال الوحشية وأحب الحب.

مسرحي من تونس

ثلاثة استثناءات فيزيائية

عمّار المأمون

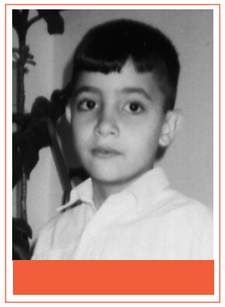

من لم أرهم ليسوا موجودين، حتى الصور، كانت مجرد عبء على الذاكرة، استنزاف عاطفي لمن لا أعرف سوى حكاياتهم، الموت، رحيل أحدهم نحو اللامعرفة، نحو وهم الحكاية، لم أختبر بعد فكرة تحول الواقع إلى حكاية، أو صورة، الموت كان أشبه بأول احتلام، دهشة، يليها الرعب، ثم تأنيب ضمير إثر العجز، حينها كان عليّ تعلم النسيان.

تعلمت في المدرسة أن الفيزياء لا تُخطئ، ما يمكن إحصاؤه وتحويله لأرقام لا يمكن نسيانه، حينها الثوابت بدأت تظهر، أعداد متخيّلة وأخرى حقيقية، من المفترض أن لا ننساها، هي فيزياء، لا مجال للاستثناء، حتى جسم الإنسان يعمل وفقها، تعلمت أننا معادلات طويلة تتكرر، لا يمكن للجسد أن ينساها، حتى تلك اللاإرادية منها، ضبط التنفس، إيقاع القلب، ضغط الدم، رمشة العينين.

اختبرت الفيزياء يومياً، نواس ذراعي وهي تسرق الحلوى، انتباج الماء في خلاياي إثر لمسي لمعلمتي، لكنّي اكتشفت استثناءاتها دفعة واحدة، حين حاولت أمّي أن تدفعني للغرفة المجاورة كي لا أرى جثمان أحد أقربائنا وهو يغسّل. تمكنت حينها من التسلل سراً لأقف من زاوية بعيدة أتأمل الجسد المسجّى من زاوية مرتفعة، طقوس الموت ورهبتها لم تكن تعنيني، النحيب، القرآن، التكبير، الأدعية، ذَكر الجثة المنكمش تحت القماش، أصابعه الصفراء وفمه شبه المفتوح لم تحمل أيّ معنى سوى كونها مزعجة، ما شد انتباهي هو عيناه، هما لا ترمشان، ثابتتان، كحجرين، تعلمت في الكتاب المدرسي أن العينين ترمشان بصورة لا إراديّة، حاولت تقليد الجثّة، لا تستطيع أن تبقى عينيك مفتوحتين دون أن ترمش، حتى الماء المنهمر بشدة، لم يدفعه لفرك عينيه أو إغلاقهما، لمَ لم يفركهما له أحدهم عوضاً عن حشو فمه بالقماش؟، لمَ ببساطة لم يغلق فمه؟، كل هذا الماء الذي يشربه ألا يضايقه، أعلم جيداً أن العينين تؤلمان حين لا ترمشان، أكان المعلم يكذب، وأن الأفعال اللاإرادية تستسلم أمام الماء، كان الاستثناء الفيزيائي هو أن الموتى لا يرمشون، حتى الماء لا يضايق أعينهم.

انتهوا من التغسيل، وبدأوا بلفّه بالقماش الأبيض، الدماء كانت تملأ المكان، الجثة تنتفخ، وتنزف من كل فتحاتها، من اعتدت ملمس لحيته على وجهي يصبح أضخم، الدماء تتسرب من فمه وأذنيه وشرجه، النحيب يزداد والتكبيرات تزداد، الأحمر يمتصّ الأبيض بشبق، الدماء لا تنتهي، لا صوت لها، لا كالماء، «المكون الأساسي لجسم الإنسان»، هذا ما كتبه المعلم على السبورة حين تعلّمنا، «على الإنسان أن يشرب ليتراً من الماء يومياً»، إذن من أين تأتي كل الدماء، هل شربها كلها؟ لمَ لا يسيل الماء؟ الاستثناء، الدماء هي المكون الأساسي لجسم الإنسان.

ما أذكره بدقة بعد ذلك أن أوجها أعرفها تحمل جثة ملفوفة بقماش أحمر، الجميع يصرخ، ويردد آيات موزونة، ثم عبارات طائشة كنباح نحاسي «إنه ينتفخ، قد لا يتسع»، «أسرعوا»، ما أذكره أن الجثة كان يزداد حجمها، الدماء تجمدت، لكن القماش يتشقق، لم أذكر بدقة ما كتبه المعلم، لكن ما أذكره أن الجثة لم تتسع، كل محاولات تحريكها والقراءة المتأنيّة للآيات لم تنفع، نسيت القاعدة حينها، ما أذكره فقط هو الاستثناء «جثة واحدة قد لا تتسع بقبر».

لم أعد أؤمن بالفيزياء حينها، يأسرني سحرها كأفيون يذهب مفعوله، لكنها فقدت تماسكها، الزمن فقد تسلسله الخطي، أؤمن الآن بأن الزمن كالهيولى، ممتدّ دائماً، الحاضر والماضي والمستقبل كلها تحدث الآن، كما تلك الجثة، تنتفخ، تفتح عينيها دائماً، ولا تتسع في أيّ مكان، منذ حينها لا أعيش زمناً واحداً، كأني أعيش الآن كل شيء، أنتفخ لأتمدد في الزمن والمكان.

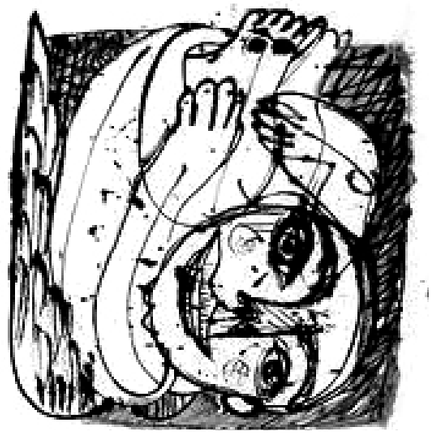

كاتب من سوريا مقيم في باريس

مسبح الفقراء

عواد علي

قضيت طفولتي وصباي في منزل عجيب من المستحيل لأحد أن يتخيّله، وكأنه متاهة من متاهات بورخس، يجعل أكثر الرجال فطنةً يحذر ولوجه، مع وجود إشاعة تقول إنه مسكون بالجن. كان منزلاً واسعاً مكوناً من طابقين وإحدى عشرة غرفة وثلاثة سراديب مظلمة، اثنان منها بلا نوافذ، وأدراج حجرية مثلّمة، يقع في حي شعبي بمدينة كركوك يُدعى «بريادي»، يقطنه خليط من التركمان والكرد والعرب، أغلبهم نازحون من القرى المجاورة.

علمت، بعد بلوغي سنّ الرشد، أن المنزل كان في الأصل مدرسةً يهوديةً، يعود بناؤها إلى بداية القرن العشرين، ضمّتها دائرة الأوقاف إلى ممتلكاتها عقب هجرة اليهود إلى فلسطين. ولمّا كان والدي فلاحاً نازحاً، ضعيف الحال، فقد أشفقت عليه وأجّرت له المنزل بخمسة دنانير في الشهر. وقبل أن ننتقل إليه أتى برجل يدّعي أنه ساحر يستطيع طرد الجن منه، وأخذ بنصيحته فأسكن في غرفه الفائضة أزواجاً نازحين، حديثي الزواج، أو ممّن لا تزيد ذريّتهم عن طفلين، مقابل ثلاثة دنانير في الشهر للغرفة الواحدة، وبذلك تحوّل المنزل إلى ما يشبه فندقاً أو خاناً من خانات أيام زمان، يدرّ علينا دخلاً يوازي ما يتقاضاه موظف متوسط الدرجة. كان ذلك عام 1961 وأنا في سن الرابعة.

على مبعدة نحو ميلين عن منزلنا هذا كانت تحيط المدينة، من جهة الشرق، هضاب صخرية قليلة الارتفاع، تنتشر فيها المقالع الحجرية ومعامل الجص. كنا، نحن صبيان الحي، نراقب أحياناً العمال وهم يحشون الثقوب، التي يحفرونها في الصخور، بالبارود ثم يبتعدون عنها مسافةً آمنةً، ويشعلون فتائل موصلةً بها، فتحدث تفجيرات مخيفة، وتتطاير كتل الحجر الكبيرة، التي يجري فيما بعد تكسيرها بالمعاول إلى قطع صغيرة لاستخدامها في البناء.

بمرور الوقت كانت مواقع التفجير تتحوّل إلى حفر كبيرة يصل عمق بعضها إلى ستة أو ثمانية أمتار، وما إن يحل موسم الأمطار حتى تمتلئ تلك الحفر وتغدو بركاً مائيةً داكنة الخضرة. وحين يحل الصيف يلوذ صبيان الأحياء القريبة بالبركة الأكبر، التي يسمونها، مجازاً، بـ«مسبح الفقراء» نكايةً بمسابح النوادي الرياضية والاجتماعية التي لا يستطيعون الاشتراك فيها.

بدأت أقصد ذلك «المسبح» المجاني عندما صرت في أواخر عامي الثاني عشر، رفقة صديقي التركماني الحميم «نهاد»، الذي يكبرني بسنتين، وعدد من أبناء جيراننا. كنت أختار وقت القيلولة حينما يكون أهلي نائمين، وأعود إلى المنزل قبيل الغسق بساعة، لكنّي مهما حاولت أن أخفي الأمر عن أمّي، التي كانت تخشى عليّ من الغرق ولسعات حشرات الماء، وربما من أطماع المنحرفين أيضاً، خاصةً أنني ولدها الوحيد، فقد كان جلدي «الأملح» يفضحني من شدة زرقته الضاربة إلى البياض. وبالفعل كدت أغرق أكثر من مرة في البداية، لولا أن أنقذني الأكبر منّي سناً، المتمرسون في العوم. لذلك كانت أمّي تبهدلني دائماً، إلاّ أنها لم ترفع يدها يوماً لتضربني، كما كانت تفعل أمهات أصدقائي، في حين كان أبي، على العكس منها تماماً، يرى أن ترددي إلى ذلك «المسبح»، رغم خطورته، خيرٌ من اللعب في الشارع، أو استئجار دراجة هوائية قد تعرضني للإصابة بحادث اصطدام أو دهس سيارة، من دون أن ينسى نصحي بأخذ الحذر بين حين وآخر.

ذات يوم، لن يغيب عن ذاكرتي أبداً، فوجئت بمجيء أمي إلى «المسبح». لمحتها وأنا وسط ما يربو عن أربعين صبياً وشاباً، فغطست تحت الماء واندفعت بسرعة إلى حافة الطرف البعيد عنها. أخرجت رأسي واستنشقت الهواء بعمق ومددت يدي إلى شاب كان منهمكاً في ارتداء ثيابه، فسحبني بيد واحدة، وما إن وطأت قدماي اليابسة حتى هرعت لأختبئ وراء صخرة كبيرة تبعد بضعة أمتار عن «المسبح».

لبدت هناك أكثر من ربع ساعة، مؤملاً نفسي بأن أمّي ستغادر المكان، حتماً، حين لا تجدني، وتعود أدراجها، عندئذ سأرتدي ثيابي على عجل، وأجري سالكاً طريقاً أخرى تمر من مزرعة خضار فأسبقها في الوصول إلى المنزل. لكن ما حدث لم يكن يخطر على البال قط، فقد تعرّفت أمي على ثيابي، الموضوعة تحت قطعة حجر، وخطفتها وعادت إلى المنزل. أخبرني بذلك «نهاد» عندما رآني أخرج من مخبئي، فانتابني التوتر كما لو أنّي

محمد عراق

تلقيت صفعةً، والتفت إلى ناحية الحيّ فلم أر أثراً لها. عرض عليّ «نهاد» أن يلحق بها ويلتمسها العفو لعلها تعيد له ثيابي، بيد أني كنت متأكداً من أنها لن تستجيب له، فقد تعمدت خطفها لتعاقبني، لتجعلني هزأةً أمام سكان الحي، وأنا عائد إلى المنزل بلباسي الداخلي المبلول المتسخ.

انتظرت «نهاد» حتى يرتدي ثيابه، وبينما كنت أفكر في تجنب السخرية التي سأتعرض لها قفزت إلى ذهني فكرة ذهبية «لِمَ لا يسبقني هو إلى منزلهم ويجلب لي شيئاً ألبسه؟». تحمس «نهاد» للفكرة وأطلق ساقيه للريح، وخلال دقائق أحضر لي قميصاً وسروالاً رياضياً، فلبستهما ورجعت المنزل مبتهجاً لأنني أفشلت العقوبة التي خططت لها أمي. لكن يجب أن أعترف بأن تلك الحادثة كانت درساً قاسياً اتعظت منها، فلم أعد إلى ذلك «المسبح» نهائياً. أما صديقي «نهاد» فقد استمر على ارتياده رفقة أصدقاء آخرين، وبعد أقل من شهر حملوه، يا للأسف، جثةً هامدةً إثر اصطدام رأسه بصخرة حادة وهو يقفز إلى الماء من مكان مرتفع، ففقدت صديقاً عزيزاً لا تفارق صورته ذاكرتي.

كاتب من العراق مقيم في عمان

ترويم جدتي

فيصل عبدالحسن

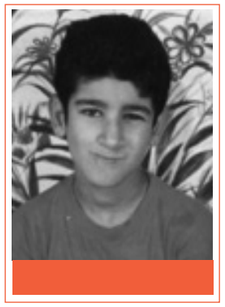

ذلك المساء، لا زلتُ أتذكر أحداثَه كما لو أنَّها حدثت البارِحة. أراها الآن بعيني طفل لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. كان ذلك قبل أن تموت جدَّتي بشهور قليلة، وكنتُ الوحيد الذي تستقبلني كأحب حفيد عندها. كانت تحبّني حُبّاً جماً يفوق حُبَّها لأحفادها الآخرين. كان لها أكثر من عشرين حفيداً من أولادها. وكانت تخصّني بأسرارها الصغيرة، التي لا تبوح بها سيدة بعمرها لأحد. ومن تلك الأسرار ما حكته لي عن بقائها مُستَيقَظة لم تذق النوم لأيام، لأنَّ جدّي تزوج عليها. قالت، وهي تلفُّ عمامتها السوداء حول رأسها، إنَّها لم تهنأ بعيش معه بعد ذلك الزواج. وحكت كيف أنَّها انتزعت بأسنانها طلقة من سَاقِهِ في معركة الشعيبة بين الإنكليز ضِدَّ الأتراك وأبناء العشائر. ولو لم تفعل ذلك لمات كما حدث للذين أصيبوا في المعركة.

كنت أسافر مع عمي من البصرة إلى بيت جدَّتي في السماوة أثناء العطلة الصيفية. وكان عمي قد خصَّص لها غرفة، وباحة واسعة مستقلة ترمح فيها دجاجاتها وديوكها، وخروف ضخم، ونعجة هزيلة، لها بقعة سوداء في رأسها. قالت لي «هذا الكبش جدّك» وهذه المسكينة مشيرة إلى نعجتها «جدَّتك» أنظر كم هو خبيث، وهو ينطحها! كنت أضحك لتأنيسها الحيوانات.

في ذلك المساء الصيفي الذي لا أنساه، أمسكتُ بالزجاجة (المشعل) الذي وضعت جدَّتي له رأساً من التمر، تتوسطه سفيفة قطن، ويستمد وقوده من نفط مُلئت به الزجاجة، وتوجهنا إلى بيت عاتي. الكهرباء لم تصل بعد إلى أطراف السماوة في ذلك الوقت. كانت جدَّتي مولِّدة حيوانات ماهرة، فهي تولِّد البقرات، والعنزات، والنوق، وما أنْ تقع حالة مخاض لحيوان، حتى تُستدعى.

كانت مهمتها هذه المرة تَزويم بقرة! وهذا ما سمعته منها، ونحن في طريقنا لهم، وهي عملية معقدة، ما إنْ رأيتها وعشتها حتى تغيرتْ حياتي، وعرفتُ أشياء عن الحياة لم أكن أعرفها من قبل. كانت البقرة قد ولدتْ عجلاً توفاه الله تعالى قبل يومين، فأخذتْ الأم تخور وتلعي، كما لو كانت امرأة فقدت وليدها. وانقطع حليبها، فلم تعد تدِرُّه. وكان أشد ما يؤلم لعيها، الذي لا ينقطع ليلاً أو نهاراً، وانقطعتْ عن تناول ما يقدم لها من برسيم أخضر ونخالة. كانت مهمة جدَّتي الإيحاء للبقرة بأنَّها حملتْ وأنجبتْ ثانية !

وجدنا عاتي وأبناءه قد قيدوا البقرة في الزريبة، وجعلوها تبرك على قوائمها، وعلى ضوء المشعل، والفوانيس ربطتْ جدَّتي عينيَّ البقرة، وسدَّتْ مِنْخِريها بحشوتين من القطن. ووضعت على المِنْخِرين قراصتي خشب، لئلا تسقط الحشوتان، ولتمنع تنفسها من المِنْخِرين تماماً. كنت أنير لها الزريبة بالشعلة، وأنا أرتجفُ من الخوف. ثم رأيتها تخرج من ثوبها خنجراً وتجرح به عنق البقرة، فخارتْ متألمة، لكن الجدَّة لم تأبه لخوارها، وأدخلتْ خيطاً من النايلون في طرفي الجرح بمخيط، فازداد الخُوَار، ولكن جدَّتي لم تهتم، وأعطت طرف النايلون ليمسكه عاتي، وطلبتْ منه أنْ لا يشدَّهُ إليه حتى تطلب منه ذلك.

وأوقفتْ البقرة من بروكها، وطلبتْ كيساً مملوءاً بالدَّمْنِ فأعطوها، فوضعته في فرج البقرة. وأخذت تدفعه بكفها إلى داخل الرحم ببطء، وبين لحظة وأخرى كانت تطلب من عاتي أن يسحب خيط النايلون، ليشدَّ جرح عنق البقرة، فتخور من الألم، وضيق التنفس. وبقينا على هذه الحال أكثر من ساعة، والظلال في الزريبة تتراقص أمام عينيّ كأشباح الجن، والبقرة تشعر بألم الجرح، فتظن مصدره رحمها المحشو بكيس الدمن. فتهتاج، ويزداد خوارها. وكدتُ أرمي الشعلة وأهرب من هذا الجحيم !ولكن إلى أين أهرب في هذا الليل، ومن دون جدَّتي؟ وفي لحظة انفراج رأيتُ الأولاد يأتون لجدَّتي بعجل صغير. ربطتْ رقبته بطرف خيط النايلون، وأخرجت كيس الدَّمْن من رحم البقرة، وقد غطاه سائل الرحم الكثيف، وخمطتْ ذلك السائل بكفها، ومسحته برأس وبطن العجل، وتركته يرضع سرْسُوب البقرة ثم رفعت غطاء عينيها، وأزالت حشوتي منخريها، وقطعت خيط النايلون المعلق بجرح رقبتها بالخنجر. فنظرتْ البقرة إلى العجل الصغير، وأخذتْ تشمّه، معتقدة أنه وليدها، وأنَّ ما مرَّ عليها من آلام أنَّما هي آلام المخاض.

ووسط تكبير الحاضرين، درَّ السَّرْسُوب غزيراً من ضرعها. فهتف الحاضرون: رَامَتْ.. رَامَتْ.. أي قبلتْ البقرة العجل وليداً لها. ولكن لم تكتفْ جدَّتي بهذا النجاح بل طلبت أن يأتوا

حسام بلان

بكلب لينبح بوجه العجل. وما أن فعلوا حتى رأوا البقرة تهرع للدفاع عن العجل. فابتسمتْ وقالت، الحمد لله، أفرحوا رَامَتْ بقرتكم! علت الزغاريد في بيت عاتي، واستبقونا لنأكل الرز باللبن معهم. وبالرغم من مشاعر الفرح حولي ومنظر جدَّتي وهي تغسل وجهها، وتمسحه بفوطة، إلا أن عواطف متناقضة أخذت تنمو داخلي حول الأمومة وعواطفها الجياشة، وخداع البشر وحِيلَهم. صرتُ أكثر فهماً لمعنى أن تمدَّ يدك الحانية لإصلاح ما سببه الموت من فُقْدَان بعد تَزويم جدَّتي لتلك البقرة. (السَّرْسُوب: حليب البقرة بعد الولادة).

كاتب من العراق مقيم في المغرب

انتحار مؤجَّل

كاتيا الطويل

كنتُ في الحادية عشرة من عمري عندما قرّرتُ الانتحار. كنتُ قد قرأتُ آنا كارنينا لكنني لسوء حظّي ولدتُ في بلاد لا قطار فيها، فكان لزامًا عليّ أن أبحث عن طريقة أخرى أرمي بها نفسي إلى الموت. ولمّا كنتُ أعاني رهاب الأماكن المغلقة والاختناق البطيء كان من المتعثّر عليّ أن أستفيد من تجربة رجال كنفاني وأن أترك نفسي تختنق داخل جحيم خزّان صدئ. كنتُ كذلك، وللأسف الشديد، أخشى الحبوب المنوّمة والأدوية شرّ خشية ما جعل طريقة إيما بوفاري في الانتحار بعيدة المنال، هذا على أنّ أحد النقّاد اتّهمني تهمة جميلة بأنّني رومانسيّة مثلها إنّما تُهمته هذه لن تجعلني أعانق الموت بشجاعة وتصميم كما فعلَتْ. لقد أصابتني كارثة وجوديّة إنسانية شخصيّة حميمة عندما بلغتُ الحادية عشرة من عمري وقرّرتُ على إثرِها الانتحار. فهل ألجأ إلى قسوة الطبيعة وأترك نفسي تحت رحمتها؟ عوامل الطبيعة التي عدّدها باشلار لم تكن فعلاً على قائمة أموري المفضّلة، فكنتُ أكره النار وأنفر منها، أمقت الاختناق، أخشى أن أُدفَن حيّة تحت التراب،وأجزع من الغرق وأشعر بالاختناق ما أن يبلغ مستوى الماء خصري، فلم يكن خيار فرجينيا وولف بالموت غرقًا مطروحًا على الطاولة أصلاً. فَأظلَمَ الموت في وجهي من بعد أن كانت قد أظلمت الحياة.

كنتُ في الحادية عشرة من عمري عندما بدأتْ مصائبي وقرّرتُ الانتحار. أردتُ أن أنتحر وأن أكتب رسالة كما فَعلَتْ داليدا، رسالة يقرؤها والداي بعد أن يجدا جثّتي الزرقاء مستلقيةً برهبة وأرستقراطيّة. رسالة يفتحانها ويقرآن فيها جُمَلي الحزينة التي تحمل spleen بودلير وسوداويّة أبي العلاء المعرّي. أردتُ الانتحار والموت والرسالة أكثر من أيّ أمرٍ آخر. كنتُ أقف كلّ مساء إلى نافذتي وأحدّث الله متمنّية أن يرشدني إلى الصراط السهل الذي يقودني إلى الموت بلا ألم أو وجع أو تشوّه.

وقد تتساءلون عن سبب حزني الجارف هذا وبؤسي النيتشاويّ، قد تتساءلون بحشريّة أو غضب حتّى، عمّا قد يدفع فتاة في الحادية عشرة من عمرها إلى الانتحار، فأجيبكم أنّ اكتشافًا فظيعًا زعزعني.

كنتُ في الحادية عشرة من عمري عندما اكتشفتُ أنّني فتاة. نعم، فقبل ذلك كنتُ مجرّد مخلوق يلعب ويدرس ويخرج ويدخل ويقفز في أرجاء البيت محطّمًا نصف الأشياء. قبل الحادية عشرة كنتُ مصيبةً متنقّلة يتجنّبني أشقّائي الصبيان الثلاثة ولا أنفكّ أتشاجر مع أمّي في كلّ صغيرة وكبيرة. كنتُ كائنًا بلا جنس ولا همومٍ ولا متطلّبات ولا تقلّبات في المزاج. ثمّ فجأة صرتُ فتاةً.

ولِمَن بدأ يفكّر بأنّني سأتحدّث عن التطوّر الجسديّ للفتاة في هذا العمر، لِمَن يظنّ بأنّني أقصد في حديثي هذا مسألة اكتشافي أنوثتي ذات صباح فهو مخطئ. لا. لقد اكتشفتُ أنّني فتاة عندما أدركتُ أنّ أمورًا كثيرةً ممنوعةً عليّ. اكتشفتُ أنّني فتاة عندما حرمتني أمّي السهر مع أصدقائي كلّ يوم، أو الخروج عند صديق بعد المدرسة، أو مشاهدة حفل موسيقيّ صاخب يمتدّ إلى منتصف الليل. اكتشفتُ أنّني فتاة في يوم مشؤوم لم يُسمَح لي فيه بالمبيت في نزلٍ قديم مع أصدقائي، في ليلةٍ عدتُ فيها متأخّرة إلى البيت، في شتاء لم يُسمح لي فيه بالتزلّج مع صديق مقرّب، في يوم اكتشفتُ فيه أنّني مغرمة وأنّ الذي أحبّه لن يروق محيطي. اكتشفتُ أنّني فتاة عندما راحت نظرة أمّي تقسو وممنوعاتها تكثر وقوانينها العوجاء تتضاعف وأصبح الجيران على حين غرّة عنصرًا مهمًّا في حياتي يكرّرون عدّية «صرتِ صبيّة، نفرح منك» كأمثولة قميئة.

كان سقوطي من عدن. أذكره ذاك الشتاء بشكل دقيق، كنتُ ناقمة على أمّي وعلى الجيران وعلى الله. كنتُ في كلّ مساء أقف إلى نافذتي وأروح أبرم في رأسي الاحتمالات وأبحث في قصص أبطالي المفضّلين عن طريقة لذيذة للانتحار، حتّى أنّني وصلتُ ذات مساء في أبحاثي إلى يهوذا الأسخريوطيّ ووجدتُ في انتحاره مصدر إلهام.

ثمّ مرّت الأيّام ولم أعد في الحادية عشرة من عمري. سهرتُ وشربتُ ورقصتُ وأحببتُ وتأخّرتُ في العودة إلى البيت. سافرتُ وتزلّجتُ وتنقّلتُ بين المدن وغرقتُ في الوجوه وتمرّدتُ وعشقتُ واعترفتُ وأجبتُ بوقاحة كلّ مَن قال لي «على قبالك». مع الأيّام، تلاشَت الممنوعات وتلاشى الجيران وتلاشت رغبتي في الانتحار وتلاشت نظرات أمّي. اعتدتُ أنّني فتاة، واعتدتُ انتزاع ما أريده، واعتدتُ فكرة الحياة، أمّا أنوثتي فقد أجلستها في زاوية غرفتي أتأمّلها وأسترق النظر إليها من حين إلى آخر، لا أنا أجرؤ على استثمارها ولا أجرؤ على استفزازها.

كاتبة من لبنان

ربيع كيوان

مهنتي الأولى

كاظم خنجر

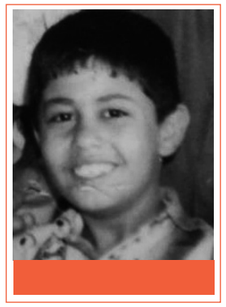

ذلك هزيلة، سوداء، عاقر تربت معنا في البيت، أكلت مما نأكل، شربت مما نشرب، نامت ولعبت معنا.

***

اليوم هو بداية الشهر الثاني لوجود أبي في السجن نهاية عام 1999، فغداً سنذهب لمقابلته، لا بد لنا أن نحمل له طعاماً وابتسامات كاذبة كما تقول أمي .

***

كاظم خذ الدجاجة مع سكينة حادة إلى رأس الشارع ليذبحها أحدهم .

...؟

***

يُذبح الدجاج على الطريقة الإسلامية ليكون أكله حلالاً بتوجيه رأسه إلى القبلة، ووضع السكينة تحت اللوزة بعد نتف ريش الرقبة، وأن يُسمي الذباح باسم الله، ويكون نظيفاً طاهراً .

***

كان الفراغ وحده واقفاً في رأس الشارع. يحدقون في بعضهم كاظم والدجاجة التي تحت يمينه والسكينة التي في يساره، ثلاثة فقط .

كان الفراغ وحده واقفاً في رأس الشارع. وحدك يا كاظم يمكنك أن تفعلها، لا أحد ...

***

وضعت قدمي اليمين على جناحيها المُنفرجين، واليسار على قدميها، نتفت بعض الريش، رفعت رأسها بيدي اليسرى وبالأخرى وجهت السكينة إلى الرقبة، أخذت يدي بالارتجاف حتى أفلت السكينة والدجاجة .

حملتهما ومشيت كان الفراغ يضحك وحيداً في رأس الشارع. رغبة الذبح بقيت مُشتعلة. طرحت الدجاجة على الأرض، شبكت أصابعي حول عنقها، حتى ماتت خنقاً، ثم أنزلت السكينة على الرقبة وقمت بقطعها كاملة دون أن ترتجف يدي.

***

تعلّمت معنى أن تقتل شيئاً بين يديك .

تعلمت بأن أمك التي كانت تجيد الذبح.. لم تذبحها؛ لأنها تربت معنا.

تعلمت بأن الدم يجف بسرعة، وبأن الأصابع لا تجف أبداً .

تعلمت بأن الفراغ لا يقف ولا يضحك. الفراغ ينام في دواخلنا.

تعلمت بأن السكينة كالدجاجة وكلاهما تحت يدي.

تعلمت بأن أبي الذي لم يأكل من الدجاجة المطبوخة، كان يأكل في صمته .

تعلمت من الحصار مهنتي الأولى .

شاعر من العراق

فادي يازجي

نهاد الترك

عصفور الحلم

لطفية الدليمي

مع أوّل كتاب لمسته يداي -غير كتب المدرسة- فغمت أنفي رائحة التبغ الخام ممتزجة برائحة الكتب الصفراء، الورق الهشّ والطباعة الحجرية، مزيج من روائح كانت تفور من نبع سريّ في حجرة معتمة تسلّلت إليها ذات ظهيرة صيف أنا الصبية بنت التاسعة التي تتصبّب عرقا وترتعش وهي تعبر الغرفة إلى كشوفها الأولى لتمزق أوّل الحجب.. مفارقة جعلتني وأنا صبية أتمزق بين أشواق أرضية ونزوع سماوي، فدخلت ظلال الأفكار وترحلّت في خفاء الحلم دون أن أفقد ظلي.. أبي كان ماركسيا حالما باليوتوبيا والعدالة مسحورا -شأنه شأن الكثيرين- بالنظرية التي فتنتهم وعودها الفردوسية.

كان وصحبه يتداولون كتبا تعذر عليّ -أنا ابنة التاسعة- فهم مضامينها، وكانوا يغرونني بقراءتها فكنت أقلبها بعجالة وأهجرها إلى أحلامي وقصصي الطفولية التي كنت أكتبها وأرسم أحداثها في الصفحة المقابلة وأتمتع بخلق شخصيات لا وجود لها في عالم الكبار المضجر..

مقابل ضلال أبي الماركسي -كما كان يقال- كان زوج خالتي تاجر التبغ المتديّن يحظى باحترام العامة ونفور المتعلمين والمثقفين، ومقابل كتب أبي التي تتخطّى فضاء المقدس إلى مديات الحرية، كان زوج خالتي يقيم أذكارا دينية، ويؤمّ الذكر دراويش ومشرّدون ومتصوّفة ومشايخ وجياع ولصوص وكان يرقّي المرضى والمصروعين ويعوّذ الأطفال بالأحجبة..

ذات ظهيرة والكل نيام في قيلولة الصيف سقط عصفور صغير من عشّه في نخلة تتوسط فناء بيت الخالة، ودخل نافذة حجرة كانوا يحرمون علينا ولوجها نحن البنات الصغيرات، وهي مخزن لغلة التبغ التي يأتون بها من بلدة راوندوز في جبال الشمال، رأيت حزما كبيرة من أوراق التبغ المجفّفة بعروقها الخشنة معلقة على الجدران، التبغ الناعم كان معبأ في أكياس الجوت الكبيرة، سلال أخرى كانت ترصّ فيها كميات من التبغ الخشن وعلى الجدار المقابل للباب كانت عشرات الدفوف التي تستخدم في الطقوس الدينية معلقة هناك. قفز العصفور ما بين تلال التبغ وجدار الدفوف ولاحقته وهو يقف على إطار دف عملاق. مددت يدي، فارتطمت ذراعي بالدف وسقط على الأرض محدثا ضجة مجلجلة حسب ما أوهمني خوفي، وطار العصفور من النافذة. ولبثت هناك سجينة مغامرتي وفضولي، رأيت قبالتي خزانة كتب، كانت مجمع الغوايات كلها، ولهذا حظروا على البنات دخول الغرفة، مددت يدي إلى أكبر الكتب حجما، كان كتابا أصفر الغلاف وقد تبقع بضوء الكوة السماوية إنه «ألف ليلة وليلة»، قرأت الاسم وأنا في رعبي أتخيل حشدا من الليالي السود تضغط على قلبي الراعش، فيسقط في الظلمات. ألف ليلة من الليل الذي كان يرعبني بأشباحه وغيلانه المنبثقة من كهوف الحكايا. كيف تكون هذه الآلاف من الليالي؟

تصفحت الكتاب الذي تمزقت حافات أوراقه الهشة، وتضافرت رائحة التبغ ورائحة الورق العتيق وعبق الظلمة ورائحة الجلد المشدود على أطر الدفوف في صنع جوّ من الغرابة للصبيّة الخائفة، ولكي أتجاوز خوفي المركّب من دخول الغرفة واكتشاف الكنز المحرّم خطفت ورقة تبغ ومضغتها فلذعني مذاقها المرّ الحارق والتهبت شفتاي..

في هذه البرهة الخارجة من سياق زمن الطفولة، تعرفت إلى لذّة المحرّم المجهول وأنا أقلب صفحات سفر الحكايات وألج باب الخيال الجامح في مطاردتي لطائر صغير وأنغمر في لجج من روائح متنافرة «عبق التبغ المرّ وشذى ماء الورد ورائحة الجلد والخشب وأوراق الكتب العتيقة وغبارها الشهيّ ورائحة البسط الصوفية المنقوشة بموتيفات سومرية وبدوية».

قرأت وتسمرت أمام أحداث الحكاية-الإطار لألف ليلة ودفعني فضولي لمواصلة القراءة وملاحقة مصير الفتاة التي اختارت المجازفة بحياتها لتكشف سر الملك الفاتك قاتل النساء وترجئ موتها وموت البنات المضحّى بهنّ على مذبح شهوات ملك عاجز..

أصابني الدوار وأنا أتوغل في النص ورائحة التبغ تفغم حواسي. كنت قد شهدت ليلة الأذكار الصوفية بالأمس وأرهفت السمع للأناشيد الدينية ينشدها مغنّ ضرير مع فرقته على إيقاع نقر الدفوف، كان الدراويش ينودون برؤوسهم ويتحركون على الإيقاع المتسارع ويهمهمون بكلمات مبهمة،

فادي يازجي

حتى إذا تعالى صوت المنشد بالمدائح النبوية وهاجت مشاعر المنصتين وقفت مجموعة منهم وتحركت الأجساد النحيلة حركات مترنّحة وتمايلت على وقع النقر الرتيب.

في تلك اللحظة كانت صورة العالم قد تغيرت في وجدان ابنة التاسعة وتحدد مصير الكاتبة ووعيها وبدأت تتشكل بذور غدها الموصول إلى عالم الخيال بعد اكتشاف كتاب ألف ليلة ومتعة السماع، وامتزجت الحكاية بالموسيقى وسحر الكلمات وارتبطت معرفة خفايا النساء والجنس وحكايات العشق العجيبة بروائح التبغ ونقر الدفوف وأشذاء ماء الورد والزعفران، وكلما ذكر كتاب ألف ليلة وليلة فغمت أنفي تلك الرائحة واستعادت حواسّي غبطة الكشف الأول لمعارفي الجديدة عن البشر والسلطة والمكائد وهشاشة الحياة الانسانية. ولبثت مأخوذة بغواية القصّ وشخصية القاصة البارعة شهرزاد وخصوبة مخيلتها، حتى كتبت عنها فيما بعد أقصوصة معاصرة بعنوان «ما لم يقله الرواة» وظهرت في كتاب حمل اسم القصة ذاتها..

كاتبة من العراق تقيم في عمان

صبي في السابعة

محمد جعفر

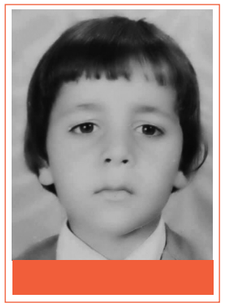

أتذكر ذلك الصبي وهو في عامه السابع. أتذكر نهوضه باكرا بفرح يشوبه قلق العودة إلى المدرسة بعد عطلة الصيف. أتذكر ملابسه الجديدة والمئزر بكميه الطويلين والبطاقة التي تحمل بياناته والمشدودة إلى قلبه بمشبك الأم. أتذكر إصراره بأن تصطحبه جدته في أول أيامه كما فعلت في العام الماضي، عامه الأول في المدرسة. أتذكر خيبته وهو يكتشف أن معلمه لهذه السنة كبير السن وتتدلى كرشه أمامه وهو غير ذلك اليافع والطويل الذي يحبه.

في ذلك اليوم ولما يدق جرس الفترة الصباحية، يغادر التلاميذ مقاعدهم. ويوَّجه الصبي مع أقرانه في طابور نحو باب آخر يقع في غير ذلك الجانب الذي اعتاد الخروج منه ومن خلاله رسم طريق العودة إلى البيت. يتملكه بسبب ذلك الجزع ويشعر بالارتباك. وفي الخارج ووسط فوضى عارمة يفقد حدسه بالمكان، ولا يعرف كيف يعود إلى المنزل. وغير مخير استسلم للحشود تدفع به إلى الأمام.

كان يعرف أنه ليس بعيدا عن بيتهم. ورأى أن يمشي قليلا فقد يجد ما يهتدي به. وسار على غير هدى مسافة معينة ثم أدرك أنه عليه أن يتوقف حتى لا يتورط أكثر في الاتجاه الخاطئ. وللحظة تأمل ما حوله. كان كمن ولج ثقبا أسود فقد وجد نفسه في مكان آخر من العالم تحيط به عمارات ضخمة وطويلة تشبه العمالقة راحت تسد الأرض والسماء. والفضاء من حوله أضيق من زنزانة، بينما كل الطرق متشابهة، فلا يعرف أيها يسلك؟

لاحقا يرى الصبي أنه ضائع، ومع ذلك يحاول أن يضبط انفعالاته ويسيطر على نفسه. كذلك يكبح دموعه. ثم يقرر أنه حان الوقت الذي يجب أن يطلب فيه المساعدة. لكن ماذا عليه أن يقول؟ وكيف يفعل ذلك؟

على مرمى البصر، وعلى السور هناك على بعد ثلاثين مترا منه يجلس رجل في مثل سن والده. يشير إليه ويلوح له. لكن الظاهر أن الرجل لا يأبه لصراخه. ويبدو مهتما أكثر بموعد يترقبه من خلال ساعة يده التي ينظر إليها. على الرصيف هناك امرأة تلتحف البياض، لا يعنيها أيضا أمره حين ينادي عليها. تبدو مشغولة أكثر بقفتها وهي تجاهد في حملها. حينها فقط يبدأ في الصراخ. يفكر لعل أمه أو أحدا ما يتعرف على صوته فيهب لنجدته. لكن لا أمه ولا واحدا من سكان العمارات أطل يستفسر. وحتما لم يعنهم صراخ طفل متروك لوحده، ولم يجدوا معنى في صراخه..

داهمه عقب ذلك انقباض واختناق واستولى عليه جزع قاتل وقد اكتشف أنه وحده المفزوع. وشعر أن لا أحد يمكنه فهم معاناته. ثم إن العالم لا يبالي، فهل يرجع ذلك لأنه يختلف عنهم؟

من المفروض، وبمنطق الطفل نفسه أن يكون هو واحدا من المجموع. إنه عين من عيون الجماعة. ما يراه يجب أن يكون هو نفس ما يرونه، وما يشعر به لا بد أن يشعروا به بدورهم. لكن ذلك الرجل وتلك المرأة والآخرون بدوا له مختلفين. هم ليسوا هو، وهو لوحده يشعر بمأساته. عينه ليست عيونهم، وما ينظره لا ينظرونه. ولكل زاويته التي يبصر منها العالم.

حاول الصبي بعد ذلك كله أن يصارع ما حوله ويجابه مصيره فلا يستسلم. مشى بضع خطوات، وفجأة انتبه أنه يقبع خلف عمارتهم، فكيف لم ينتبه؟!

صحيح أن هذه التجربة لم تدم لأكثر من دقائق معدودة. وصحيح أنه ليس بذلك السوء أن تكتشف أنك ضائع ثم تهتدي إلى طريق العودة لاحقا. لكن شعور الصبي المضاعف ما منح تلك اللحظات قوتها وفرد جبروتها عليه. ثم إن الأثر في واقع الأمر لا يرجع للتجربة نفسها بل للاكتشاف الذي اكتشفه. إنه يختلف عن الآخر!

في البيت يكتم الصبي القصة ولا يحكيها. ربما يفعل ذلك بدافع الخجل. لا يستطيع أن يقول أنه ضاع وصرخ يطلب المساعدة بينما هو خلف العمارة التي يقطنها وفي مكان قريب لطالما تردد عليه مع أقرانه للعب. ثم إنه لم ينم في تلك الليلة ولا في الليالي اللاحقة.

لقد ظل يستعيد تلك الحادثة والرعب يغشاه. رعب لم يعرف كيف يتجاوزه أو يداويه. ولقد امتلأ من ليلتها بهواجس مقلقة اتخذت الخوف قناعا وارتدت المجهول عباءة، وصارت تكتَى بالخوف من المجهول.

ربما ـوبسبب هذه التجربةـ يكون ذلك الصبي قد ودّع الطفل فيه. إن ما بات ينكّد عليه قلق مختلف لم يعهد مثله ولم يعرف كيف يجابهه. قلق لا ينقضي كقلقه حين يقوم بعمل مخالف يكسبه وعيد الوالدة، وانتظار مصير له أن ينجلي مع عودة الأب من عمله. هذه المرة كان القلق مفرطا ضاجا صاخبا لا يخلص ولا يمكنه أن يتخلص منه، لأنه غير محدد بزمن وعير مرهون بحالة. وهو كالكنف على جلده عليه أن يتعايش معه في كل الأحوال. ثم إن حدسه يرعبه لما يقول له إن الحياة شوط طويل، ومن المفروض أن يقطعه لوحده. شاء أم أبى!

كاتب من الجزائر

محمد عرابي

تلك الظهيرة القائظة

محمد حيّاوي

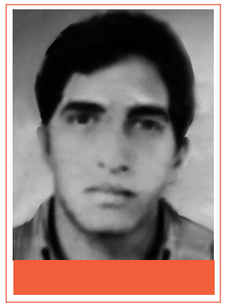

حدث الأمر معي عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، لا أذكر بالضبط، كنا نلعب، أنا وأصحابي «الطرّة»، وهي لعبة خاصة بالصبيان تتكون من عصا قصيرة مخروطية الشكل وأخرى طويلة، عندما ضربت طرف العصا الصغيرة بخفة، وحين حلّقت راقصة في الهواء أطرتها بضربة قوية من العصا الكبيرة، فرسمت قوساً كبيراً وهي تحلّق في الفضاء قبل أن تستقر فوق أحد التلال. فاستشرف أصحابي التل الذي انغرز وسط حلفائه قرص الشمس عند المغيب، وحين ألقينا نظرة سريعة صوب المدينة أدركنا مدى تغلغل الليل الذي باغتنا من الخلف، فعاد الجميع أدراجهم بعد أن يئسوا من العثور على العصا وبقيت وحيداً، تذكّرت العصا الصغيرة، كانت صقيلة ومتوازنة بدقة، وكان بإمكاني تخيّل أمّي وهي تتشاجر مع الصبية الذين تحمّلهم أوزار حماقاتي، وعلى الرغم من ذلك لم يكن بمقدوري التفريط بالعصا التي ستفسدها الرطوبة لو بقيت في العراء.

تسلّقت التل بتؤدة، وراحت أشواك شجيرات الخروب الشائكة تتشبث بثوبي، بينما ابتلعت بساتين النخل المترامية حول المدينة قرص الشمس المنطفئ، وبدا لي سفح التل الهابط نحو بيت رشيدة المجنونة الذي طالما سمعت بأن أفاعي أم سليمان وبنات آوى تحرسه في الليل، وكان متطرفاً ومعزولاً لم يصل إليه أحد من قبل، أو لم يجرؤ أحد على الوصول إليه، لكن هاجس العثور على عصاي تلبسني، فبدأت الانحدار نحو البيت القصبي. كنت قد رأيتها في الصباح تحمل سلّة من الخوص ورائحة السمك تنساب خلفها، وكل ما أتذكره تلك النظرة العدائية الحادّة التي كانت تطلقها من عينيها الصارمتين، وفمها العريض. تقدمت بتوجس. كانت خشخشة الخرنوب تفضح خطواتي، وكان السياج القصبي واهناً لدرجة أنني اخترقته بكامل جسدي قبل أن أتعثر بطست منكفئ فيشبه العتمة، وما أن خطوت في الباحة حتّى صفعتني سمكة مجففة كانت مُعلّقة بحبل، كدت أصرخ رعباً، وتحسستها بيدي، كانت ضمن قلادة طويلة تقطع فضاء الحوش، وما أن استدرت حتّى لفحت وجهي أنفاسها الملتهبة وغزا حدقتيّ ضوء مباغت، وفي لحظة خاطفة طالعني وجهها مشتعلا تحت ضوء الفانوس المعلّق بيدها، كانت تسبل جفنيها وتدلي شفتها السفلى كاشفة عن أسنان بيض، هذا ما لمحته في تلك اللحظة الرهيبة قبل أن أطلق صرختي الأخيرة وأخترق السياج هارباً.

في اليوم التالي دفعني الفضول القاتل ولهفتي بالعثور على عصاي للتسلل باتجاه التلّ، كانت الشمس تتوسط السماء الفاقعة وتخترق أنصالها رأسي الحاسر، والعرق يتصبب فوق حاجبيّ، وشعرت بعطش شديد، واعترتني رغبة عارمة لاعتلاء التل، ومداعبة حبات الخروب المتيبّسة، وسماع خشخشتها الأليفة وسط ذلك الهجير، كان الحصى الذي يتخلل جانب التل يلسع باطن قدميّ المقروحتين، وكنت أدوس عليه بارتياح غامض، وكانت ريح الظهيرة اللافحة تجفّف العرق الناضح من جسدي، وتترك مناطق باردة تحت إبطي وفوق جبهتي.

لمحت الفتحة التي خلّفها جسدي في سياج القصب الليلة البارحة، أطللت متأملاً الباحة بحذر من خلف السياج الطيني الواطئ. كانت رشيدة جالسة وسط طست مملوء بالماء، وكان شعرها الطويل مغطى بالصابون، اجتاحتني قشعريرة وذهول وأنا أتأمل ظهرها العاري المقوّس في الطست، كنت مقعيا على ركبتيّ، في حين برز رأسي المدوّر فوق الجدار، وعندما انتصبت واقفة تقاطر الماء من جسدها بكثافة مخلفاً خريراً مفاجئا، ولاح لي صدرها الكبير وسرتها الغائرة، وما أن دلقت الماء فوق رأسها حتى انسدلت الخصلات الطويلة ملتصقة فوق كتفيها، فازداد التصاقي الجافل بالجدار الطيني وأصيبت أطرافي بشلل مفاجئ. شقّت سيل الشعر المبتل بأصابعها الرفيعة ودفعت بالخصلتين خلف أذنيها، ثم مسحت صفحة وجهها بكفها وفتحت عينيها، وما أن رأتني حتّى شهقت مُندهشة ووضعت كفها فوق وسطها، خطت خارج الطست باتجاهي ورأيت ملامحها عن كثب هذه المرة في ضوء الظهيرة الصارمة، وخُيّل لي أنّها تبتسم عندما مدّت يدها الطليقة باتجاهي فاردة كفها بمودة، لم أعد أرتجف، بل لم أعد أعي ما يحدث، كنت قد انتصبت وساعدتني على اجتياز الجدار الواطئ واضعة ذراعها فوق كتفي، وبعد أن اختلست النظر إلى الخارج بحذر اقتادتني

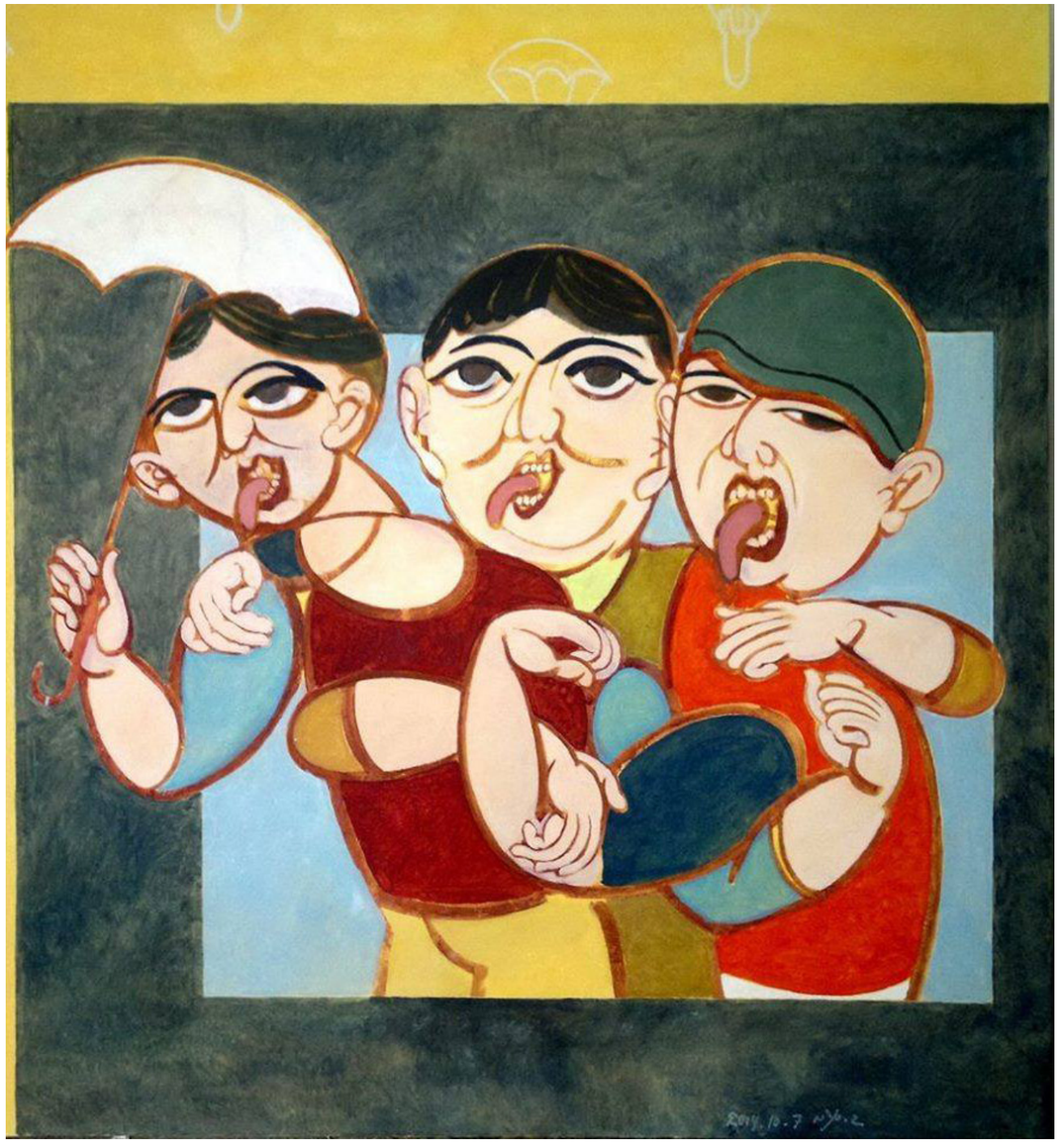

حسام بدن

إلى الداخل. في البدء اكتفت بالتحديق بوجهي المعروق من الفزع، ثم مسحت جبهتي الملتهبة بكفها الباردة، كانت أنفاسها متسارعة، وشممت رائحة الصابون المنبعثة من شعرها المبلول، وكان الماء يقطر تحتنا فوق البساط المتهرئ، أمسكت وجهي وأخذت تستنشقني، كانت شفتها السفلى تنسحب ببطء فوق وجهي، وكنت مفزوعاً، وكانت ترتجف والماء المتقاطر منها يغطيني ورائحة شعرها المبلول تضرب برأسي وكدت أصرخ عندما اختلطت الروائح الغريبة ورحت أنشج بصمت.

كان ذلك العبور المفزع في تلك الظهيرة القائظة نقطة تحوّل في حياتي اللاحقة، وبقيت أتذكّر تلك التفصيلات لسنوات طويلة، وشعرت وقتها أنّني أتميز عن أصحابي بتجربة عجيبة، على الرغم من الرعب الذي صاحبها، لقد كانت تجربة خمشت روحي وأثّرت فيّ بعمق.

كاتب من العراق مقيم في هولندا

صورة الله

محمد فريد أبو سعدة

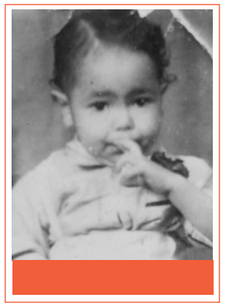

حدث موقفان أرى أنهما أثرا في وأعتقد أنهما شكلا أهم قناعاتي.

كان ذلك في طفولتي البعيد ة كالسراب، أمضي إليها وكلما أوشكت تبتعد وتفرّ!

كنت في العاشرة تقريبا، وكنت أول الأبناء، مدللا من الجميع عماتي وأعمامي، وبنات وصبيان الجميع، ربما لأن أبي كان كبير العائلة، وربما لأنه تحمَل عبئها بعد رحيل الجد، كان أبي يعمل في شركة المحلة، وكان رجلا لطيفا وفنانا بالفطرة، حتى أنه اشترك في أدوار صغيرة في أوبريتات سيد درويش، التي كان صلاح أبو سيف يعيد إخراجها في المحلة على مسرح سينما «الوطنية»، إبان عمل صلاح في شركة المحلة، في أوائل الأربعينات من القرن الماضي، عاشر أبي الخوجات، وحارب في موقعة العلمين على الحدود مع ليبيا، وحوصر في الفالوجا مع عبدالناصر، كان وسيما وجذابا، ومثقفا دون أن يتجاوز تعليمه الابتدائية، وأشك في حصوله على شهادتها، ربما موت جدي عجل بتحمله مسؤولية الأسرة، وقر في نفسي أنه عارف وعليم والجميع ينتظر رأيه، هو لا يخطئ أبدا، وهو السيد المطاع حتى كان يوم. كنا نسكن في بيت له سلاملك يؤدى إلى حديقة هُجرت، ولكنها مسوّرة، وفي السور فراغ كان لبوابة في ماضي الأيام، لا باب يغلق إذن إلا باب الشقة بعد السلاملك!

كانت أمي تضع إوزات في جانب من السلاملك طول النهار وتدخلهم في الليل، حتى كان هذا اليوم، الذي ارتأى أبي أن تتركهم في الليل أيضا، ورغم اعتراضها وتوجسها من سرقتهم إلا أنها لم تفلح في إقناعه لليلتين لم يحدث شيء مما تخشاه، في الثالثة قامت في الصباح ولم تجد الإوزات، لم تفعل شيئا سوى أنها نظرت إليه طويلا وبكت يومها اكتشفت أن الجميع يمكن أن يطالهم الخطأ، وأن أبي ليس معصوما شأنه شأن الجميع، وساعدني هذا على فحص كل المسلّمات، وإعادة النظر، وأن الأسئلة باقية أما الإجابات فهي متغيرة لأننا وإجاباتنا في قبضة الصيرورة!

الموقف الثاني كنت في الثانية عشرة تقريبا.

كنا نسكن هذا البيت، وكان يقع في حي السبع بنات، وقد سمي بذلك لاستقرار جماعة تبشيرية بهذا الاسم فيه منذ القرن الثامن عشر، بنت مستوصفا لعلاج عيون وآذان البسطاء بلا مقابل. وكانت هذه الجماعة، تخرج في عيد السنة المريمية حاملة الشموع، وهي تتضرع قائلة هللويا هللويا، ربما خمسة أو ستة صفوف بملابسهم السوداء والكولات البيضاء وغطاء رأس جميل

رأيت خلفهم بخطوات بعض الفتيات يرددن ما يقلن، وعرفت منهن فتاة في الرابعة عشرة، تسكن في الدور الرابع من بيتنا، بعد يومين صادفتها عند البقال فهتفت: هللويا ولم أكن أعرف ما تعنيه، فابتسمت وقالت هل تعرف ماذا تعنى، قلت لا ولكن صوتكم كان جميلا.

قالت معناها: يا رب ارحم.

صارت بيننا علاقة لطيفة، كنا نلعب معا، وعرّفتها بأخواتي البنات، نسهر أسفل السلاملك ونحكى الحواديت، حتى فاجأتني ذات يوم بأن القسيس يريد رؤيتي!

ارتبكت وشعرت بالخوف وبالكاد قلت لها لماذا؟

قالت: في الاعتراف، قلت إنني معجبة بك، وإنك لطيف جدا.

فابتسم القسيس وقال: هل يمكن أن أراه، هاته معك في المرة القادمة.

فادي يازجي

طبعا لم أذهب.

كان السؤال الذي عصف بي: هل الله على صورة جدي قوي يعذّب بالنار، أم هل يبدو جليلا مهيبا كثير الطلبات، أم يبدو جميلا متسامحا كهذا المصلوب نيابة عن الخاطئين من أبنائه؟ ولكنني اندهشت من أن يكون معينا على الحب كما هو معين في المرض والحاجة!

هكذا صرت محبا للآخر متسامحا ومقدرا قناعته!

شاعر من مصر

قضبان القطارات والنافذة والغابة

محمود حسني

توقظني هذي المدينة قبل ساعاتٍ مِن يقظة شمسها الضجرة، دُون تمهُّل. ترفض هذه المدينة أن تمنحني نومًا عميقًا. ليس للأمر علاقةٌ بالصخب، فلقد كانت طفولتي في غُرفةٍ تُطلُّ على قضبانٍ حديديةٍ لا يمرُّ يومٌ دُون أن تهرولَ فوقها القطارات. كيف كنتُ أنامُ إذنْ وهذه القطارات بزمجرتها تمرُّ كلَّ ليلةٍ قريبًا مِن نافذتي؟ كيف كنتُ أنامُ في غرفةٍ ذاتِ نافذةٍ ضيقةٍ تُلهِب الشَّمس حوائطَها طوال اليوم في صيفٍ يُمزِّق الرُّوح؟ هل كانت رائحة أبي الذي يلفُّ ذاتَهُ عليَّ هي ما كانت تُطمئنني مِن غضب القطارات؟ هل كانت يَدُهُ التي دائمًا ما أمسكت بزجاجة ماءٍ باردةٍ يُداعبُ بها رقبتي وظهري هي ما تهوِّنُ عليَّ هذا القيظ؟ أتذكَّرُ ذلك اليوم، الذي قبَّلني فيه على وجنتي كعادتِهِ، ثُمَّ دفعني بربتةٍ على مؤخرتي -دائمًا ما صاحبها ضحك- لأذهب إلى مدرستي؛ كُنَّا قد توصَّلنا قبلها بأيَّامٍ قليلةٍ إلى اتفاقٍ؛ أن أذهب إلى مدرستي وحدي، أنا ابن العاشرة لم أعد صغيرًا، أعلنتُ التمرُّد، وأعلنَ الهزيمة.

يومها، عندما عدتُ، بعد 6 ساعاتٍ مِن خروجي، كانت البناءة تمتلئ بنساءٍ يتَّشحنَ بالسواد، وأمي التي كانت في منتصف الثلاثينات تبكي، وتقول لأخت أبي «حسني مات... حسني مات يا أمل، وهو لا يزالُ ابن الخامسة والأربعين... حسني مات».

تجمَّدتُ. تمزَّقتُ. ونسيتْ جفوني أن تجفلَ، ونسي قلبي أن يدفع الدَّم إلى بقية جسدي، فتهاويتُ.

هل حزنت القطاراتُ عندما مات أبي؟ ألهذا توقَّفتْ عن المرور أمام بيتنا؟ ألهذا خلعوا القضبان الحديدية في الأسبوع التالي لموت أبي؟ ولم يعد القطارُ إلى مدينتنا مِن يومها؟

أنا اليوم تركتُ مدينة طفولتي، تركتُ آثار قضبان قطاراتها، ضجيجها، والبيت الذي أصبح أكثر برودةً منذُ مات أبي؛ أنا اليوم هنا في هذه المدينة التي توقظني كلَّ ليلةٍ، لأرى شمسها المتردِّدة تتلصَّص عليَّ، بينما أنا جالس، أتنقَّلُ بذهنٍ مُفتَّتٍ، بين قائمة موسيقى تمتلئ بالجاز والباروك دون ترتيبٍ، وبين قصائد مُتشظِّيةٍ برِّيَّةٍ للكُرديِّ سليم بركات؛ الكرديُّ ابن الغابة. الكرديُّ الغابة. الغابة التي هي أمي. أمي التي عوَّضتْني بصمْتِهَا وعتْمتِهَا عن رائحة الأبوة. الغابة التي هي أبي. أبي الذي ضمَّد فراغ قلبي، بعد أن خذلني أبي ومات وأنا ابن العاشرة.

الآن هي السَّادسة صباحًا بتوقيت القاهرة المقهورة، الآن هي السادسة صباحًا بتوقيت شمسٍ تشرق على أرضٍ ليس بها جديدٌ، كما يبدأُ بيكيت روايته الأولى «ميرفي»، التي ظهرتْ رُوحُهُ فيها مُتشبِّعةً برُوح جويس؛ هل كان بيكيت يبحثُ عن أَبٍ هو الآخر، فوجدَهُ في جويس، ثُمَّ تمرَّد على أبيه، فتركَهُ، وترك الإنكليزية كُلَّهَا، باحثًا في الفرنسية عن أُمٍّ، حنونٍ، دُون سطوةٍ، وانسحاقٍ؟

هل سأكتبُ روايتي الأولى وأنا مُتشبِّعٌ بروحك أيُّها الكرديُّ القابع في أقصى الشمال؟ أيُّها الكرديُّ الذي يكتبُ بعربيةٍ تنتزعُ جموحها مِن ذاتها؛ هل سأتناسى الوحشة التي تتركها في هذه المدينة، الوحشة التي تتركها في كلِّ مدينةٍ؟ لا أعرف، وربما لن أعرف يومًا.

فادي يازجي

أبي، المغترب في لغة الكتابة، أبي البعيد القابع بقلب غابةٍ في أقصى الشمال، ربما لن تصلَكَ يومًا رسائلي. لكنِّي أعرفُ أنَّكَ ستدرك أيُّها الكرديُّ، بطريقةٍ ما، أنني -ولدُكَ- هنا، وسط كلِّ هذا الضجر، أؤنسُ وحشتي بوحشية لُغتِكَ، بحزنها، وصخبها وروائحها المفعمة برائحة الغابة.

كاتب من مصر

صورة أخي

مريم حيدري

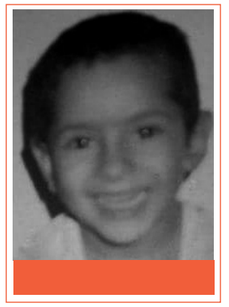

كانت الحرب قد ولدت قبلي، ومثل طاعون وعدوى كانت تلحق عائلتي كما العوائل الأخرى التي كانت تسكن في المدن الواقعة بالقرب من الحدود الإيرانية العراقية. وعائلتي تهرب منها من مدينة إلى أخرى، وبين هذه المدن المؤقتة ولدت أنا، وكان قد مرّ على الحرب أربع سنوات.

في العام ذاته (1984) كان أخي الأكبر (16 عاما) يذهب للقتال دون علم العائلة قائلا لهم إنه يذهب إلى مدينة أخرى من أجل الدراسة، يمرّ بين حين وآخر بالبيت لزيارة الأهل وخلال هذه الزيارات كانت ولادتي، فسمّاني «مريم» وغادر ثانية.

وفي العام ذاته أيضا ذهب ولم يعد، ثم عرف الأهل أنه كان يذهب إلى جبهات القتال محاربا. في البحث عنه لم يصلوا إلى خبر سوى أن قريبا منا كان قد رآه في الخطوط الأمامية من القتال، ثم لا خبر أو عنوان منه إلى زمن طويل. انتهت الحرب عام 1988، وكان أخي مازال «مفقود الأثر»، لا تعرف عائلتي إن كان قد استشهد أم مازال حيا وقد أسر. في عام 1990 بدأت عملية تبادل الأسرى بين البلدين. كان يعود من العراق إلى إيران العشرات من المحاربين السابقين وقد تم الإفراج عنهم. بابتسامات كبيرة ملؤها الشوق والفرح، يلوّحون لأهلهم من بين شبابيك الحافلات.

وقبل دخول كل قافلة منهم، كانوا يكتبون أسماءهم آنذاك في جريدة ما. تنشر الجريدة وتوزع في أنحاء البلاد ليعرف أهالي الأسرى ويأتون لاستقبالهم. وأمي التي من عادتها أن تذهب إلى السوق صباح كل يوم، كانت تخرج تلك الأيام وتعود إلى البيت مائلة سلتها بالخضار والفواكه وألعاب لنا، وواضعة فوق كل ذلك «جريدة». ثم تبدأ وتستمر طوال النهار عملية البحث عن اسم أخي بين القوائم الطويلة لأسماء الأسرى المفرج عنهم أو كما كان يطلق عليهم «آزادكان» بالفارسية أي «الأحرار».

وكل مرة لم تنجح العملية ولم يتم العثور على اسم أخي بينهم. أمي كانت تنتظر، وكنت أنتظر معها دون أن يكون لي شعور كبير نحو أخي. كنت أتمنى أن يعود من أجل أمي فقط. من أجل أن تفرح أمي وتستطيع أن ترتدي ثيابا ملونة، هي التي لم تلبس منذ غياب أخي سوى الأسود.

كانت أمي تحتفظ بصورة لأخي في الخزانة واضعة إياها بين قماش أخضر ناصع، وفي كثير من الأحيان حين تجد البيت فارغا من أفراد العائلة، تجلس على الأرض مقابل الخزانة المفتوحة كما المحراب، تخرج الصورة، تزيل عنها الحجاب الأخضر الجميل، وتأخذ بالبكاء.

كنت أتبع أمّي حينها، أجلس إلى جنبها. أشهد على تلك اللحظة الخرافية لإزالة الأخضر وإشراق وجه أخي من خلفها، مراقبة وجه أمي، وما أن تبدأ هي بالبكاء، حتى تسقط دموعي وأبكي معها بصوت عال. باكية كانت تتحدث معه، ترجوه، تعاتبه، تدعو له وأنا أسند رأسي إلى كتفها، أبكي من أجل بكائها، وأتمنى من كل قلبي أن ينتهي حزن أمي وكآبتها.

بعد ساعة من البكاء تقبلني أمي، تعيد الصورة إلى بيتها، وأعود ثانية إلى طفولتي المفعمة باللعب والدلال. ألعب طوال النهار في البيت والشوارع، إلى حين الموعد المقبل مع أمي والصورة. هكذا مرت السنوات، ولا خبر من أخي لا في الجرائد ولا عن أفواه الآخرين من أصدقائه الذين عثروا عليهم أهلي في ما بعد.

ثم ذات يوم كنت عائدة لتوي من المدرسة، وجدت في بيتنا ضيوفا لا أعرفهم، جالسين في غرفة الضيافة. كنت في باحة البيت حين خرجت أمي من الغرفة باكية بصوت عال وصارخة: «يفا». كان عام 1995. وفي ذلك العام، ذلك اليوم الدافئ، وفي تلك اللحظة، شعرت أن شيئا ما قد انهار. انهار دون أن يسقط على الأرض؛ حجمه الثقيل وقع على بيتنا، على أيامنا التي تلت تلك اللحظة وعلى أرواحنا جميعا.

كان الضيوف قد قالوا لأمي وأبي إنه أثناء البحث عن جثامين الشهداء في المناطق الحربية، وجدوا عظاما تدل السلسلة التي كانت بالقرب منها أن تلك العظام هي لأخي. خفت من حديث العظام وقد كنت أخاف حينها حتى عند النظر إلى الهيكل العظمي في المدرسة. خفت أن أسأل أيّ شيء، وفي الأيام اللاحقة كنت أرى أمي تشيب بسرعة غريبة، يغيب البريق من عينيها، ووجهها الأبيض والأحمر يشحب سريعا يوما بعد يوم.

تلك الصورة وضعت بعد سنوات على الجدار وانتقلت طقوس أمي من محراب الخزانة إلى محراب آخر: القبر. رغم أن أمي كانت تحلم أحيانا بهاتف ما، يقول لها في الحلم إنه ليس أخي!

قادي يازجي

وتحير أمي لفترة بين أن تنتظر ثانية خبرا عنه أم أنها هي بالفعل عظام أخي التي دفنت تحت التراب؟ مصدقة الحلم وغير مصدقة، تعود أمي إلى زيارة قبره، وفي بعض الأحيان كنت أذهب معها مصرّة ورغم امتناعها إلى المقبرة. أحزن معها وأبكي، ثم لدقائق أتناول طفولتي التي كانت تحب الحركة كثيرا وأذهب بها إلى فوق تلّ على جانب المقبرة، أظن أني تسلقت جبلا، أشعر بسعادة صغيرة إلى أن تناديني أمي ونعود إلى البيت.

تاريخ العائلة والمدينة والبلد كان مرتبطا بالحرب منذ ولدت وقبل أن أولد. بالقصف والهروب المستعجل من الخراب، ومرتبط بالدموع. وكانت طفولتي وسعاداتها البسيطة في صراع كبير ومستمر مع الحزن وأحاديث الحرب والفقدان والبكاء. ألذلك مازلت أبكي سريعا؟ ألذلك أصبح الأخضر لوني المفضل، والصور، أحبها ولا أحبها؟!

شاعرة ومترجمة من إيران

صديق الأبجدية السرية

مصطفى تاج الدين الموسى

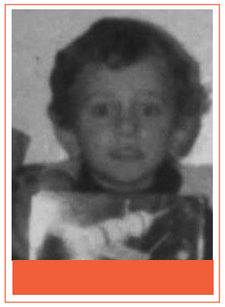

ــ نحن لسنا بنات يا كلاب.

كان يهذي بقهر، جانبي على الرصيف.. بعد أن صرنا خارج اللعبة، خارج كل شيء، وذلك الخجل يبللنا، يبلل حتى ثيابنا.

قبل أن تبدأ اللعبة في الشارع، عمر وحيان تقاسما بقية الأولاد، أنا و جابر لم يأخذنا أحدهما.

بدأت المباراة، بنات حارتنا على الشرفات والأسطح، يراقبن بفرح الكرة بين أرجل الأولاد، آنذاك فهمنا من كلام الكبار أن المراقبة من صفات البنات واللعب بالكرة للأولاد.. أنا وهو مثلهن، على الرصيف راقبنا المباراة.

ــ نحن لسنا بنات..

ردّد مجدداً والخجل يفترس ملامحنا.

لم يكن صديقي، كنّا نجتمع مع البقية في الشارع لنلعب بالكرة كلّ مساء، لكن في ذلك المساء صار لي وله مصير مشترك من الخجل، أتذكر والده.. أخذتْ لورشته دراجتي الهوائية بعد أن يئستْ منها فأصلحها بسرعة آنذاك.

ليلتها رددتُ طويلاً ليلاً في سريري: يا كلاب.. نحن لسنا بنات..

بعد يومين، خلال لعبة جديدة، شاهدته على الرصيف، وكانت كلّ الدراجات الهوائية في العالم تصيح في وجهينا وهي تمد ألسنتها:

ــ مرحبا يا بنات..

ــ تعال معي..

همستُ له، دخلنا حديقة بيتنا وتسلق شجرة الأكيدنيا خلفي لندخل عبر غصن لها غرفتي من الشباك، ناولته ورقة كان لديّ منها نسخة أخرى، اخترعتها صباحاً أثناء درس العلوم.

تأمل متعجباً الرسومات عليها، وأمام كلّ رسم ثمّة حرف من الأبجديّة العربية، شرحتُ له أنني اخترعتُ حروف جديدة سرية للكتابة وشيفرتها موجودة فقط على هاتين الورقتين.. وبهذه الأبجدية الجديدة سوف نلهو بأن نتبادل الرسائل، وجهه نهاية شرحي ــ أتذكر ــ كان فرحاً لا يقتل.

تحت وسادتي، تحت وسادته، على سريرين في غرفتين قريبتين وضعنا الشيفرة السرية لهذه الأبجدية الجديدة.

لأسابيع تبادلنا أنا وهو الرسائل بهذه الرسومات الغريبة، نهاراً في المدرسة ومساءً في الشارع، والأولاد يجتمعون حولنا ويتأملوننا بغيظ والغيرة تنهش أرواحهم، خلال تلك الرسائل لطالما تمنّوا أن يعرفوا ما نكتبه لبعض، فراس خمّن أننا نشتمهم ونشتم الأساتذة، عماد ظنّ أننا نتحدث عن أخته، رشيد ومازن قالا إننا نتبادل أسئلة الامتحان، مهند أكد أننا نكتب لبعضنا موعداً ما خلف المدرسة لنتسلق الحائط ونهرب منها.

أنا وهو، كنا بعد رجوعنا من المدرسة أو الشارع، وبمساعدة ورقة الشيفرة، نفك الرسائل.. أتذكر، مرّة كتبنا لبعضنا كيف نتخيل موتنا بعد عمرٍ طويل، وبرسالة أخرى.. شتمنا أهلنا.

ثمّ جاء الشتاء بأمطاره الغزيرة والامتحان بأسئلته المزعجة، فجأة اختفى.. انتقل مع أهله إلى بيت جديد في حارة بعيدة، لم أهتم كثيراً.. إنما رميتُ الورقة الخاصة بي من الشيفرة السرية لتلك الأبجديّة بسلة المهملات في غرفتي بلا مبالاة، وبعد مساءين اختارني حيان ضمن فريقه لأنتهي كبنت على الرصيف، لم أعرف وقتها إن كان هو قد انتهى كبنت في حارته الجديدة.

سقط مع الزمن خلال عقدين من ذاكرتي، مرّة أخبرني أحدهم أنه صارت لديه ورشة لتصليح الغسالات والبرادات، فابتسمت.

جاءت الحرب وهربتُ من البلاد، لكنها.. الحقيرة، الحرب.. لم تهرب مني.

هذا المساء، في أخبار التلفاز.. قال المذيع بصوت بارد إن مدينتي الصغيرة تعرضتْ مجدداً للقصف، أسرعتُ ــ كعادتي بعد هكذا خبر ــ إلى محرك البحث (غوغل) لأدخل موقعاً ينشر أسماء القتلى في مدينتي.

ثمّة قائمة طويلة للضحايا، قرأتُ الأسماء وأنا أشرب ككلّ ليلة من هذا الخمر الرخيص، الاسم الثاني: أظن أنه بائع المازوت، الثالث: صهر آل حمادة، السابع: جار الحاج يحيى، التاسع: جابر عبد الجليل، يا إلهي.. إنه هو، صديق الأبجديّة السريّة أيام الولدنة.

لحروف اسمه مع الكأس الثالث مرارة لا تحتمل، تذكرتُ تلك الأيام، استمرتْ الذكريات في رأسي عدة كؤوس وسجائر، كدتُ أختنق، مشيتُ ثمّ فتحتُ باب الشرفة لأتنفس قليلاً، كان الليل

فادي يازجي

يترنح أمامي كعجوز يرفض أن يموت.

ــ نحن لسنا بنات.. نحن لسنا بنات.. نحن لسنا بنات..

رصيف بيتنا تمدد في ذاكرتي مع كلمات الهذيانات القديمة لجابر.

كلّ جهات الليل غامضة، كهذه الحرب، كوجوه كلّ القتلى، كرصيف غادرته منذ زمن، من جهة غامضة لعتمته جاءتْ وارتطمتْ بوجهي.. استغربتُ.. لا هذا الوقت ولا هذه الشرفة الوسخة، زمان ومكان يناسبان أيّ فراشة، كما خمّنت.

انحنيتُ ببطء، تفاجأتُ.. ورقة مطوية بعناية كانت قد اصطدمتْ بوجهي وسقطتْ هنا، فتحتها بأصابع مرتجفة، و.. شتمتُ الليل، شتمتُ كلّ شيء.

على الورقة ثمّة رسالة طويلة، بتلك الرسومات، رسومات الأبجديّة السريّة مع جابر.. الآن، على الشرفة، أنا الهواية المفضلة للاختناق.

همستُ بخوف: هل أنت هنا يا جابر؟ جاوبني الليل بعتمته.

قد أعيش طويلاً، قد أفتش كمجنون في كلّ سلال المهملات في غرف الأولاد، لكن لن أعثر على شيفرة هذه الرسالة لتظل مجهولة إلى الأبد.

تأملتُ هذه الرسومات التي اخترعتها منذ عقدين في هذه الرسالة، كنت أهذي باسم القتيل.

بينما رسومات الرسالة، بهدوءٍ.. بدأتْ ترقص على الأسطر وكأنها مخمورة، لتتخذ شكل بنات جميلات.

كاتب من سوريا مقيم في تركيا

الفرح الجديد

مصطفى لغتيري

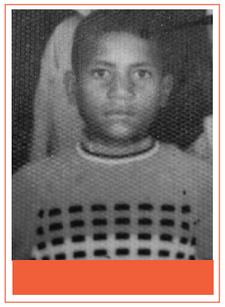

الاستبداد لا حدود له. أشجار التين والصبار تنتشر في كل مكان. خضرتها اليانعة تشلح عن المكان وحشته. أكوام من التربة المتراكمة تتخللها صخور تميل إلى البياض، تنغرس في أعماق الأرض فلا يبدو منها غير بقع متناثرة في غير انتظام، والطفل يركض مع باقي الأطفال في كلّ الاتجاهات. جلّهم أقاربه الذين يقضي العطلة الصيفية في ضيافتهم. جسده الصغير ينضح بسيل من العرق تحت أشعة الشمس الحارقة. في الظلال الشاحبة تنبطح كلاب ترقب الأطفال بأعين متكاسلة. لهاثها يبعث على الضحك. البحر الذي لا يبعد عن القرية كثيرا يرسل بين الفينة والأخرى أنفاسه المنعشة، فتتلقفها أجساد الصغار الملتهبة بلهفة وشوق.

بغتة وبشكل لم يتوقعه، لاحت له من بعيد، تحمل على رأسها كيسا، وتغوص بأقدامها الصغيرة في اتجاه طاحونة القرية. تراكضت خفقات قلبه.. داهم الاضطراب حركاته. وحتى لا ينفضح أمره دارى ارتباكه، ثم خاتل أصدقاءه وتسلّل مبتعدا. لمحه ابن عمه يبتعد، فسأله أين يذهب. تحجّج بأمر ما، لما أصر على أن يرافقه رفض بقوة.. مؤه الجميع وغاص في كثافة أحد البساتين. الحرارة تلفح جسده، غير أن الاخضرار الذي احتضنه بلطف خفف من قسوتها. عيناه لا تفارقانها. تعلقتا بها بكل إصرار. يخشى أن تضيع منه إن غفل عنها برهة. تذكر حينئذ تلك اللحظات المتوترة، حين تأججت في أحشائه لوعة لم يشعر بمثلها من قبل. كان الوقت صباحا، قابلها قرب البئر، حينما رافق أحد أقاربه لجلب الماء. ما إن تشابكت نظراتهما، حتى أحس بأنه أبدا لن يستطيع الانفلات من سطوتها. اخترقه لحظتها شيء ما، لم يتبين طبيعته. رعشة اعترته، دوار خفيف اكتنفه. الدماء تدفقت بكثافة نحو رأسه، فتسارعت نبضات قلبه. لم يستطع أن يحدد بدقة ما إذا كانت دواخله قد فقدت شيئا أو أضيف إليها شيء جديد، بيد أنه كان متأكدا من أن نفس الشيء حدث لها. صعب أن يبرهن على ذلك، لكنه أحس به إحساسا قويا. انتزعت نظراتها من نظراته وانصرفت، بينما استغرقته حالة من الذهول، دامت مدّة من الزمن.. فيما بعد عرف اسمها وارتشف أخبارها قطرة فقطرة. علم أن كثيرا من الشباب يطمحون إلى الفوز بقلبها. لم ينل ذاك من عزمه. أحس أن انتماءه للمدينة يرجّح كفّته، ويمنحه امتيازا أثلج صدره.

انبثق لها من بين النباتات الكثيفة، فبدت سيماء المفاجأة على ملامحها. أسرعت في مشيتها، فتبعها بقدمين لا تكادان تحملانه، وهو يلتفت في كل الاتجاهات خوفا من أن يراه أحد. دنا منها بشكل كبير. حين تبينت إصراره على ملاحقتها، التفت نحوه متصنعة الغضب:

- ماذا تريد مني؟ اذهب لحالك.

أحس بأن غضبها مفتعل. عيناها الباسمتان أوحتا له بذلك. قهر اضطرابه، وبصوت متهدج خاطبها:

- فقط أريد أن أكلمك.

تابعت سيرها، غير أن خطواتها تباطأت قليلا، هي تحدجه من حين إلى آخر بعينيها العسليتين:

- قل ماذا تريد. أخاف أن يرانا أخي.

نبضه كاد يتوقف. الكلمات انحبست في حلقه، فلم يدر ما يقول. لاحظت ارتباكه، فرمقته بنظرة حانية، أججت حدة الوجع الذي باغته. لم ينبس ببنت شفة. انجذب جسده نحوها.. تقدم خطوتين. أدخل يده اليمنى في جيبه. الاضطراب يكتنفه.. أخرج «علكا» التمع لون غشائه الأصفر بين أنامله المضطربة، وبيد متوترة مده إليها. بعد تردد لم يدم طويلا، بسطت يدها. تناولتها منه، وابتسامة خجلى تداعب شفتيها القرمزيتين. فرحة غامرة اكتسحته. بعد برهة استأنفت سيرها. حاول أن يتبعها غير أن قدميه تصلّبتا. بعينين منذهلتين شيّعها، وبعد هنيهة انتشل نفسه من ذهولها.

« لقد كلمتها وقبلت العلك مني». تردد ذلك في أعماقه، وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة ظفر ماكرة. انسل وسط البساتين، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أخذ مكانه بين أقرانه. سأله قريبه عن المكان الذي ذهب إليه. تجاهل السؤال، وانشغل- إلى أبعد الحدود- بتأثيث دواخله بالفرح الجديد، الذي حل ضيفا على كيانه، محاولا أن يفرد له أجمل مكان في قلبه.

كاتب من المغرب

استكمال جريمة الأب

مفيد نجم

فجأة ونحن نلملم القليل من متاعنا، كان على الطفل الذي كنته أن يودع فردوس طفولته ويمضي بعيدا خارج تلك الأرض التي لم يتعب يوما من الطواف الآسر على تخوم جهاتها الأربع سهلا وهضابا، فالحرب التي بدأت فجأة انتهت فجأة، بل انتهت قبل أن تبدأ لأن جنرال الهزيمة كان يعد لها أن تكون الأضحية على مذبح عرشه القادم. لقد كنا جميعا نمضي في صبيحة 6/11 الثقيل كمن ينتزع أقدامه خارج تلك الأرض، التي لم يكن يخطر في بال أحد أنها ستضيع منا، وأن نكبة أخرى ستلحق بالأولى وتطوّح بكل أحلام التحرير والمستقبل. لم تكن حربا، كانت ما يشبه الحرب، مئات الجنود كانوا يلتحفون العراء في السهول، التي كنا نعبرها بحثا عن ملجأ مسكونين بالرعب وهدير الطائرات القادم من السماء، حتى كان اليوم السادس الذي أنهى فيه جنود يهوه إعادة رسم جغرافيتهم، ويستووا في اليوم السابع على عرش انتصارهم.

كانت أياما مرعبة وشديدة القسوة، فقد كان علينا وحدنا أن نتحمل عبء هزيمة وذلّها على الرغم من أننا كنا ضحاياها، وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة بلا أرض ولا وطن، وأنا بلا طفولة تذكر، حيث بتنا نعيش ذلّ البحث عن مأوى في وطن لم يعترف بمسؤوليته عن معاناتنا، كل ما استطاع أن يقوم هو اختراع تسمية جديدة «النازحون» أصبحت تطاردنا حيثما ذهبنا.

في المدرسة كما في الحي أو أيّ مكان آخر لم تعد أسماءنا تدل علينا، بل صارت مرتبطة بالحال التي بتنا عليها «النازحون»، ولذلك كان علينا أن نحس بتمايزنا عن السوريين الآخرين، كما يشعر السوريون الآخرون بتمايزهم عنا. لذلك كان علينا أن ندرك حالة النقصان التي أصبحنا نعيشها كجرح يصعب أن نشفى منه بعد أن كان علينا أن نبدأ من الصفر، وأن نتدرب على حياة البؤس والحنين والغربة.

وهكذا كان على الطفل الذي ترك هناك ما يشبه الطفولة، أن يكبر سريعا، وأن يربي شعوره بالنقصان، في وطن لم يعترف له بكامل المواطنية. كان هذا هو فجيعتي الأولى وانكساري الأول الذي لم أشف منه بعد، ما جعلني أربي في داخلي شعورا دائما بالغضب والتمرد، وأنا أشاهد والدتي، وهي تكفكف دموعها الحارة في نوبة طويلة من الحنين على مدار سنوات من الغربة. كل هذا كان يشعرني بحجم الخسارة الفادحة، والنقصان الذي أصبح عليه وجودنا. لذلك كان عليّ في عالم كل ما فيه يوحي بالألم والخذلان أن أبدأ بطرح أسئلتي الأولى عن الوطن وفلسطين والهزيمة والثورة، لا سيما وأن الثورة الفلسطينية استطاعت في تلك الفترة أن ترمم شيئا من انكسارنا الكبير، وتعيد لنا بعض يقيننا على طريق استعادة كرامتنا المهدورة.

هذا الانقلاب المفاجئ في حياتي كان نقيضا كليا لصورة الصبي الذي تركته هناك، عاشق البراري والحرية والطبيعة والجمال، وكأنّ يتما حقيقيا أورثتني إياه هزيمة حزيران 1967، جعلني أعجب من نفسي كيف أضعت ذلك الطفل الذي لم يعرف أيّ معنى للطفولة. هكذا عبرت أيام حياتي بين ضفتين اثنتين، ومعها عبرت أشياء كثيرة، وابتدأت أشياء أخرى، لا أدري معها كيف كنت أربّي الألم والشعور بالنقمة والغضب على الواقع، الذي ظل يراكم هزائمنا بأشكال كثيرة وعلى صعد كثيرة، ما جعلني أنخرط مبكرا في السياسة والكتابة، وأنا مسكون بهاجس الثورة والتغيير والتمرد على الواقع بكل أشكاله ورموزه السياسية والاجتماعية والثقافية، ولذلك كان طبيعيا أن تفاجئ تحولاتي المثيرة كل من خبر ذلك الطفل الشارد في الحقول الذي كنته.

فادي يازجي

مرة أخرى يكون على الابن أن يستكمل جريمة أبيه، ولكن هذه المرة على نحو أشد إيلاما وقسوة لأن معركته هذه المرة كانت مع السوريين، الذين ثاروا لأجل حريتهم، فكان المنفى الجديد استكمالا لتاريخ سلطة لم يعرف السوريون فيها سوى الهزائم والقتل والتشرد.

ناقد من سوريا مقيم في برلين

منصة العروسين

مكاوي سعيد

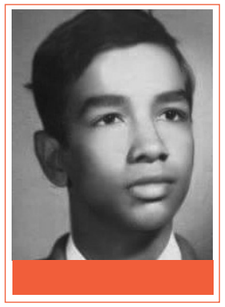

كنت في العاشرة من العمر وفى منتصف دراستي الابتدائية.. وكان اليوم يوم جمعة.. موعد راحتنا الأسبوعية ولعبنا كرة القدم سويًا في الشوارع الخلفية، وكانت هذه الجمعة بالذات مميزة جدًا لي على الأخص، فجيراننا في الشقة المقابلة يُعقد قران ابنتهم في المساء ويقام الحفل في ذات اليوم بالليل، وكان زملائي بالمدرسة يعقدون النية على حضور الفرح ويدبرون الخطط لمغافلة الكبار والاختباء أسفل الكراسي وبين فرجات السرادق لرؤية الراقصة، فقد كان من المعتاد في مثل هذه المناسبات طرد الصغار قبيل فترة الرقص حتى لا يتعرفوا على مفاتن الجسد المغاير، وكان زملائي يعتمدون عليّ في إخفائهم بينما يحلمون بما سوف يرونه من تفاصيل.

وصحوت صباح الجمعة على مشادة بين أمي الحنون وأبي الحاد واخترق الحوار فرشتي وغطائي بالرغم من أن أمي التي كانت تبذل جهدها لمنع الصوت من مغادرة شقتنا والوصول إلى شقة الجيران بالمحايلة والتوسل وصولاً إلى التهدج! ثم فجأة حلّ الصمت. وغادرت غرفتي لكنني تراجعت مندهشاً ووقفت بجوار الباب.. فقد كانت الصالة ممتلئة بأثاث الجيران الذين أخلوا شقتهم تمهيداً للعرس.. ورأيت أبي جالساً بجلبابه الصوف على كرسي خشبي ينفخ ويزفر، وأمّي واقفة قبالته ووجهها أحمر كالدم تكاد تتوسل إليه بألا يرفع صوته فيفسد على الجيران فرحتهم.. وكان يدب بحذائه اللامع على الأرضية الباركيه وعروق رقبته نافرة والرذاذ يتطاير من فمه وهو يلومها :

عاجبك كده.. من صباحية ربنا بيبلونا بعفشهم.. إنتِ ما بتفهميش؟ اقتربت أمّي تربّت على كتفه، فنطرها بعيدًا وهي تقول برجاء: معلش يا حاج.. أهو يوم ويعدي.. وحاجة تقعد لابنك.

صرخ فيها فقفزت إليه ملتاعة متوسلة أن يسكت لكنه لم يبال واستمر في اللوم: لا ابني ولا زفت.. «ثم افتعل النهوض».. أنا حاقوم أروح لهم بيجوا ياخدوا حاجتهم دي.

قبلته أمي على رأسه وعلى يديه وهي تحلّفه بخاطرها وخاطره وخاطر المسلمين كلهم، فعاد إلى مقعده مرة أخرى لكنه لم يتوقف عن الكلام.

أنا ما كنش لازم أعتمد على مرة فلاحة زيك.. دا إنتِ حتى ولا عملتي لي اعتبار!

في هذه المرة انطلق الصوت من أمي قوياً.

ليه يا حاج.. مش هم استأذنوك إمبارح وقلتلهم ما فيش مانع.

رد أبي ساخراً:

استأذنوني يحطوا حتتين عفش.. مش عفش الشقة كله.

استسلمت أمي تماماً وقالت وهي تسير باتجاه المطبخ:

على العموم اعمل اللي عايز تعمله يا حاج.

استفز أبي لكنه لم ينطق.. الغريب أنني وأنا في هذه السن الصغيرة وعمري لا يتجاوز العاشرة كنت متأكدًا من أن أبي لن يذهب إليهم ويطلب منهم إعادة الأثاث مرة أخرى إلى شقتهم.. وكنت مندهشاً من أن يدخل على أمي هذا التهويش.. دقائق قليلة وسمعت صوت الباب يدوّي مع صدى خطوات أبي هابطًا الدرج.. ووجدت أمي تبكي في المطبخ.. لم أسألها عن سبب البكاء لكنها عندما رأتني أتأملها بأسى.. احتضنتني وأعطتني نقوداً لأتنزه.. ورجتني ألا أطلب من أبي شيئاً هذا اليوم.. نزلت ولعبت مع أصدقائي ثم خططنا أن ننقسم إلى ثلاث مجموعات فى المساء.. مجموعة تجمع أرغفة الأرز واللحوم، ومجموعة تجمع قطع الجاتوه، ومجموعة تلبد بجوار خشبة المسرح تسرق بعض نقوط الراقصة بعيداً عن أعين الجميع.. اخترت طبعاً المجموعة الأخيرة حتى أستمتع بالراقصة ورؤية المدعوّين وهم يتلمسون صدرها وهم يضعون النقود مثلما رأيت في فرح سابق.

وفى المساء تسللنا إلى شقة الجيران وهم يرصون الكراسي ويجهزون منصة العروسين ومسرح الغناء. واكتشفنا المنضدة المعدة لإطعام المدعوّين خلف ستارة مزركشة وتقبع فوقها حلل مملوءة بالطعام.. وحلا لنا اللعب أسفلها نختبئ ونجرع حتى تعثر أحدنا فيها وقلب بعض الحلل فأحدثت دويًا هائلا جعلتهم يجرون خلفنا في أرجاء الشقة بالتزامن مع صوت الطبل والدفوف الصاعد من أسفل المنزل يعلن عن وصول الزفة. وفى رحلة هربي اندفعت خارجا من الشقة فوجدتني في قلب جلباب أبي الذي رفعني من القفا وألقى بي في حجر والدتي التي كانت

تمشط شعرها ثم أمرها متوعداً: الواد ده يتخمد.. مش عاوز أشوفه بره خالص.. لو خرج.. إنتِ المسؤولة.

وضاعت أحلامي بمشاهدة الفرح وتأمل الراقصة وفشلت جهود أمي في التوسط لي بالدخول أكثر من مرة، وحاولت النوم لكنه استعصى عليّ من الغضب ومن زميلي شريف الذى تسلل حيث سريري ليخبرني أو ليكيدني بأنه رأى الراقصة تهبط مع فرقتها من ميكروباص أسفل البيت وباستعداده لتهريبي إلى الفرح طون أن يعرف أبي. لكنني صرخت فيه وطردته فأخرج لي لسانه متشفيا وجرى.

ثم علت الطبول وتعالت الأصوات فغلبني القهر وغلبني النوم. وفى وسط النوم رأيت أمي بالغرفة مع نسوة أخريات.. وهي تشير إليهن نحو المسامير التي بالحائط ونستخدمها كشماعات أعلق عليها مرايل المدرسة، ثم واربت أمي عليهن الباب.. تسللت أصابعي لتبعد الغطاء برفق عن رأسي، وظللت أتلصص على الفاتنة ذات الملابس السوداء وهي تخلع ملابسها وجسمها أبيض وثدياها نافران يكادان يخرجان من الحمالة الحمراء.. ساعدتها الأخرى في ارتداء «بدلة» الرقص البمبي التي يتوزع عليها كثير من الترتر.. كما ساعدتها في ضبط أصباغ الوجه، حتى أتت إحداهن تستعجلهما فهرعن معًا من الغرفة.. زاد إيقاع الدفوف والطبول ونهضت بنصف رأس وكان هذا واقعًا وليس خيالاً.. وظللت فترة مرتبكاً متحيراً.. ولم أتأكد من أنه حقيقي حتى تلمست فستانها الأسود وتشممته كثيراً.. عدت إلى فراشي هذه المرة متربصاً منتظراً، وكلما تعالت الزغاريد وصوت المؤدي الذي يصاحب الراقصة تضايقت، وكلما خفت الصوت تأهبت، لكن سرعان ما يطالب المدعوون بإعادة الرقصة ويدوى الصخب من جديد.. إلى أن سمعت تصفيقًا عالياً وموسيقى متلاحقة.. خمنت أن الراقصة تغادر خشبة المسرح.. وكنت بالفراش مغلقاً عيني إلا من بصيص أكاد أرى به.. دخلت الراقصة تنهج وجلست على كرسي قبالة سريري..كان العرق يتدفق غزيراً منها وكان يضفي جمالاً على جمالها.. كانت صاحبتها تلازمها وبفوطة بيضاء تجفف عرقها، وكنت مغتاظاً منها جداً.. ثم بدأت أحسدها عندما تجولت بالمنشفة حول صدر الراقصة ورفعت صدريتها وبدأت تجفف النهد.. هنا أعجزتني الرؤية فارتفعت بغباء، فرأتني الراقصة وشهقت.. بينما صاحبتها تندفع تجاهي وهى ترفع عني الغطاء.. ضحكت الراقصة حين رأت جسدي الضئيل وقالت: عامل نايم يا منيّل؟! تدافعت الدموع رغماً عني.. نهضت الراقصة تربت ظهري.. كانت رائحة عطرها الممتزجة بعرقها تحيطني وتغمرني بالسعادة.. لكنني واصلت البكاء.. هدأتني وسألتني: لماذا أنام بغرفتي ولا أحضر الفرح؟.. واستحثتني على الإجابة.. وجدت نفسي منساقاً للكلام معها.. قلت لها كل شيء.. عن أبي القاسي.. وأمي الضعيفة.. والأولاد الذين استمتعوا بالفرح وسيغيظونني غداً.. وتماديت فحكيت عن خطتنا لسرقة النقوط.. ضحكت طويلاً وقالت: الطبال كان هايموتكم.. ثم طلبت من مرافقتها الحقيبة وأخرجت بعض النقود، رفضتها بشدة.. سألتني: عاوز حاجة؟ سألتها: إنتِ حترقصي تاني؟.. سألتني: ليه؟.. أجبت بسرعة: عشان تاخديني معاكِ أتفرج وساعتها أبويا مش هيقدر يضربني.. ضحكت وقالت هيضربك بعد ما أمشي يا فالح.. بان على وجهي الاستياء.. سألتني: بتحب الرقص؟ أومأت مؤكدًا.. فأمرت مرافقتها بأن تأتي بالطبلة بسرعة.. اعتقدت أنها ستعطيني الطبلة هدية لأغيظ بها الأولاد.. فارتبكت أين أخبئها؟ أتت المرافقة بالطبلة، أشارت إليها أن تغلق الباب وتقف خلفه، وطلبت منها أن تدق على الطبلة برفق.. عدلتني على السرير.. وبدأت ترقص لي وحدي.. وتهز لي ثدييها كما تهزهما للكبار.. ثم اختطفت يدي الصغيرة ووضعتها داخل حمالتها فلمست صدرها الذي لن أنسى ملمسه لسنوات، ثم مالت علي وقبلتني وهي تقول: كويس كده.. ابتسمت وقلت: كويس. ارتدت ملابسها ووعدتني بأنها إن جاءت لإحياء أيّ فرح في حيّنا ستأتي إليّ وتأخذني معها.. رحلت وانتهى الفرح. لكن لم تنته هذه الليلة الواقعية جدًا لي. فقد جعلتني لا آبه لأيّ فرص ضائعة وأوقن أن النصيب آت لا محالة. وقد ساعدني ذلك كثيرًا في حياتي العادية والإبداعية.

كاتب من مصر

ملف

قطة في الحديقة الخلفية

مناف زيتون

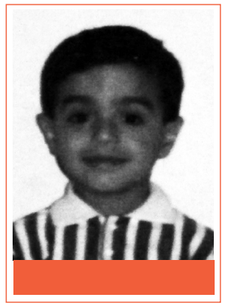

حين أفكر بالأمر الآن، لا أتذكر سوى جدران حديقة المنزل الخلفية المتقاربة، والأغصان المتشابكة المخيمة على زاويتها كدبٍّ ينقّب في النهر، أتذكر حرقة الجروح على ظهر يدي، المخالب مرت وتركت ثلاثة شطوب واختفت قبل أن أراها، تغيب عن ذاكرتي المسافة بين إصابتي وانتقالي لداخل المنزل محاطاً بعائلتي والضيوف والنور المجذوم الذي تسربه نوافذ بعد الظهيرة، الذعر مخلوطاً بالضحك يحيط بي، وأنا أقف جامداً لا أجيب أحداً، أشعر بحرقة شديدة في الجرح الأول من اليمين أكثر من الآخرَين، وداخلي، في قاع وعي طفل في الخامسة من العمر، يتغير شيءٌ ما إلى الأبد، ومؤخراً تنزاح قارات دخيلتي ويطفو قاع المحيط إلى قمم الجبال.

كانت الدنيا بالنسبة إليّ ثلاثة شوارع أثناء السنوات القليلة التي أتذكرها في حينا القديم، شارع منزلي، شارع السيارات إلى يسار المنزل، والشارع الخاوي المؤدي إلى فرن الخبز ومدرستي على يمين المنزل، الأول هو شارعي، الثاني هو دمشق، والثالث هو كل الحياة التي ظننت أنني سأواجهها، لا تنوع الزهور في حينا، فقط الكثير من الياسمين المتشح ببقعٍ سوداء صغيرة تدون حركة عبور السيارات، ملئت هذه الزهرة الطاغية حتى قبل القدرة على تسجيل الذاكرة، ولكنها في دنياي الصغيرة كانت كل الزهور.

كانت الدنيا بالنسبة إليّ أنا وجيراني وعائلتي، وبعض الغرباء لا يتجاوز وجودهم طابوراً صغيراً أمام الفرن، أو صوراً ينقلها مشوشاً زجاج السيارات، وكان الكل واحداً، لا أحد يقف في وجه الآخر.

نظرتها نحوي تبدو حين أتذكرها الآن محذرة بجلاء من الاقتراب، ولكن في تلك السن لم أستطع ترجمة وجه قطة غاضبة، كنت أحمل غطاء علبة مرطب اليدين وفي داخله بضعة زهور ياسمين قطفتها من الحديقة، بوصفها زوائد لا لزوم لها ولن أساءل عنها أمام والديّ، لا بوصفها تعبيراً مبتذلاً عن المحبة، كنت سعيداً باستمرار وجود حيوانٍ في حديقتنا وأريد الترحيب به، لست مبرمجاً عبر التلفاز ومراقبة الأغنياء بما يكفي على مداعبة الحيوانات الأليفة، ولا الأوقات التي لا يجب فيها الاقتراب منها، واعتقدت أن بإمكاني أن أقدم لها هدية عشوائية من أيّ زوائد متوفرة في المنزل، كما كنت أفعل لبعض أفراد العائلة، مرحباً بها في حديقتنا، وبمواليدها في الحياة.

حين أفكر بالأمر الآن، لا أتذكر سوى الجدران والحديقة، لا أتذكر سوى نظرتي الأخيرة على العالم قبل أن يتغير، أخبرني الجميع أن السبب كونها تحتضن أطفالها المولودين حديثاً، والقطة تكون عنيفة في هذه الأوقات، لم يكن الأمر بيولوجياً بالنسبة إليّ، لم يكن جزءاً روتينياً من الطبيعة، كانت المرة الأولى التي لا أشعر فيها بالأمان، كل الأخطار التي واجهتها حتى ذلك الحين، كل الأوضاع المقلقة والتهديدات بالخطر لم تكن سوى مداعباتٍ من الآخرين للطفل الأصغر في العائلة، وفجأة اكتشفت أن وجود من يرغب بإنزال الأذية بي ليس أمراً مستحيلاً.

لم تترك الجراح أثراً، ولكنني حين أنظر ليدي اليسرى أرى مواضعها الدقيقة، أراقبها تصغر إذا كبرت يدي.

الحلقة الأولى من سلسلة طويلة، أحبس في صهريج ماء فأكتشف أن الأشياء يمكنها أيضاً أن تؤذيني، تغرقني على سبيل المثال، ننتقل إلى ضاحية شبه مهجورة فأكتشف أن المدن يمكنها أن تؤذيني.. وتستمر المسألة، تندلع حرب، فأكتشف أن حتى الأفكار تستطيع قتلي، الكلمات تستطيع قتلي، وحين يتجول جزار أمام باب غرفتي؛ تنفسي يستطيع قتلي.

تقدمت في السن، واكتسبت عادة اللطف والحرص المفرطين مع الأطفال، أخاف أن أكون محاطاً بالمدينة الفاضلة لأحدهم، أن أكون الحجر الأول سقوطاً من هيكلهم، أن يُلبسوا بؤسهم وجهي. أجبرتني الطرقات المغلقة في الحرب على التجول في الحي القديم من جديد، وحين تعبر قربي قطة هناك أتهيّب، أتذكر وجه القطة الذي ألبسته لنذالة العالم، عالم يقدم طفل له الزهور، ويرد عليه بمحاولة قتله.

كاتب من سوريا

صورة ثلاثية عند سور المدرسة

منذر مصري

لطالما تباهيت بكوني خريج المدارس الثلاث الأشهر لمدينتي اللاذقية، بدءاً بمدرسة «الأرض المقدسة» الكاثوليكية، حيث أمضيت المرحلة الابتدائية، تليها «الكلية الوطنية الأرثوذكسية» التي عبرت بها المرحلة الإعدادية، إلى ثانوية «جول جمال» التي عندما طلب مني بمناسبة يوبيلها الذهبي، أن أكتب شيئاً عنها، باعتباري أحد طلابها، قلت «إذا كانت المدرسة أماً، فمدرسة 'جول جمال' أمي التي فطمتني».

شيء ما ينقص أيّ «لادقني» إذا لم يكن خريج «جول جمال»، أسماء مدرائها وأساتذتها وحتى طلابها، خاصة أولئك الذين صاروا رؤساء ووزراء وأدباء مشهورين، والقصص التي تروى عنهم، تشكل أجمل وأهم صفحات ذاكرة المدينة. إلاّ أني، شخصياً، كرهت «جول جمال» كما لم أكره أيّا من هذه المدارس الثلاث على اختلاف أسباب كرهي لكل منها، فالسنوات الثلاث التي قضيتها في «جول جمال»، كانت بالنسبة إليّ عذاباً يتجدد كل صباح، وأنا أجرجر خطواتي من بيتي في الطرف الجنوبي للمدينة المفتوح على البحر إلى وسطها المغلق «ساحة الشيخ ضاهر»، التي يهيمن عليها بناء المدرسة الحجري، وكأنه قلعة مهيبة، مما أدى لتراجع غير مفهوم في مستواي الدراسي، حتى أنّي كدت أرسب في الصف الثاني الثانوي، لولا تدخل مدرب الفتوة، قريب أمي.

سوف أقص الآن، ما منعت نفسي، ومنعت أيضاً «مصطفى عنتابلي»، الجالس بجانبي في الصورة، ومظاهر القلق تبدو على محياه الطفولي، وبيننا يقف «ممتاز منلا» بسحنته الشاحبة يدوس بقدم واحدة على حجر ناتئ من سور المدرسة، وثلاثتنا نرتدي زينا العسكري «الفتوة» كاملاً، القبعة ذات الشعار، والبوط الأسود يغطيه «الكتر»، والشريطة التي يحدد لونها صف الواحد منا، ما رغبت من الجميع عدم الإتيان على مجرد ذكره، رغم تورطي وتورط مصطفى وأختي مرام بكتابات مسهبة حول كل شيء عشناه في ماضينا، فما بالك بحادثة غير عادية، لا شبيه لها، أقرب للجريمة، كنت أنا بطلها، وكان مصطفى وصديق آخر «عدنان صوفي» ضحيّتيها، وما زال هناك، رغم انقضاء أربعة عقود كاملة، من يذكّرني بها، وكأنه يظن أني نسيتها.

آخر تلك السنة.. 1965، التي التقطت لنا بها هذه الصورة، السنة الثانية لي في «جول جمال»، والأولى لمصطفى، حدث وكنا مجموعة من الأصدقاء، خمسة أو ستة، خارجين من مشاهدة فيلم ما، أظنه «سبارتكوس»، إذا خدمتني الذاكرة، التي أشعر أنها بدأت بالتلاشي، وأنا أحاول استعادة العديد من تفاصيل الواقعة، وكنا شبه منتشين بمشاعر الحرية والثورة التي يعبر عنها الفيلم، وبينما كنا نعبر في طريق عودتنا إلى بيوتنا، (سوق الصاغة) لفتت نظري ملصقة على أحد الجدران «الشرطة في خدمة الشعب»، ولا أدري لماذا، ذكرت لتوي أني ربما كنت متأثراً بالفيلم، أو ربما، لولعي حينها بالرسم!؟ أو قل بسبب طيش فتى لا يزيد عمره عن 16 عاماً، قمت ورسمت في الفراغ بين حرفي «ر» و«ط» حرفين موصولين «مو». فصارت «الشرموطة»!؟ بعدها تفرقنا كل منا باتجاه بيته، ما عدانا أنا ومصطفى وعدنان، الذين تقع بيوتنا في ذات الاتجاه، ولكن ما أن وصلنا إلى ساحة أوغاريت، حتى وقفت أمامنا سيارة جيب وهبط منها عدد من عناصر أمن، كانوا على يبدو يتبعوننا، كبلونا وأدخلونا السيارة ومضوا بنا إلى «فرع الأمن السياسي» الذي على مسافة أمتار من بيتي. هناك ما كان لي سوى أن اعترف بأني أنا الفاعل، وبأن لا علاقة لأيّ من أصدقائي بما حدث، وأنا أتحمل كامل المسؤولية، ولا ذكر أني فعلت هذا بأيّ دافع بطولي، بل ربما العكس تماماً. ومن الوقائع القليلة التي أذكرها، أن أحدهم سألني، ما إذا كان أبي، الذي شغل منصب رئيس أمن عام منتصف خمسينات القرن العشرين، هو من يقول أمامي أشياء كهذه!؟ وأذكر أيضاً أنهم ضربوني فلقاً غير مبرح كثيراً، وأنا منبطح على أرض الغرفة، كما أذكر أنهم تبادلوا الضحكات عندما طلبوا من مصطفى أن ينبطح بدوره، فقام وانبطح على الكنبة!؟. لم يستغرق الأمر أكثر من ساعتين أو ثلاث، بعدها حلقوا لنا شعر رؤوسنا على الصفر، وأطلقونا. وفي صباح اليوم التالي لم يحضر مصطفى وعدنان إلى المدرسة، بينما أنا.. ذهبت!؟ حيث رأسي الحليق كان سبب تحقيق آخر في غرفة الإدارة، لم تنتج عنه أيّ عقوبة.. فالعقوبة التي نلتها عن استحقاق، كما قال المدير، كافية لتعلمني الدرس الأخلاقي والوطني المطلوب.. وبالفعل!؟

علي علي

وقعت حرب حزيران 1967، خلال تقديمي لامتحانات «البكالوريا»، في إحدى قاعات «جول جمال»، التي بلغ كرهي لها تلك الأيام، مختلطاً بكرهي من الامتحانات، للحد الذي تمنيت أن تقصفها، قصداً أو بالخطأ، إحدى الطائرات التي كانت تحوم فوق اللاذقية. لكن ذلك لم يقع، وعدنا للفحوص بعد توقفها، وكان أن نجحت بعلامات كانت تؤهلني للدراسة في العديد من الكليات الأدبية والفنية، لكني آثرت، نتيجة ميولي اليسارية وقتها، كلية جديدة افتتحت تلك الآونة، وهي كلية العلوم الاقتصادية في جامعة حلب.. القرار الذي أعده من أسوأ القرارات التي اتخذتها في حياتي.

كما تغيرت أماكن كثيرة في اللاذقية، تغيرت أكثر القيم والمفاهيم، حتى صار أمثالي يشعرون بأنهم يحيون في مدينة أخرى بالكاد يعرفونها.. فإذا ذكرت مستنكراً أمام بعض الناس، أنه لا يليق أن تتحول مدرسة «جول جمال» بكل ما ترمز إليه من معان علمية وثقافية وسياسية في تاريخ المدينة، إلى ثكنة عسكرية، كما باتت منذ خمس سنوات، يجيبونني دون أدنى تأثر «ليست مشكلة.. بعد انتهاء الأحداث تعود..!؟». وبالمقابل، هناك من أصدقاء تلك الأيام، من راح يوقفني ويقول لي «وكأنك كنت تعرف أن هذا ما سوف تصل إليه الأمور، منذ أن كتبت تلك الكلمة على الجدار»..

شاعر من سوريا

ابتسامة أمي

مهند عرابي

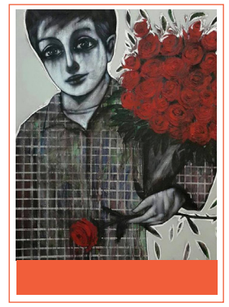

كثيرة هي الأحداث والتجارب التي مرّت في حياتنا في أكثر الأحيان لا نعي تأثيرها في وقتها، هذا التأثير الذي سوف ينعكس لاحقا على تفكيرنا وشخصيتنا أو حياتنا بشكل عام.

منها ما هو مأساوي ومنها ما هو مفرح يبعث في نفوسنا الثقة يعطينا دفعة إلى الأمام تساعدنا في معرفه ما نريد من هذه الحياة. لن أتحدث عمّا هو مأساوي الآن...

ما حدث لي قصة لطيفة تعطيني القوة دائما.

فمن بيئة وأسرة متواضعة بسيطة أحاطتني بكثير من الاهتمام والحبّ عززت في داخلي حبّي للرسم والخطوط والألوان. كانت أمي، وأنا طفل صغير يرسم خطوطه الأولى، تجمع هذه الرسوم المبعثرة ترتّبها وعند قيامها بزيارتها المتبادلة مع الجيران، كانت تخرجها وتريها لهن وقد ارتسمت ابتسامة رائعة على ثغرها. لقد حوّلت تلك الرسومات إلى معرض متنقل. دفعني هذا لأرسم المزيد لأرى ابتسامتها وإعجابها بما أنجز.

كان تشجيعا لطيفا غير مباشر من أنثى أعطاها الله كل الحب والحكمة.

دفعني هذا للمشاركة في مسابقات المدرسة والمدينة في مجال الفنون إلى أن حصلت على المرتبة الأولى في الرسم على مستوى القطر وبعدها كنوع من التكريم أوفدت إلى ألمانيا لمده شهر وكنت لا أتجاوز الثانية عشرة من عمري.

فمن طفل يلعب بالألوان ويشاكس إخوته وأطفال الحارة وجدت نفسي في برلين ممثلا بلدي سوريا في مهرجان ومعسكر للشباب من حول العالم بمشاركة أكثر من 125 دولة. كل هذا أضاف الكثير إلى شخصيتي في تحفيز الذات والنظر إلى الأمام والأمل بواقع أفضل وإن الأشياء البسيطة ممكن أن توصلك إلى نهايات رائعة.

ابتسامة أمي رسمت طريقي... كم جميل أن أرسم لأرى ابتسامة أمي ففي كل معرض ومع كل لوحة أرسمها إلى الآن أجدها خلفي مبتسمة تخبر جيرانها بما فعل مهند.

فنان تشكيلي من سوريا مقيم في بيروت

فادي يازجي

محمد عرابي

سيارة من ذهب

ميموزا العراوي

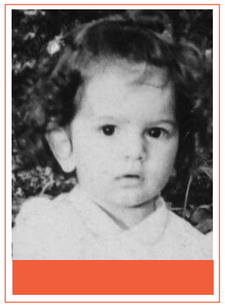

لوالدي سيارة جديدة الآن. لا تعني له شيئاً. كما لا تعني لنا أيّ شيء أيضا. أما عندما كنا صغاراً أنا وإخوتي فكان والدي يملك سيارة ذهبية اللون من طراز «صان بيم» أرسلها له خالي من ألمانيا عن طريق البحر بعد طول انتظار. بقيت هذه السيارة، سيارتنا «المُدللة» حتى بعد تخرجي من الجامعة ودخولي معترك العمل بسنين عديدة.

كأن اسم السيارة الذي يعني بالعربية «شعاع الشمس» وكونها قادمة عن طريق البحر لم يكف لكي نرى فيها سيارة تختلف عن سائر السيارات، فوضعت فيها والدتي كيساً شفافا مُقصّباً بخيوط ذهبية رائعة، فيه قطع من صابون الغار الذي كانت جدّتي ترسله لنا دوريا من حلب مع أقمشة ملونة و«مضيئة»، هي الأخرى ومزركشة بخيوط ذهبية وفضية على السواء.

أما والدي فقد شارك في طريقته الخاصة بأن يجعل من سيارته الذهبية سيارة لا مثيل لها وتملك قوة لا يشاركها فيها أحد من السيارات، إذ كان يقول لنا أن سيارته بإمكانها أن.. تطير. نعم. ولكن في ظروف قليلة جداً ترتئيها هي، أي السيارة، مناسبة.

كانت تتوسط مقود سيارة «الصان بيم» حلقة زرقاء اللون شفافة. كان يقول لنا بأنها عين جنيّ السيارة. جنيّ يعتني بها جيداً على شرط أن لا «يطوشه» ضجيجنا أنا وإخوتي خلال الرحلات الطويلة إلى الجبل أو غيرها من المشاوير النادرة التي كنا نقوم بها خلال فترة الحرب.

ربما يجب أذكر أيضاً أن «العين» هذه قد أوعزت في يوم من الأيام إلى والدي أن يصرخ فجأة بوجهي، وأنا في حضن والدتي بقربه، طالبا منّي بأن أدير وجهي بعيداً عن النافذة. لكن طلبه كان متأخراً. رأيت يومها من خارج النافذة رأسا بشريا ينزف فوق تلة صغيرة من ثلج وضعها أحدهم على مقدمة سيارته. لم تغضب «العين» منّي لأنّني رأيت. ولم يغضب الوالد مني، بل أمسك بيدي من دون أن يقول كلمة واحدة.

الحقّ يقال إن السيارة أثبتت لأكثر من مرة أن شيئاً خارقاً يكمن فيها. فمثلا: احترق خلال إحدى الليالي عدد كبير من السيارات تحت المنزل إثر القصف، إلا «الصان بيم» التي كانت مركونة بينهم. الغريب أن والدي قال لنا دون أن يفارق القلق محيّاه بأنه متأكد بأنها «بخير» رغم أن الجار القابع بقربنا في الملجأ قال إنه شاهدها تحترق. ومرة أخرى وخلال الإجتياح الإسرائيلي مرّت بالقرب منها ملالة إسرائيلية فلم تسحق بابها كما فعلت بأبواب السيارات الراكنة على الرصيف. يومها قال لنا والدي «حديدها من صنف آخر!».

لكن الاختبار الأقصى الذي مرت بها سيارة «الصان بيم» فكان قبل تلك الحوادث بكثير. كان ذلك عندما كنت في العاشرة من عمري.

وفق ما أتذكر كنا في زيارة إلى أحد أصدقاء والدي القدامى«عمو أبو إلي» الساكن في منطقة «الأشرفية». هرعنا يومها إلى السيارة قاطعين الزيارة. ووقف أبو إلي ينظر إلينا بقلق من شرفة منزله. عندما أصبحنا في السيارة بدأ والدي يحار أيّ طريق يسلك فيبدل طريقاً بعد أن انطلق فيه. ثم بتنا نسمع تصاعدا لأزيز الرصاص.

بعد قليل أدار والدي شريطاً لفيروز كنا نسمعه عادة في السيارة. صدف أن الأغنية كانت «طيري يا طيارة من ورق وخيطان». بدأ والدي يرفع من مستوى الصوت المُسجل شيئا فشيئا، وهو يلقي نظرات خاطفة إلى والدتي. نظرات لم أفهمها يومها تماماً. كلما كانت تنتهي الأغنية كان أخي الصغير الذي لم يكن يبلغ وقتها أكثر من ست سنوات يقول «أعيديها ماما!». كانت «الماما» تعيدها بشكل أوتوماتيكي وبصمت لم نعهده منها من قبل، فمن عادتها أن تغنّي في السيارة.

ربما لأنني كنت الأكبر سناً بين إخواني ظل والدي يسترق النظر إليّ من مرآة السيارة ليتأكد من عدم إدراكي لما يحدث. كان يبتسم قائلا «الصان بيم ستقوم بالمطلوب!» كل ما أذكره في تلك اللحظات الغامضة أنني بدأت «أقضم» ظهر جلد المقعد الذي يجلس عليه والدي. شعرت بالخوف ولم أكن أدري تماما لماذا. مددت ذراعي إليه، كالمعتاد، وهو يقود السيارة ليمسكها ويقبّلها بين الفينة والأخرى، فيطمئن قلبي للحظات وأقول في نفسي «السيارة ستطير إذا لزم الأمر».

بعد عدة دقائق، مررنا على ما اعتدنا عليه لاحقا بـ«حاجز طيار». بدأت أمي تصرخ: لا تقف. لا تقف! وفيروز يعلو صوتها... ووالدي ينظر إليها مُطمئنا، وقائلا «لا تخافي! ولوْ؟ أنت مع سبع الليل!». «سبع الليل» كان اللقب الذي أطلقته والدتي عليه منذ زمن بعيد، عندما كان مُعكّر المزاج أو يواجه مشكلة ما مهما كانت تافهة.

توقفت السيارة. قال له أحد الأشخاص، وكان مُسلحاً: انزل من السيارة!

نظرت إلى والدتي التي لم يصدر منها صوت واحد. كانت الدموع تنهمر من عينيها بشكل لم أره في حياتي. بعد لحظات طلب منّا المُسلح أن ننزل من السيارة. فرفض والدي وقال لهم «لن ينزل أحد. خذني إذا أردت!». أذكر أن أحدا منهم طلب منه هويته وسأله عن مهنته. أجاب والدي إنه مخرج جريدة النهار. لا أدري يومها إذا كان عمله في هذه الجريدة قد غيّر من رأي المُسلح. لكنه أدخل رأسه إلى السيارة. رمقنا بعدة نظرات ثم رمى أوراق الوالد في السيارة وطلب منه أن يغادر قائلا له بما معناه «ما تخليني شوف وجك هون!».

أخي لم يتوقف عن طلب إعادة الأغنية. كما لم تتوقف والدتي عن إعادتها كلما انتهت. عندما سألتها شقيقتي«لماذا تبكين؟» أجابتها «لأن الأغنية جميلة جدا». ضحك والدي لحظتها فقال بعد عدة لحظات «ألم تروا ما حصل؟ لقد طارت الصان بيم بسرعة رهيبة!». لم تعجبني الفكرة وقتها لأنني لم أر أيّ شيء ولكنني أقنعت نفسي أنها فعلا طارت لأننا وصلنا إلى بيتنا بعد ذلك بسرعة غير معقولة.

ظلّت هذه الذكرى من أقوى الذكريات لديّ وأكثرها تأثيرا في نفسي، وربما في أسلوب كتاباتي ورسوماتي. كل شيء مؤلم غالباً ما يحضر مع نقيضه «لينزع فتيله المتفجر»، إذا صح التعبير.

أغنية فيروز لطيارة من ورق، وأزيز الرصاص مُتصاعد الوتيرة. الإيضاح الغرائبي الذي أتحفتنا به والدتي، والسبب الحقيقي الذي يقف وراء دموعها. الطمأنينة مع «سبع الليل» والخوف من العالم المحيط. بشاعة الرقعة التي قضمتها بأسناني والتي أحبها والدي وحرص على إبقائها كما هي عندما بدّل فرش السيارة بعد سنين عديدة على الحادثة. الواقع المرّ، ولكن المفتوح على الأمل المُتمثل بصوت أخي الطفولي «ماما، أعيدي الأغنية». الحزن الذي أرجو أن لا أصعد يوما إلى جانبه إلا وأنا في سيارة تشبه سيارة والدي السحرية. سيارة تعرف في اللحظة الحرجة «أن تقوم بالمطلوب».

فنانة تشكيلية وناقدة من لبنان

ميموزا العراوي

طفولة قلقة

ناصر عراق

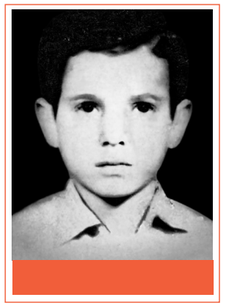

استيقظ الطفل مذعورًا على هتافات ترجّ جدران غرفته البسيطة.

هرع إلى النافذة. تلقّى دفقات من الظلمة المقلقة ترافقها نسمات ناعمة نادرة في شهر يونيو. رأى أشباح الآلاف من الرجال تحمل صور عبدالناصر وتصيح «لا... لا... هانحارب... هانحارب». ركض نحو غرفة والده، فسمع أباه يتحدث إلى أشقائه الثلاثة الكبار بأسى قائلا «قضي الأمر... واعترف الرجل بالهزيمة كما سمعتم قبل قليل... كنت أدرك أن الأميركان لن يتركوه ولن يتركونا نبني ونعمّر»، ثم أضاف بحكمته المعهودة، لكن بنبرة تقطر أسى وحزنا «لا تيأسوا... أنتم شباب والمستقبل أمامكم... الحياة هكذا... هزائم وانتصارات، والمعركة مازالت طويلة»، لم يعلق أيّ منهم بشيء، لكنهم استأذنوا والدهم بالمشاركة في المظاهرات فأذن لهم، بعد أن أمرهم «لا تتأخروا عن الساعة الواحدة ليلا».

لم يفهم الطفل شيئا، فهو بالكاد أكمل عامه السادس قبل 50 يومًا فقط، لكنه شعر أن مصيبة سقطت في قلب البيت الهادئ المسالم، فزلزلت أركانه، ولمس عناكب الهموم تزحف في أرجاء المنزل، كما لاحظ أن الشحوب طال وجه والدته فاختفت ابتسامتها التي تشع النور في أرجاء البيت البسيط بحي شبرا الخيمة شمالي القاهرة. ولما حاول أن يستفسر من شقيقته الكبرى وجدها منخرطة في بكاء مكتوم، لكنها ربتت ظهره بحنان وهمست «لقد هزمتنا إسرائيل وقتلت جنودنا».

دارت الأيام بسرعة مغلفة بغشاء من الحزن والهم والإصرار، واخترقت مسامع الطفل مفردات غريبة لم يسمع بها من قبل مثل «حرب الاستنزاف/حائط الصواريخ/مبادرة روجرز/جولدا مائير/موشي ديان/نيكسون»، إذ كان النقاش لا يتوقف في البيت العجيب عن هموم السياسة ومستقبل الوطن، وفجأة دون سابق إنذار مات عبدالناصر، فشاهد الطفل دموع أبيه للمرة الأولى، كما أنصت إلى الهتافات التي أطلقتها الملايين حزنا على الزعيم، فمضى مع أقرانه في الحي يقلدون الكبار ويصنعون جنازة رمزية للزعيم البطل، وشرعوا يرددون الهتافات الملتاعة نفسها «ابكي ابكي يا عروبة ع اللي بناكي طوبة طوبة»، «عبد الناصر يا حبيب بكرة ندخل تل أبيب»، و«أنور أنور يا سادات/ليه بتقول ناصر مات»، «الوداع يا جمال يا حبيب الملايين».

كبر الطفل قليلا وطال جسده النحيف بعض السنتيمترات، واستدعيَ أشقاؤه الثلاثة للالتحاق بالخدمة العسكرية تباعًا، فانضمت إلى قاموسه مفردات جديدة قادمة من ميادين الحرب والصحراء والتقاليد العسكرية، وسأل أشقاءه عن معنى كلمات «مخلة/بيادة/حرب كيماوية/رادار/سلاح الإشارة/سلاح المشاة»، حتى جاء يوم السبت السادس من أكتوبر عام 1973 الذي وافق العاشر من رمضان، ويا له من يوم.

انطلق مدفع الإفطار في الخامسة والربع تقريبًا، لكن لم يستطع الأب والأم والشقيقة الكبرى تناول أيّ شيء ولا حتى كسرة خبز، فالحرب اندلعت قبل ثلاث ساعات فقط، والأبناء الثلاثة هناك يقاتلون على الجبهة، يستردون الكرامة ويحررون الوطن، والوالد الحكيم يطارد الأخبار في محطات الإذاعة، فينتقل من البرنامج العام إلى إذاعة لندن، ومن صوت العرب إلى مونت كارلو، دون أن يضع في جوفه سوى الشاي والدخان، أما الطفل الذي أكمل عامه الثاني عشر في مارس الماضي فقد استنشق روائح التوتر التي عبقت في المنزل، فلما انتصف الليل وتيقّن الوالد من الانتصار طفرت الدموع الساخنة من عينيه مختلطة برماد قلق مقيم، وصاح مخاطبا زوجته أمام الطفل وشقيقته «أبناؤنا أبطال... انتصروا على إسرائيل يا ست هانم»، لكن فرحته المشوبة بالتوتر لم تدم طويلا، إذ سقط في اليوم التالي مباشرة في صالة البيت، من جراء غزو مرض مفاجئ وصفه الطبيب المعالج هكذا «جلطة في القلب»!

ملحوظة عابرة:

هذا الأب هو والدي المرحوم عبدالفتاح عراق، أما الصبي فهو أنا، اما الشقيقة الكبرى فهي الراحلة الدكتورة ماجدة، الأشقاء الثلاثة فهم بالترتيب إبراهيم وفكري وفوزي. وقد غاب عن دنيانا إبراهيم وفوزي.

كاتب من مصر

ريشة لن تخذلني

نايفة كريللوس

أفتح مخبأ طفولتي لا لكي أشفى من ألم الحنين فقط بل لألوّن ماضيا رماديا بريشة مكثّفة الألوان. بعد ربع قرن أجاهد كي أرتب أحاسيسي المطوية على شاكلة قصة تصرخ بصمت وتلوّن بهدوء وتبكي بابتسامة، كما كان يفعل جدي تماماً. نعم جدي الذي علّمني استعمال سلاحه لمواجهة أيّ اضطراب يمكن أن يجتاحني على غفلة.

ما قد يكون؟ لما اختزلتُ أرض جدي العزيزة برشّة حجارة مدعوكة بنور وظل؟ ما قصة الكرسي الخشبي المتواجد في كل لوحة من لوحاتي؟

كانت جلساتي المطوّلة في منزل جدّي وجدتي لها طابعها المميّز، فكم جذبتني تلك الزركشات المنمّقة بهدوء! خاصةً وأنّ منزلنا كان له طرازٌ حديث مختلف تماماً عن منزل جدي. من الصعب عليّ أن أنسى مثلاً ذاك السيراميك المزركش بالأرابيسك. ها أنا ذا أرسم الكرسي، أزيد عليه بعض الإضافات التي هي توجّهنا، من خلال ارتباطها بعناصر أخرى، نحو إيحاءات سريالية رمزية.

جامعةً كل هذه الرموز (الكرسي الخشبي، التفاحة، السيراميك المزركش،...)لأوصل بينها خطوطاً غير مرئية، أوجد بينها علاقات فنية، تشكيلية، ضمن تأليف يعطي للكرسي مركز الثقل في اللوحة.

لقد كرّستُ للكرسي عدة أعمال فنية جاعلةً منه البطل الأساسي على مسرحي التشكيليّ، فهو الشاهد على تلك الأنامل ، بصمات أنامل لطالما اغرورقت في التراب علّها تفتّش عن كنز، على الأغلب هو رائحة الذكريات المغسولة بطفولة نضجت قبل أوانها.

لم يبق من الماضي إلا السكينة التي كان يستعين بها جدي كردّ على ثرثرة جدتي التي لا تنتهي، كل ذلك قابعٌ في عمق ذاكرتي، كيف له أن يجابه كل ذلك الضوضاء دون أن ينطق حتى بكلمة، كأنّي به يطبّق مقولة «إذا كان الكلام من فضة، فالسكوت من ذهب». من هنا جاءت لوحتي مبسّطة برموزها، ساكنة بهدأة ألوانها، عبّرت عن ذاتها بحكمة عارف أنّ للبوح فقط مكانا على الورق وعلى القماش المغرّى بلعبة الحصى والتراب!

أين جدي؟...

إنّي على يقين أنّه بقي حياً في وجداني، يكفي أني أكتب عنه ولأجله، أيامنا وأشياؤنا المشتركة لن تمحَى، علّمني درساً في بالغ الأهمية ولو مؤخراً، هو سلاح الصمت الأكثر فعالية في مواجهة ثرثرة العالم الخارجي، والاستمتاع بالغوص في لعبة التأمل.

اليوم أسلّم هميّ لريشة لن تخذلني، بل تكتبني مادةً وروحاً من خلال كل إمضاء أختم به لوحتي. جدّي لم يتنازل عن كرسيّه البسيطة، لأجل هذا الوفاء أنفض عن جسدي ولهذه اللحظة كل الأوجاع محوّلةً إياها إلى عود كبريت لا يحترق كغيره، بل يكتب بحرارة:

إليك... طالما أنا على قيد الكتابة!

إليك... تتمة رموز تحكي حكايا أخرى!

فادي يازجي

فنانة تشكيلية من لبنان

أستاذ الرسم

نزار ضاهر

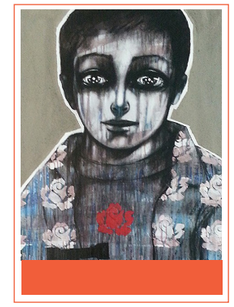

لم يكن الرسم بعيدا عن طفولتي، فقد كنت أعمد لشراء مجلات سوبرمان وغرندايزر وبعد قراءتها كنت أنقل رسوماتها على دفتر الرسم الخاص بي، وقد كنت في المدرسة أنتظر ساعة الرسم الأسبوعية على أحرّ من الجمر، ففضلا عن التشجيع الذي كنت أتلقاه من أستاذ الرسم، كنت أتفاخر على أقراني بموهبتي، وأسعد عندما تراقب البنات نتاجي بعيون ملؤها الإعجاب، وكثيرا ما كان زملائي في الصف يطلبون مني أن أرسمهم، فأخربش على الورقة وجوها تقريبية لهم، وأجد منهم الاستحسان. لكنّ الحادثة التي شكلت مفرقا بالنسبة إليّ، وجعلتني أتعلق بالرسم وأعشقه، وأتخذ القرار بأن يكون خياري المستقبلي، تمثلت بأنّ فرقة الكشافة التابعة للمدرسة قررت أن تجري لنا نشاطا تخييميا في الطبيعة، وكنت من أول المشاركين، وكان قائد الفرقة قد طلب من كلّ واحد منا -أنا ورفاقي- أن يجلب معه الأدوات التي تساعده على تنمية موهبته، من أدوات الموسيقى، إلى أدوات الرسم... إلى ما هنالك، فتشجعت يومها واشتريت للمرة الأولى كانفاس مشدود على إطار خشبي مع ألوان زيتية، وبالفعل في المساء التخييمي عندما انتهت نشاطاتنا الكشفية طلب قائد الفرقة من كل واحد منا أن يفعل ما يحلو له، فتناولت الكانفاس والألوان الزيتية وشرعت أرسم المخيم، والواقع أن عددا كبيرا من الأصدقاء بالإضافة إلى قائد الفرقة تركوا ما يشغلهم ووقفوا يتابعون عملي وسط جو من الحبور. وعندما انتهيت من الرسم نلت تصفيقا شديدا من الحضور. ليس هذا المهم، ولا هذه هي الزبدة من الموضوع، بل الحال أنه عندما عدنا من المخيم، انتظرت جفاف الألوان الزيتية على اللوحة، وأخذتها معي إلى المدرسة ليشاهدها أستاذ الرسم، فما كان منه إلا أن صفّق لي بحرارة وقال لي «برافو نزار» وحملها بيد وأمسك بيدي وأخذني إلى النظارة، حينها خفت وسألته «هل فعلت شيئا؟». ابتسم وقال لي «فعلت شيئا عظيما» دخلنا على الناظر ففاتحه أستاذ الرسم بالقول «أريد أن أعرفك على الأستاذ نزار». فقال الناظر «أهلا وسهلا ماذا فعل؟» قال له «فعل شيئا عظيما.. انظر إلى هذه اللوحة» فنظر الناظر إلى اللوحة وطفق يهز رأسه إعجابا... فقال له الناظر «تجب مكافأته». قال له أستاذ الرسم «سأجلس اليوم في الحصة كتلميذ كي يعطينا الأستاذ نزار هذه الحصة بنفسه متلبسا دور الأستاذ»... ضحك الناظر وقال له «موافق». وبالفعل جلس أستاذ الرسم في الصفّ مكاني وتركني أرسم على اللوح والتلاميذ ينقلون ما أرسم على دفاتر رسمهم. وفي اجتماع الأهالي قال أستاذ الرسم لعائلتي «نزار موهوب جدا ويجب عليه أن يستمر بهذا المجال فالنجاح بانتظاره». استمرت هذه الحادثة مطبوعة في ذهني منذ سني طفولتي الأولى.. ودارت الأيام وامتهنت الرسم، وكم أودّ أن أعرف أين يتواجد أستاذ الرسم كي أزوره وأشكره على هذا التشجيع، وتلك الأمانة في تأدية دوره بتنمية قدرات الناشئة وصقل موهبتهم.

فادي يازجي

فنان تشكيلي من لبنان

نزار ضاهر

الامتحان

نصيرة تختوخ

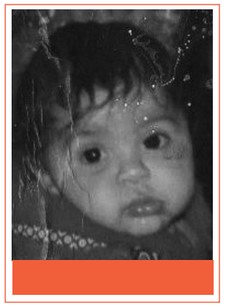

العام الأخير في المدرسة الابتدائية ولم أحدد بعد موقفي من أشجار الميموزا التي تقف بين السور وساحة المدرسة الشاسعة. لطالما انتبهت لها رغم الفوضى التي يثيرها الصبيان في فترة الاستراحة. إنهم يتحولون إلى كائنات متفجرة بالحركة والصراخ، يثيرون الغبار من حولهم كدواب منفلتة، وعندما يعودون إلى الفصول يخضعون بخنوع واستكانة لسلطة معلم صارم. كثير منهم غوغائيون في نظري فاقدون لأدنى احترامٍ ببلادتهم واحتمالهم للإذلال ساعة يخفقون.

تتدلّى من أغصان الميموزا كريات صفراء تجرأتُ على استكشافها باللّمس دون أن أحرز أيّ تقدم في موقفي منها. لقد استوت عندي مع أزهار الجيرانيوم الحمراء في التصنيف ويمكن أن أضعهما معًا في كفّة وعلامتي استفهام في الكفة الأخرى.

متجولة في منطقة الألزاس الفرنسية في إجازة خريفية وبعد أزيد من عقد سأهتدي وأدرك وأتمكن من استبدال العلامتين برؤية وتصنيف واضحين لطبيعة عاطفتي تجاهها ورهانها الجماليّ.

في عام حاسم يختم بامتحان ويَنقل من المدرسة إلى الإعدادية كان يحلو لأمي أن تردّد عبارات مثل «في الامتحان يكرم المرء أو يهان» كنوع من الممارسة التي تعودت عليها مع شعارات ومقولات وأبيات شعر حفظتها وصرنا عرضة لها ولاستفزازها من حين إلى آخر.لا شك في أن بعضها أقرب من البروباغندا إلى الحكمة، أجوف لكنه ينزل على الذاكرة كختم يصيبها ببقع لا تزول.

في زمن المعلمين الفرنسيين في المغرب، في ستينات القرن الماضي، كانت أمي من القلائل الذين نجحوا في امتحان السنة الابتدائية الخامسة. لقد روت لي أن أسماء الناجحين في مدينة كبيرة كالدار البيضاء كانت تظهر في الجرائد وأن السّيدة الفرنسية التي كانت تدرسها أخبرتها أنّ النوم جافاها لليلة بأسرها لأنّ أقسى ما كانت تخشاه أن لا ترى اسم فتاة مجدّة وذكية كأمّي بين أسماء الناجحين. بمنطق الرياضيات وقياسا على مدرّسة كهذه يمكن الاستنتاج أنّ الضمير والتفاني في العمل إنساني وليس بالضرورة وطنيا.

أمّي تشجعني، تثق بي وتتحداني بنوع من المقارنة والتشكيك المتفاوتين. فأخي المتفوق دائما سبقني بالتجربة الناجحة وليس من اللائق ولا المناسب أن أتعثر فأخذلها وأعرضني لمهزلة أكون ضحيتها لمدّة لا أستطيع التكهن بعمرها.

عندما أتمرن بإنجاز امتحانات سابقة أكتشف أنّني لست جيدة بما يكفي في الرياضيات ووضع الشدّات على الكلمات أثناء الشكل عدا هذا فإنّي لا أعترف بأيّ تقييم يقترب من السلبية وما قاله معلمي لأبي بخصوص دروس الدعم اعتبرته إهانة لا تغتفر وواجهته به. يريد مزيدا من الدّخل وأستطيع أن أفهم أن أجره قد يكون بائسا وأطفاله كثيرون لكن ليس على حساب التشكيك في مستواي. بسبب تهوره لم أعد أثق في تقييمه لإجاباتي وصار عندي موقف منه ومن فكاهته التي تُضحك الآخرين وتشعرني بالسخف خاصة أنها طالتني ذات يوم. لقد قال عن وصف طفلة في أحد النصوص إنها نحيفة مثلي ومهدّدة بالعاصفة فقد تطيّرها الريح.

أعجز الآن عن استعادة تفاصيل يوم الامتحان لكنّني أذكر أنه أخذ بجدية وأنّه كان بعيدا عن أجواء الغش واللامسؤولية. لقد اجتزته وأدّيت مهمتي دون خوف وارتباك كبيرين. يوم ظهرت النتائج عاد أبي مبتهجا قائلاً إنّني نجحت بأكبر مجموع نقاط في المدينة وأنني سأتسلم جائزة في إحدى القاعات.

استعذبت تفوقي ولم أكترث لأمر الجائزة كثيرا، الأهم أنني أثبت أنّ معلمي لم يكن عادلا في تقييمه لقدراتي وأبعدت عني شبح التقليل من شأني والتهكم عليّ في البيت. الأروع أنّ نجمتي لم تنطفئ حيث لمعت نجمة أخي.

المنطقة التي توجد فيها القاعة والتي اصطحبني إليها والدي سبق وأن زرناها معا. لقد كنّا هنا يوم حظ السيرك رحاله في المدينة وشاهدنا عروضه ويوم تجولنا في معرض الألعاب وتذوقت غزل البنات لأوّل مرّة، اسمه بالفرنسية «باربا بابا» يذوب في الفم كالثلج لكنه ورديٌّ، حلو ودافئ وأحببته.

برفقة أبي شعرت دائما بطمأنينة جيم هوكينز بالقرب من لونغ جون سيلفر، قبل أن يعود لتمرّد القراصنة، لكننا معا لم نستلم الجائزة. لم تكن موجودة أو كما قال أبي «سرقوها لكنني

سعاد مردم

سأستعيدها».

اللّصوص والقراصنة في هذا البلد مختلفون بأشكالهم وأزيائهم عن زملائهم في القصص والرسوم المتحركة إنهم لا يضعون أشرطة سوداء مثقوبة على عيونهم أو جلدات تكشف تاريخهم الحقيقي، لا يلبسون أقمصة مخططة ويحملون أكياسا مليئة بالقطع النقدية ويلتفتون يمنة ويسرة، إنهم حسب والدي كثيرون بوزرات بيضاء أو بذلات رسمية، بربطات عنق أو قبعات من المفروض أن توحي بخدمة الوطن والمواطن.

أعادني للبيت وانطلق هو، بعد يومين أو ثلاثة عاد بالجائزة، لم يقتنع بالخطأ أو أيّ عبث آخر سمعه في الإدارات التي زارها. طفلةٌ أخرى ما استلمت في ذلك اليوم جائزتي من أجل صورة عائلية مشرفة لوالدها المسؤول، من أجل بريستيج أحدهم كان على والدي أن يقطع أشواطًا تتطلب أعصابا معدنية. كلّ الجائزة كتب العام الدراسيّ القادم ومثيلاتها في حوزتي لأنّها تركة أخي الذي يسبقني بعام.

«هناك أطفال يعملون صيفًا من أجل شراء كتبهم المدرسية، سنتصدق بها أو بالكتب القديمة ونوفر على طفل ما بعض مصاريف الدخول المدرسي» ذلك ما قاله والدي وذلك ما كان.

عن أزهار الجيرانيوم كتب الشاعر الهولندي هانس فِلِك عام 1947 في قصيدة له «جيرانيوم، زهرة رائعة ليست جميلة/نبيذ البقال ودجاجة بين الطيور، حِلْيَة كلّ ما هو فقير ورخيص» وبطبع جمالها وجمال أشجار الميموزا أختم «الألفة والاستمرار في العطاء رهان جماليٌّ آخر. هناك كائنات تعمّر مع المكان وأهله وتصير أهلاً، كائنات يُشهد لها بالحضور الجميل على طريقتها المقنعة. «

كاتبة من المغرب مقيمة في روتردام

الراعي الصغير والعسكر التركي

هيثم حسين

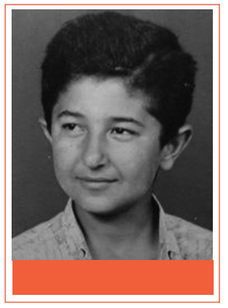

كانت طفولتنا عبارة عن سيل من التحذيرات التي لم نكن نعي منشأها وأسبابها ودوافعها، فكلّ شيء كان معرّضاً لينقلب علينا. نخرج من البيت على وقع التهديد، ونعود على نبرات الوعيد، ومن غير دراية ووعي وتخطيط كانت تستلب منّا الطفولة لنبقى في متاهة العمر، لم نبلغ الفتوّة بعد، ولكننا نعامل معاملة الكبار في كثير من الأشياء والأفعال.

«إيّاك أن تتحدّث في قضايا الكبار». «احذر أن ترفع صوتك بالكرديّة في المدرسة». «لا تحتك مع أبناء عناصر الشرطة والمخابرات ولا تتقاتل معهم». وغير ذلك من التحذيرات اليوميّة التي كانت في صلب التفاصيل الحياتية المعيشة، وكان ينبغي علينا تطبيق التعليمات من دون أن نفهم ما وراءها تماماً.

اكتشفت التناقض الذي يغرق فيه واقعي، وأغرق فيه من حيث لا أدري، والانقسام بين البيت والمدرسة، فحياتي التي كانت تمضي بالكرديّة في البيت والشارع وكلّ مكان، انقلبت حين دخولي إلى المدرسة، كان عليّ البدء بتعلم الحديث والكتابة باللغة العربيّة، كنّا نتقبّل الأمر ببساطة ونتعامل معه على اعتبار أنّه واقع لا مهرب منه، ولا طريق آخر سواه.

في الصيف كان ينبغي علينا مساعدة أهلنا في شؤون البيت، ولم يكن يخلو معظم البيوت من عدد من الماعز أو الغنم أو البقر، وكانت تشكّل الحيوانات مصدراً لحليب الأسرة ولبنها وجبنها ورديفاً لإعانة الأسر الكبيرة بمعظمها. وباعتباري الابن الأكبر في البيت، وكانت هناك ثلاث أخوات أكبر منّي، كان يتوجّب عليّ النهوض بكثير من الأعباء التي كنت أشعر بأنّها تضعني في غير ملعبي.

كنت أقود المعزات مع أقراني الآخرين من الأطفال الذين يتحوّلون إلى رعاة بعد المدرسة، ونمضي إلى السهول القريبة، كنّا نجمع دوابّنا ونطلقها في المراعي القريبة، ونقسم أنفسنا إلى فريقين لكرة القدم، وغالباً ما كنّا نفتقد كرة قدم حقيقيّة كبيرة، لذلك كنّا نستعيض عنها بكرات مطّاطيّة نحشوها ببعض القماش، أو بجوارب كبيرة مبخوشة نحشوها ببعض العشب، ونسرح ونمرح ونلعب حفاة، نخوض معاركنا الطفولية في السهول التي كانت مراعي لحيواناتنا وملاعب لمبارياتنا وصراعاتنا الضارية.

كان يصدف أن يتبع بعضنا حيواناته الضالّة الهاربة من القطيع إلى سهول قريبة من الحدود التركية التي كانت بالنسبة إلينا خطوط رعب وإنذار خطيرة يجب عدم التفكير بالاقتراب منها أبداً، لأنّ التنبيه المتكرّر والدائم كان بتحاشي الاتّجاه صوب الحدود للرّعي، وبرغم وفرة المرعى هناك إلّا أنّ الخطر المحيق كان أكبر من أيّ إغراء بالرعي.

كانت ظهيرة حارقة، تلك التي دوّى فيها أزيز بضع رصاصات منطلقة من بندقية عسكريّ تركيّ على الحدود باتّجاه صديقنا الطفل الراعي الذي تبع قطيعه الصغير إلى منطقة قريبة من الأسلاك الشائكة المكهربة. يبدو أن العسكريّ التركيّ لم يتحمّل معابثة القطيع للحدود، أو جرأة الطفل بالاقتراب منه، وربّما تسلّى بإطلاق النار عليه وجعله دريئة للتصويب وتجريب مهاراته في القنص والرماية والقتل.

لم يكتفِ الخفير التركيّ بقتله، بل أطلق رصاصة حارقة على بيدر القشّ الذي سقط عليه صديقنا الراعي الصغير، أحرقه مع البيدر الذي جعله كفناً له. واستوجب الأمر لملمة رفات الطفل المغتال وبقايا جثّته المتفحّمة من بين رماد بيدر القشّ المحترق.

بعد تلك الحادثة تغيّر أسلوبنا في الرعي، وتغيّرت طريقة أهلنا معنا. لم نعد رعاة صغاراً، يبدو أنّنا كنّا مشاريع أعداء كبار بالنسبة إلى العسكريّ الذي اغتال الطفل، ولم يكن ليتردّد في تصفية آخرين لو اقتربوا من نقطته التي يحرسها.

سادت أجواء الفجيعة البلدة كلّها، فالجثّة المتفحّمة تؤكّد أنّ الطفل ظلّ بعيداً عن الحدود أكثر من بضع مئات من الأمتار، وأنّه كان يهشّ بعض عنزاته المشاكسة ويحاول إرجاعها بعصاه التي كان يلوّح بها، ويبدو أنّ العسكريّ التركيّ عاقبه على تجرّؤ قطيعه على الاقتراب من الأسلاك وعدم الاكتراث لأيّ خطورة محتملة.

تلك الحادثة نبّهتنا إلى أنّ الأمر أخطر من تحذيرات الأهل الروتينيّة الدائمة وتهديداتهم المتكرّرة، وأنّ هناك أشياء كثيرة غامضة عصيّة على أفهامنا، وينبغي علينا التقيّد بتعليمات الكبار، والكفّ عن مناقشاتنا إزاءها وتبرّمنا منها. لكنّ ذاك الشعور لم

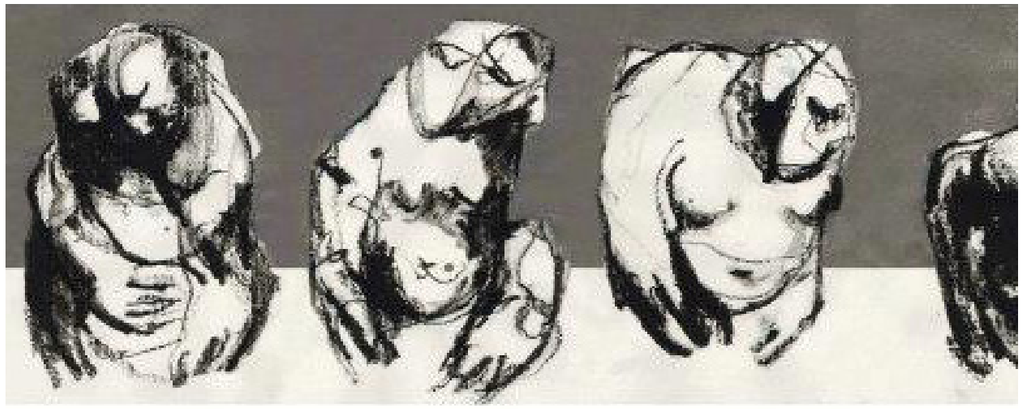

محمود آل داؤود

يكن ليدوم طويلاً، وكنّا ننشغل بأنفسنا وعبثنا المتجدّد بعدها.

أستعيد ما قبلها من أحداث ووقائع، وكيف غافلنا الموت كثيراً، أو سها عنّا العسكريّ التركيّ المرابض في محرسه القريب منّا، أو تجاهل مشاكساتنا الطفوليّة البريئة، وذلك حين كنّا نمضي، أنا وبعض أصدقائي الأطفال المشاكسين، لنسطو على بعض أعشاش الطيور بالقرب من الأسلاك الشائكة، وكنّا نخوض في رمل الوادي الصغير المعروف بوادي الخنزير، أو مائه أو طينه، ونحتمي بالأعشاب الطويلة لنزحف إلى أهدافنا البعيدة، ونستلقي هناك تحت الخطّ الحديديّ الذي كنّا نراه من بعيد بالعادة، ونشعر بنشوة تجتاح أجسادنا حين يمرّ القطار من فوق الجسر، ونحن نسمع صرير عجلاته والضجيج الذي يخلّفه في مروره والرعشة الممزوجة بالخوف وبهجة المغامرة وسحرها.

لم نكن نخبر أهلنا عن اقترابنا من الحدود، ولا عن رحلات صيدنا ومغامراتنا المجنونة، كنّا نتواطأ فيما بيننا على حفظ سرّنا الصغير البهيج، لكن بعد مشاهدتنا للنيران تفتك بجسد صديقنا الراعي الصغير تركنا الأمر، ولم نعد إليه، لكن شعور تجاوز الخطّ إلى الجهة الأخرى ظلّ يراودنا ويفتك بنا، كان الفضول القاتل ينهشنا، وكان الرعب كان أفظع، لذلك تجاهلنا تلك الرحلات السرّيّة، وتركنا بيوض العصافير هناك تفقس بسلام وأمان.. لكن لم نهنأ نحن بأيّ أمان أو سلام أو اطمئنان. ظللنا أسرى قلقنا وخوفنا من الحدود، ومن العسكريّ التركيّ المرابض هناك مصوّباً إلينا بندقيّته.

كانت صورة مصطفى كمال أتاتورك منقوشة على التلّة المواجهة لمدينتنا عامودا من الجانب التركيّ، وصورة حافظ الأسد في الجانب السوريّ، كنّا نسمّي التلّ بـ«تل كماليه»، ونسمع نَهراً من أهلنا بأنّه «تل عامودا»، وأحياناً أنّه «تل دارِة»، كان الصراع على التاريخ والجغرافيا حاضراً في واقعنا وكان يترتّب علينا، ونحن أطفال لا نفقه في المفاهيم والمصطلحات والصراعات السياسيّة واللغوية، التمييز بين مصطلحاتنا ومصطلحات الآخر الذي كان بالنسبة إلينا قوّة احتلال.

كنّا نقبع بين صورتين جاثمتين على صدورنا من جهتي الحدود، تكتم السلطات التابعة لهما أنفاسنا. تمنعنا من لغتنا، تحاول سلخنا عن أنفسنا وتغريبنا عن ذواتنا. لم أكن أعي حينها هذا التفظيع والتنكيل لكن الواقع كان يصدمنا كلّ مرّة بحقيقة أنّنا نعامل بمنطق العداء والاحتلال من قبل السلطة.

كنّا رهائن ذاك الخطّ وضحاياه، نسمع حكايات غريبة عن أهلنا؛ أعمامنا وأخوالنا وأقاربنا الباقين هناك في الجهة الأخرى، أولئك الذين يتكلّمون ويدرسون بالتركيّة، نتوق للقائهم واكتشاف عالمهم البعيد القريب، لكن رعب الاقتراب من الخطّ الحدوديّ، كان يقعدنا عن أيّ محاولة، كما أنّ مشهد احتراق صديقنا وتفحّم جثّته ظلّ خالداً في مخيّلاتنا وتحوّل إلى كابوس يمنعنا من النوم. كنت أصرخ أحياناً في نومي وأتخيّل نفسي ذاك الطفل المحترق في بيدر القشّ، وكيف أنّ أهلي سيصابون بكارثة قاتلة.

«أسرجت خيلي يوم رأت عيناي ضوء الشمس». مقولة تردّد للتعبير عن أعباء المسؤولية التي تحمّلها المرء في مرحلة باكرة من حياته، حتّى أنّ طفولته وقعت رهينة تلك المسؤولية التي وجد نفسه يرزح تحت أثقالها. وهي مقولة تنطبق على طفولتنا البريئة المفعمة بالتناقضات والصراعات التي لم نختبرها، لكن وجدنا أنفسنا خائضين مستنقعاتها غارقين في معمعتها التي أنتجت وقائع أكثر إيلاماً ودمويّة لاحقاً.

أيّ طفولة وحشيّة عشناها..! في أيّ عالم برّي كنّا نحيا..! لماذا لم يكن هناك مَن يكترث لحماية طفولتنا وبراءتنا..!

أسئلة كثيرة تظلّ عالقة في فاصل زمنيّ فقد بوصلته بين الأمس والغد.

كاتب من سوريا مقيم في ادنبرة/سكوتلندا

ماء وقصب وحريق

ذاكرة طفل

وارد بدر السالم

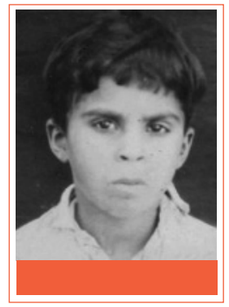

هذا الصغير «أنا» القديم بعمر خمسة أصياف جنوبية كما أعتقد. وهي صورة وحيدة بقيت على قيد الحياة لسبب لا أعرفه..!

هذا الصغيرُ الذي أصبحَ فيما بعد (أنا) الماثل أمامكم بلقطة محنّطة تستوجبها لحظة التصوير أمام الصندوق الأسود السحري الذي يلعب في أحشائه رجل ساحر يقول للشيء كنْ فيكون.. ولهذا (كنتُ) في تلك اللحظة الصعبة التي انقطعت فيها الأنفاس من أجل أن تبقى إلى خمسين سنة قادمة..!

يومها كانت الدنيا بيضاء مثل بطة النهر وزرقاء مثل الله وحلوة كقرص العسل.

تقول القصة المتشابهة:

ولدتني أمي في بيتٍ من القصب يدور النهر حوله من أربع جهات وتمسحه شمس النهار من الشروق إلى المغيب، وتلعب العصافيرُ والبلابلُ والسنونوات على أطرافه العالية.

ولدت في ليلةٍ حارة تزاحمَ فيها البقُّ والحرمس وتوقف فيها الهواء عن الحركة. وكان الصيف وقتها جافاً وخانقاً بالرغم من وجودنا في جزر الأهوار التي لا يكف الماء الجاري عنها..

تفتحت عينايَ على الطبيعة البدائية في تشكيلها العفوي الخلاب، وما تزال تلك اللوحة العملاقة مرسومة وموشومة في مخيلتي إلى الآن. حيث كانت الحياة عبارة عن معزوفة ناي من الصباح إلى المساء، ورقصة بلابل تحت سعف النخيل وأبوذية ساحرة تختلج في حنجرة عاشق أمَضّه العشق حتى صار عندليباً شجياً.

لغة النايات الآسرة كشفتْ لي طفولة تفيضُ بالدمع والعشق معاً.

قيل إنني صرختُ بيد القابلة القروية وهذا من طبيعة الأجنّة الخارجين إلى الحياة، فقد كانت صفعتها قويّة على ظهري، ويدها غليظة مشقّقة تختزن طياتُها الكثيرَ من دماء الأرحام الطرية..

لكن قيل إن بكائي استمر طويلاً على غير العادة، وقيل إن القابلة انتبهت إلى هذا الزعيق من جنين عمره دقائق فأخذتني إلى صدرها وألقمتني حُلمتَها لتحلّ بي طمأنينة غريبة؛ فنساء القرية أخواتٌ متضامناتٌ وحُلَمهُنّ لأفواهنا الصغيرة في كل الأوقات.

وهذه أول حلمة في حياتي قبل حُلمةِ أمي..!

كعادة الريفيين أطلق والدي بعض الإطلاقات النارية، فسَرها احتفاءً بنجاة أمي من عسر الولادة القروية، غير أني أدرك الآن بعد هذا العمر إن إطلاقاته عبّرت عن فرح عشائري بالمولود الذكر، ولا شأن لنجاة أمي بـ«حادث» ولادتي، فهي رحمٌ تتلقى وتنجب على مدار حياتها حتى وصلت إلى سن اليأس بطريقة التقاعد النسائية المعروفة..

يقول راوي الصورة:

وُلد هذا الصغير على حافاتِ الهور ذات ليلة حارة سكنت فيها موسيقى الليل واضطربت فيها النفوس النائمة على قيظ لافح وجو يخالطه الهوام وروائح النهر، إلا من صوت أمه الذي يبعث الحنين (دلّلول.. دلّلول..) فكانت القرية تنام على هذه الهدهدة المؤثرة تسبقها تنهدات العشاق الفقراء الحالمين بياض الحياة الطافحة على وجوه المعشوقات الصغيرات الحافيات بين الأشواك والسواقي والجرار الحبلى بالماء.

ولد الصغير بين القصب والأشواك ونباح الكلاب وثغاء البقر وصولات الثيران العارية ونسائم الريف الحيّة وأزهار البر القاسية وزهر الحقول الفسيحة، وكاد يولد تحت نخلة فارعة ظهيرة ذلك اليوم الساخن، غير أن أمّه تحاملتْ على نفسها إلى المساء وأقعتْ مثل الدجاجة تحت كوز الماء وشربت وارتوت وكانت تنظر إلى الليل بنجومه الوفيرة وصوتها المسموع: يا ربّ سهّل عليّ ولادتي..

الراوي يسرد شيئاً من السيرة ويقول:

فتح الصغير عينيه على منتجع عملاق اسمه الريف في أقصى الجنوب من العراق فكان حاضنته التي خطّ فيها حرفه الأول ونطق فيها لثغته الأولى بين نساء وصبايا تنفتح عيونهنّ على الرازقي والجوري والجمّار واخضرار النهر وبياض الصباحات المبكرة ولمعة القمر الوحيد واصطفاف الشمس على جدائلهن

فادي يازجي

الشقر وانفتاح الليل على غناء العشاق الهائمين في وحشة القصب..

يتذكر صاحب الصورة الصغير:

إنّ حريقاً شبّ في ليلة صيف ساخن في صريفتهم الوحيدة (وهي بيت القصب) فانتشلته أمّه وأخاه من بين الحريق العارم. كان الأخ أصغر من الصورة وكان يتشبث بصدر أمي، وكانت الصورة هي أنا المسحوب في أقلّ من ذلك العمر بسنةٍ أو سنتين، مجروراً من يدي بين الدخان الخانق وألْسنة النيران الفتّاكة من دون أن أعي حجم المشكلة في نار أتت على الأخضر واليابس وأحالت الصريفة إلى ركام خلال وقتٍ قصير لكن من دون أن نُصاب بأذىً جميعاً سوى خسارة كل شيء كان في بيت القصب الذي تحول إلى جمرٍ ورماد حتى هَفَتت نيرانه في منتصف الليل.

نمنا في العراء كلّ الليل وكان النعاس يطاردني. وكان نهر القرية الذي أطفأ الحريق يشاطرنا العراء الصيفي الوحيد..

ذاكرتي الطيور والماء والقصب.. وحريق قديم ما زلتُ أتذكره حتى اليوم تسبب فيما بعد بأن تشبّ في داخلي نيران الكتابة التي لا يمكن إطفاؤها بنهرٍ أو بحرٍ.

كاتب من العراق

إشكالية العلاقة بين العرب وأوروبا

خالد زيادة: لم يعد لأوروبا ما تقدمه للعرب

ممدوح فراج النابي

تمتد جذور العلاقة بين العرب والغرب إلى حقبٍ بعيدةٍ، ومع قِدم هذه العلاقة إلا أنّ تقييمها كان محلّ جدلٍ وخلاف بين كثير من المفكرين، فقد رأى بعضهم أنها تكشف في أحد أوجهها علاقة التابع بالسيّد، في حين رأى آخرون أنها تُمثّل للدور الحيوي في النهضة التي حدثت في الشعوب العربيّة منذ أن بدأت البعثات تطرق أبواب أوروبا في بدايات القرن التاسع عشر، وإن كان فريق ثالث يَرى فيها منفعة تبادليّة للطرفين حتى وإن كان حجم الاستفادة من جانب العرب لم يكن بقدر الاستفادة التي حققها الغرب بكل تاريخه الاستعماري.

في كتابه الجديد المعنون بـ«لم يعد لأوروبا ما تقدمه للعرب» الصادر عن مكتبة الأسرة، يقف المؤرخ خالد زيادة سفير لبنان في مصر، عند الإشكالية من جديد، متوخيًا منهج المقارنة بين الماضي والحاضر؛ ليخلص إلى نتيجة تقريرية كما بلورها في عنوان الكتاب.

جذور العلاقة

الكتاب جاء في ثمانية فصول مسبوقة بمدخل وتصدير، وناقش فيها موضوعات تؤسِّس لطبيعة هذه العلاقة التي تبدأ بـ«الجوار»، و«التحديث»، و«النهضة»، و«الإصلاحية الإسلامية»، و«الثورة»، و«الأيديولوجيا»، و«الدولة»، و«الأصولية»، علاوة على خاتمة تتناول المراحل التاريخيّة للعلاقة وتفاعلها بدءًا من الجغرافيا، وانتهاء بربيعنا العربي، وملحق يشتمل على فهرس للأعلام. يتناول المؤلف في مدخله تاريخ العلاقة الإشكالية بين العرب وأوروبا، وهي إحدى المسائل المركزية التي يثيرها الوعي العربي والمسلم، وهي حصيلة الجوار الفريد، مركزاً على الإشكالية التي نمت وتجذّرت بين العرب من جهة وأوروبا والغرب من جهة أخرى، حتى بات أغلب الإنتاج الثقافي العربي تعبيرا عن هذه الإشكالية التي تحكم أوروبا والغرب. ولا ينكر المؤلف، وهو يتجوّل في نزهة بين فصول الكتاب، طبيعة هذه العلاقات التي اتّسمت في أغلبها بالعداء الذي عبّرت عنه أغلب خطابات التيارات السياسية على تباينها، وأن التطورات التي شهدها العالم العربي كانت بتأثير هذه العلاقة.

قد يكون الدافع الأساسي لهذه النظرة العقلانية والفَئِدَة لتاريخ العلاقة الإشكالية مرجعه، لهذه الهبّات والثورات التي حدثت في العالم العربي منذ عام 2011، والتي يعترف الكاتب بأنها لن تشهد استقرارًا قبل أن يتغيّر العالم العربي تغييرًا جذريًا يضعه على طريق الحداثة والاندماج في العالم المعاصر، فلا يمكن على حدّ قوله أن نفهم مسارات هذا التغيّر الذي يجرى اليوم إلا بالعودة إلى الماضي والتاريخ، فالثورات تَدمج في الشعارات التي رفعتها بين ما هو متصل بالواقع الراهن، وما هو مُتّصل بشعارات ترجع إلى زمن النهضة، دون أن يغفل مرجع هذه الانتفاضات الداخلية والتدخلات الخارجية. فالكتاب يأتي في إطار بحثي ومعرفي يحاول إعادة النظر في تاريخ العرب الحديث في ضوء العلاقة مع أوروبا والحداثة، بإنجازاته وإخفاقاته

أسامة جحجاح

وهو قراءة للتيارات الكبرى الفكرية والعقائدية ومحاولة فهم الحاضر على ضوء الماضي.

الإعجاب والاستيعاب

يشير الكاتب في فصل الجوار إلى أهمية جهود الريادة في استجلاء بدايات العلاقة كما ظهرت في كتاب "علم الدين" الأدبي لعلي مبارك، وكذلك كتابات شكيب أرسلان، وأيضًا كتابات أبي الحسن الندوي وأبي الأعلى المودودي، وهي العلاقة التي تمتد مسافة أربعة عشر قرنًا من الصراعات والتبادل والحروب، إلى تبادل البضائع والأفكار والمؤثّرات، وقد مرّت بمراحل من المدّ والجزر، وفي بعضها النسيان على نحو ما شهدته كتابات الجبرتي.

وينتهي المؤلف إلى أن شعوب العالم الإسلامي ما زالت أسيرة ثنائية التأخّر والتقدُّم، وصراع الشرق والغرب، وافتراق الإسلام عن المسيحية الغربية. وقد أخذت العلاقة بين الجانبين أبعادًا أخرى في ظلّ الفتوحات الإسلامية وحضور الوجود الإسلامي، ما بين إعجاب بأفكار الغرب وتجربته وعلومه وتقنياته في أواسط القرن التاسع عشر، وإن كان رافضًا له. وعلى المقابل كان رد الفعل الأوروبي رافضًا للوجود الإسلامي، مع استيعاب لآداب العرب وعلمهم. لكن العلاقات وصلت إلى مسار آخر بعد التطورات الأخيرة، فمن قبل كانت التهديدات تأتي من الحدود أما اليوم فالتهديدات باتت تأتي من حضور المسلمين في المدن والقرى.

وفي فصل التحديث يشير المؤلّف إلى أن النهضة الأوروبية بدأت في وقت مبكر من القرن الرابع عشر دون إغفال لأثر العرب الحاسم فيها. إلا أن أوروبا طوّرت خلال قرنين من الزمن تقنيات عديدة، ومع تجدّد الخوف بسبب التوسعات العثمانية إلا أن ذلك لم يمنع أوروبا من تحقيق إنجازات في كل الميادين بعد أن استنفدت علوم العرب وآدابهم وفلسفاتهم، دون أن ينعكس هذا على العثمانيين رغم حجم التبادل التجاري الذي سمح بوصول التقنيات والاختراعات إليها.

في الفصل الثالث الذي ناقش فيه النهضة العربية مقارنة بالنهضة الأوروبية، يقف أولا عند مفهوم النهضة باعتبارها جملة التطورات التي عرفتها بعض الأقاليم العربية وخصوصًا مصر ولبنان وتونس منذ مطلع القرن التاسع عشر، ومثلما تم الرجوع إلى التراث اليوناني السابق للمسيحية في النهضة الأوروبية، فإن النهضة العربية أيضًا رجعت إلى التراث اللغوي والأدبي العربيين. اللافت أنه ليس ثمة إجماع على حقبة النهضة، فهناك مَن يُدمج بين محاولات الرواد من أمثال بطرس البستاني ورفاعة الطهطاوي مع أعمال الإصلاحيين مثل محمد عبده ورشيد رضا إلى الليبراليين والعلمانيين كفرح أنطوان وشبيلي شميل وصولاً إلى طه حسين وسلامة موسى.

الشيء اللافت أن التجارب التحديثية (مصر وتونس ولبنان والعراق وسوريا)

بالرغم من تداخلها وبالرغم من التأثير المباشر لعصر التنظيمات العثماني على هذه التجارب، إلا أن التحديث سيباعد بين التجارب نظرًا لأسسها اللغوية ومحمولاتها الوطنية. لكن الشيء الجدير بالذكر أن جميع هذه التجارب كانت تصدر عن وسائل وأفكار وأهداف واحدة تقريبًا، كما أنها حصيلة المؤثرات والضغوط الأوروبية التي ولّدت القناعات بضرورة الأخذ بما أحرزته أوروبا من تقدم في ميادين المعرفة والعلوم والتقنيات، فأدوات النهضة واحدة في كل مكان متمثلة في المدرسة ثم المطبعة التي بدّلت مفهوم العلم والمعرفة. وكذلك الجمعية التي تضم نخبة ذات أهداف أدبية وعلمية وذات وظيفة اجتماعية، وأخيرا كانت اللغة العربية الفصحى، وكان تأسيس دار العلوم في القاهرة لتخريج المعلمين مكملاً لهذا الدور.

النهضة والقطيعة

تكمن أهمية النهضة كما قال المؤلف في الأفكار التي أرستها، والتي عالجها مفكروها بأساليب وعبارات مختلفة، ومن هذه فكرة التمدّن والتربية والوطن والتاريخية والحرية، والدستور. وقد تغيّر سؤال النهضة الذي اختصر كيف أخذ العرب عن أوروبا تقدّمها، في ثمانينات القرن التاسع عشر مع الإصلاحية الإسلامية: لماذا تأخرنا وتقدّم غيرنا؟ وإن انتهت حقبة النهضة بقطيعتين، الأولى داخلية والأخرى خارجية تتعلق بالتدخل الأجنبي بسبب الدين الداخلي. وقد جاءت الإصلاحية الإسلامية ليس كرد فعل على التأثير الأوروبي، الذي كان في سبعينات القرن التاسع عشر، وإنما كانت نتيجة لإدراك جديد للإسلام على ضوء الجغرافيا والتاريخ. وكذلك على ضوء تطور العلوم التطبيقية والفيزيائية والأفكار التي تهبّ من أوروبا.

يشير الكاتب إلى أن فكرة الجامعة الإسلامية أدّت إلى خفض نفوذ المؤسسة الدينية من جهة. كما كان لوجود جمال الدين الأفغاني أثره في ولادة التيار الإصلاحي الإسلامي، وكانت مصر أكثر أقاليم العالم الإسلامي التي راجت فيها أفكار الأفغاني، والذي كان سباقًا فيها إلى التنبيه بخطر أوروبا على الإسلام، وهو ما ترجمه في مقالاته الملتهبة في "العروة الوثقى" التي تحذر المسلمين من خطر أوروبا، من حيث اعتباره أن إنكلترا هي عدوة المسلمين. أما محمد عبده فقد ارتأى أن الإسلام دين يتفوق على الديانات الأخرى، في حين كان لرشيد

هذا النوع من الكتابة رغم شعبيتها الكبيرة وتصدّرها لقائمة المبيعات في معظم أنحاء العالم، إلا أنها لا تحظى بالقدر الكافي من الدراسات النقدية العربية

رضا دورٌ مهمٌّ في بلورة تيار الإصلاح، ويراه اتجاهًا من ضمن اتجاهات أخرى. وينتهي المؤلف إلى أن الإصلاحية العربية إنجاز عربي بل كانت أساس نشوء العروبة المشرقية التي شارك فيها الإصلاحيون الذين أعادوا التفكير في التاريخ العربي.

إخفاقات التيارات الأيديولوجية

يلفت المؤلف إلى أن إلغاء الخلافة الإسلامية كان له الأثر الكبير في طبقة من طبقات الوعي الإسلامي بالشعور بالهزيمة، وقد فاقم هذا الشعور بالهزيمة إخفاق إقامة الدولة العربية الذي أُرجع إلى مؤامرة التقسيم الاستعماري، وفي ظل هذه الأجواء ولدت جماعة الإخوان المسلمين عام 1928 علي يد حسن البنا، في ما يمكن اعتباره نكوصا ورجعة عن أفكار التنوير، وبناء هذه الجماعة لم ينفصل عن تأثير مؤسسها، الذي كان له الجهد في نشر أفكار الجماعة في الأقاليم. وتمثلت المرحلة الثانية في قيادة سيد قطب، والتي أظهرت عداءً مسلحا ومتطرفا للسلطة، وفي المرحلة الثالثة في سبعينات القرن العشرين لم تعد جماعة الإخوان هي الفرقة الإسلامية الوحيدة التي تستقطب نشاط الإسلاميين، فقد ظهرت فرق كثيرة. فلم تقتصر الظاهرة الإسلامية على الإسلام السياسي العنيف وحده، إذ شهد العقد الأخير من القرن العشرين عودة نشاطات الجماعات الصوفية، والجماعات الخيرية وانتشار المظاهر الإسلامية كالحجاب للمرأة واللحى للرجال، وقد كانت الأجواء مهيأة ليشق الإسلام الأصولي طريقه داعيا إلى إقامة المجتمع الإسلامي في واحدة من اكثر التحولات الرجعية في التاريخ العربي الحديث.

ورغم رفع هذه الحركات الإسلامية لشعار "الإسلام هو الحل" إلا أنها عجزت بطبيعة الحال، عن تقديم بديل اقتصادي للنظام الرأسمالي. ومع أن ثورات الربيع العربي أتاحت للأحزاب الدينية المشاركة في السلطة إلا أنها مُنيت بإخفاقات كثيرة. والمؤلف يشير إلى إخفاقات كافة التيارات الأيديولوجية من اشتراكية وقومية والتي ولدت في النصف الأول من القرن العشرين، وراجت في النصف الثاني منه.

كاتب من مصر مقيم في تركيا

تانيا كيلي

المختصر

كمال بستاني

كيف فرضت أوروبا سرديتها على العالم

في كتاب بعنوان "سرقة التاريخ" يبيّن جاك غودي عالم الأنثروبولوجيا البريطاني أنّ تفوق الغرب ليس وليد ذهنيةٍ أوروبية، كما زعم برنارد لويس، ولا خطابٍ كولونيالي قد تمحوه العولمة كماض تولّى، بل هو نتيجة مجموعة من "تكنولوجيات الفكر" أخذتها أوروبا من الحضارات الأخرى، واستعملتها بطريقة منحرفة، فالنهضة الأوروبية في رأيه لا تمثل إذن ظهور عقلية جديدة ولا ابتكار خطاب جديد، بل كانت خلاصة ما أخذته أوروبا من الأمم الأخرى في وقت كانت توشك فيه على الانهيار. في إطار بحثه عن وضع أوروبا في موقعها الصحيح من التاريخ، لا يركز غودي على الفوارق بين الحضارات، الاقتصادية منها على وجه الخصوص، بل يهتم باستيلاء الغرب على التاريخ، معتبرا أن هيمنة أوروبا على العالم ليست معزولة عن سيطرتها على السردية الكبرى لتاريخ العالم.

إنسان ما بعد الحداثة

جديد الفرنسية شنتال ديلصول، التي تتميز مسيرتها بالجمع بين الفلسفة والسياسة، كتاب بعنوان "كره العالم"، تبيّن فيه أن توتاليتاريات القرن العشرين لم تهجرنا تماما، فنحن لفظنا وجهها المرعب، ولكنّنا ما زلنا نواصل الاحتذاء بها في تشويه العالم، في مرحلة تشهد صراعا بين من يريد تغيير هذا العالم، ومن يجهد في حمايته والدفاع عنه. وفي اعتقاد الكاتبة أن جانبا من الغرب ما بعد الحداثة يقود، تحت شعار فكر ثوري بالمعنى الطوباوي الراديكالي، حربا ضد واقع العالم باسم التحرر الشامل. هذا المشروع، تقول الكاتبة، يمكن تلخيصه في كونه إعادة خلق لتحرير الشعوب وفتح آفاقها على غرار ما قامت به الأنوار الفرنسية لعام 1793 والشيوعية مطلع القرن العشرين، لا ينتهج العنف بل السخرية، همجي ولكن مدفوع برغبة فردية وليس بإرادة الهيئات العامة.

التاريخ والفلسفة

" إلى أين يسير التاريخ؟" هو عبارة عن حوار شامل أجراه الصحافي وأستاذ الفلسفة جوليو بروتي مع الفيلسوف ريمي براغ الأستاذ المحاضر بالسوربون، وأحد مؤسسي مجلة "كومونيو" حول موقف بعض المفكرين من التاريخ الإنساني، أولئك الذين يرون أنهم لا يجدون للتاريخ معنى ولا أسبابا تدعو إلى الأمل، إلى جانب مسائل أخرى تهمّ مسيرته الفكرية، ومجال تخصصه، أي الأديان. وبراغ إذ ينتقد علاقة ما بعد الحداثيين بجذورهم، يرى أن الاعتبارات الفلسفية وثيقة الصلة بأكثر المسائل الملموسة حدّة، والواقع الراهن المليء بالفواجع والكوارث، مثلما هي متصلة بتعايش الأديان الكبرى وإمكانية الحوار مع الإسلام، ودور أوروبا الريادي، ومستقبل البيوتكنولوجيا، ويحذّر من الإغواء، الذي تنطوي عليه الثقافة الغربية، بالانتهاء من الإنسان، باسم مثاليةِ كمالٍ مميتة.

أسس الديمقراطية

"الأسس الفلسفية للديمقراطية المعاصرة" كتاب ممتع للفيلسوف الرحالة ماكزانس هيكار (حيث عاش في طوكيو ولندن وبوينس آيرس في نطاق اشتغاله بالشؤون المالية)، يستعرض فيه تاريخ الفكر السياسي الحديث والمعاصر، للوقوف على أسس الديمقراطية التي صارت في رأيه قيمة مقدسة، أشبه بالديانة، في عصر انهار فيه النظام القديم، وناب عن موت الربّ نهائيا منذ داروين دولة قانون مبنية على "حقيقة علمية" هي التطور، حيث يبدو تناسق المنظومة بجلاء عند المعطى الميتافيزيقي الكامن، معطى كون متنام رسمه نيكولا دو كوندورسيه وتايلار دو شاردان، وضمّده كانط وهيغل وتشارلز داروين. وفي رأي الكاتب أن الديمقراطية هي اللحظة السياسية في هذا التطور. فالصدفة والحرية والقانون والأخلاق، وكذا المصلحة والملكية العامة، صارت تشكل ثنائيات لا تنفصم، كما أن الرابط الاجتماعي بات في جوهره اقتصاديا.

تدمير الخطاب وصنع الرضا

يقدّم الصحافيون أنفسهم عادة بكونهم من دعاة "فك شيفرة الخطاب"، ولكن هل يصح أن يفكّك غيرهم خطابهم؟ تلك هي الفكرة التي تعالجها الباحثة إنغريد ريوكرو في كتابها "لغة الميديا". من خلال تحليلها أمثلة راهنة، تبين الكاتبة أن الصحافيين ما انفكوا يعيدون إنتاج جمل وتعابير هي في الواقع أحكام معيارية عن الأحداث. فهم يزعمون التحلّي بالموضوعية والحياد في معالجة الآراء السياسية، ولكنّهم في الواقع يستعملون خطابا ينتمي إلى تيارات فكرية محددة يمكن تبيّنها، كما يساهمون في نشر عدة أحكام مسبقة، تحولت إلى أسس لقناعات المجتمع الفرنسي. وإذا كانت لغة الصحافي مثل زجاج محرّف يقدم عبرها الحاضر للمتلقي، فإنها كذلك نافذة مضللة مفتوحة على الماضي والمستقبل. وفي رأي الباحثة أن تحليل خطاب الميديا يساعدنا في الكشف عن الوعي الباطن للمجتمع من جهة ما يحويه من لاعقلانية.

تغييب الفكر النقدي العربي

في كتابه "الفكر والسياسة في العالم العربي" يستعرض المؤرخ وعالم الاقتصاد اللبناني جورج قرم مختلف أوجه الفكر السياسي العربي في القرن العشرين، وثراء ثقافة مجهولة لدى الغرب. ويبين أن أصحاب ذلك الفكر لم يكونوا أسرى الطوق السياسي الديني الذي وضعتهم فيه كتابات بعض المستشرقين عن العرب والإسلام، بل هم مفكرون عبّروا عن نقد قويّ على شتى المستويات الدينية والسياسية والفلسفية والأنثروبولوجية والسياسية. ويبين في الوقت نفسه كيف استفادوا من الأفكار الأوروبية كالتطور والعقلانية والعلمانية والقومية. والكاتب، إذ يدرج آثار أولئك المفكرين في إطار التحولات الجيوسياسية والسوسيواقتصادية التي شهدها الوطن العربي منذ قرنين، يفسّر كيف ساهمت قوى الهيمنة الأجنبية، من عسكريين وأكاديميين وإعلاميين، في تهميش الفكر النقدي العربي. وهو ما سهّل إقامة وسيطرة الفكر الإسلامي، الذي استغلته بعض الأنظمة العربية وحماتهم الغربيون على حد سواء، لبسط الفكر الإخواني والسلفي.

انهزام النساء

تتساءل أوجيني باستييه، الصحافية بجريدة لوفيغارو الفرنسية، في كتاب "وداعا آنستي" هل اكتملت الثورة النسوية التي قادتها سيمون دو بوفوار منذ سبعين عاما ضد الهيمنة الذكورية؟ لقد حصلت المرأة على الحقوق السياسية والاجتماعية، وحقها في التحكم في الإنجاب، مثلما فرضت مبدأ التكافؤ مع الرجل، ولكن منظرات أخريات لا يزلن يناضلن من أجل مستقبل زاهر ينكرن أنه تحقق بعد، حتى غدت المعركة لأجل النساء ثأرية وشمولية، تنادي بالشيء ونقيضه: إلغاء البغاء والسماح بالحمل لصالح الآخر، إلغاء فوراق الجنس في المدارس وإقرار المساواة في نطاق الوظائف صلب الوزارات، الدعوة إلى تحرر الجسد وقبول الحجاب والنقاب.. وتناقضات كثيرة أخرى تعتمدها الكاتبة لتبين بؤس الحركة النسوية المعاصرة، التي تتجاهل الأخطار المحدقة، ممثلة في الإسلام السلفي، والتي لا تهدد الاختلاط فقط بل مبدأ المساواة نفسه.

نقض حقوق الإنسان لموجهة مسلمي أوروبا

"حقوق الإنسان ضد الشعب" عنوان آخر من العناوين التي طفحت بها الساحة الفرنسية بعد عمليات الإرهاب التي ضربتها، ومؤلفه، جان لوي هارويل الأستاذ المحاضر بجامعة باريس الثانية، لا يخالف غيره من المحللين الفرنسيين المعادين للإسلام، فهو يدين حقوق الإنسان ويرى فيها سلاحا موجها ضد الشعب، من جهة خضوع الحكومات الأوروبية لتوسع

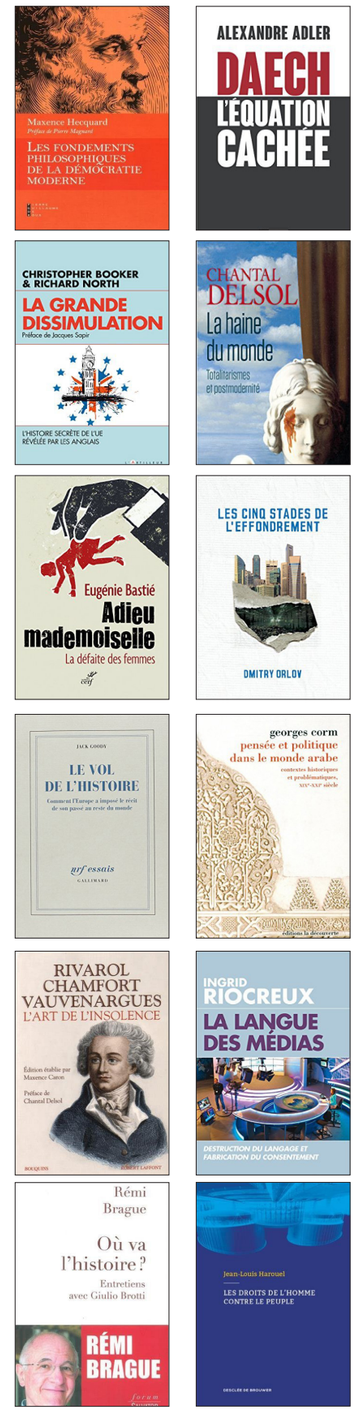

المختصر

الإسلام ونشره قيما ومبادئ تهدد التوازن المجتمعي والحضارة الغربية وشعوبها، بدعوى نبذ الميز العنصري، والعمل بمبدأ العلمانية الذي يفرض على الدولة عدم التدخل في الشأن الديني. والكتاب أراده صاحبه تحليلا للمساوئ التي ولدتها في أوروبا بعامة، وفرنسا بخاصة، "ديانة حقوق الإنسان" كما يقول، تلك التي تقود الحضارة الأوروبية في رأيه إلى موت محتوم أمام إسلام غاز لا يعترف للإنسان بأبسط حق. وحجته "أننا لم نعد في هيئة حقوق شعب أمام دولته، بل حق شعب في أن تدافع عنه دولته".

الثلاثي المنسي

لأول مرة يقع تجميع الأعمال الكاملة لأنطوان دو ريفارول وجانب كبير من كتابات نيكولا دو شانفور ولوك دو كلابييه الشهير بماركيز فوفنارغ في مجلد بعنوان "فنّ الوقاحة"، تحت إشراف الفيلسوف والشاعر والروائي والموسيقي ماكزانس كارون، وتقديم الفيلسوفة شنتال ديلصول. والمعروف أن هذا الثلاثي يمثل إلى حد بعيد عبقرية الأدب الفرنسي من حيث البلاغة وحرية الفكر والجرأة في تناول شتّى المواضيع والسخرية من الأوضاع السائدة في ذلك العصر، فقد عرف عنهم ميلهم إلى نقد المجتمع بكلّ مكوّناته، السياسية والدينية والثقافية، نقدا لاذعا، بأسلوب مميز أثار إعجاب فولتير نفسه، بل إن من النقاد من يؤكد أن مآثر الثلاثة لا تقل قيمة عن رموز عصر الأنوار. والكتاب ردّ اعتبار لمفكرين متميزين، درج المثقفون على استحضار أسمائهم ومقولاتهم وأفكارهم دون أن يكون لهم اطلاع واسع على نصوصهم.

هل بني الاتحاد الأوروبي برغبة أميركية؟

"التكتم الأكبر" عنوان كتاب ضخم لكريستوفر بوكر الصحافي الإنكليزي، وريشتارد نورث، مدير بحوث سابق في البرلمان الأوروبي، كانا نشراه في لندن عام 2003. وهو عبارة عن قراءة بريطانية للبناء الأوروبي، زادتها البريكسيت حضورا، تبين أن بناء أوروبا، على عكس ما يروّجه الساسة، لم يكن حديثا، بل بدأ منذ مدة طويلة كمشروع يخضع للرقابة الأميركية ولو بشكل غير مباشر، ويروي المؤلفان دور وكالة الاستخبارات الأميركية في مسار إنشاء المؤسسات الأوروبية، وعلاقة المؤسسين الأوائل بها مثل جان مونيه. وبالتالي، فلا يمكن القول، حسب المؤلفين، إن الاتحاد الأوروبي جعل لحماية استقلال الأوروبيين، فبدعوى تأمين السلم، نهض الاتحاد على التخلي على سيادة الشعوب لصالح كيان فوق القوميات، بحسب خطة وضعها منذ عشرينات القرن الماضي الفرنسي مونيه والأميركي جيمس سالتر، وهي حقائق مخفية، يتكتم عليها الجميع. أي أن الاتحاد في نظر الكاتبين بُني على سلسلة من المغالطات.

التنبؤ بانهيار المجتمعات الإنسانية

صدرت مؤخرا الترجمة الفرنسية للكتاب الذي أثار جدلا كثيرا منذ صدوره بالإنكليزية في أميركا، ونعني به «مراحل الانهيار الخمس» للأميركي من أصل روسي دميتري أورلوف، الذي باع شقته واشترى مركبا يعمل بالطاقة الشمسية، يعتبره كبسولة النجاة، فهو ينذر في نصوصه أن أميركا مقبلة على نفس الانهيار الذي عاشه الاتحاد السوفييتي، وفي كتابه هذا، يعدد مراحل ذلك الانهيار: مالي حيث فقد الإيمان بأن البزينيس عادي. اقتصادي حيث زال الاعتقاد بأن السوق قادر على كل شيء. سياسي من جهة فقدان الثقة في الحكومات. اجتماعي إذ زال الاعتقاد أيضا بأن المجتمع يمكن أن يعتني بالفرد عند ضيقه. وأخيرا انهيار ثقافي من جهة فقدان الثقة بطيبة الإنسانية. ويرى أن هذا المراحل تتعاقب بانتظام. وبخلاف الحيوانات، ينزع البشر إلى خلق تراتبية اجتماعية معقدة، يجعل انهيارها مبرمجا داخل طبيعتهم نفسها. والغرض كما قال هو أن يغير البشر سلوكهم وإلا فهم يسيرون بأنفسهم إلى الكارثة.

هل نشهد إعادة تشكل الشرق الأوسط؟

مرة أخرى يعود المحلل السياسي ألكسندر أدلير، المدير الأسبق لكرسي الجيوسياسية بجامعة دوفين بباريس، إلى تنظيم الدولة الإسلامية. فبعد "هل تنتصر الأيديولوجيا الإسلامية؟" و"خلافة الدم"، صدر له مؤخرا كتاب بعنوان "داعش: المعادلة المخفية" يطرح فيه أسئلة عن دوافع زعزعة الشرق الأوسط وتمزيقه. هل هو الإسلام في أبشع تطرفه؟ أم هي كراهية الغرب؟ أم فوضى عارمة في منطقة لم تعدم الهزات منذ زمن بعيد؟ وهل هي لحظة إعادة تشكيل المنطقة؟ وفي رأيه أن هذا الخطر الأكبر، ممثلا في الدولة الإسلامية، وعابرا للقارات ولا حدود لمطامحه، قد يكون دليلا على أن التاريخ ماض في أعماله: تردد أميركا، قوة الهلال الشيعي، إيران الجديدة، ومصر الجديدة، لعبة الأجوار الكبار تركيا والسعودية والأردن؛ الحرب بلا رجال المزعومة.

كاتب من لبنان مقيم في ليدز/بريطانيا

رسالة باريس

فرنسا نحو حرب أهلية أم حرب تطهير

أبو بكر العيادي

كاظم خليل

لم يسبق أن جرى الحديث عن حرب أهلية قد تجتاح فرنسا، غير أن الأعمال الإرهابية الأخيرة التي ضربتها في وقت باتت تعاني فيه من أزمات اجتماعية واقتصادية خانقة، ومن استفحال العنصرية بدعوى الدفاع عن هوية شعبها وعن جذوره اليهودية المسيحية، جعلت هذه الحرب تتردد كثيرا على ألسنة المثقفين والسياسيين، خصوصا بعد أن وردت على لسان باتريك كالفار مدير وكالة الاستخبارات (الإدارة العامة للأمن الداخلي). فقد حذّر أمام لجنة الأبحاث البرلمانية يوم 10 مايو الماضي من استنفار جماعات يمينية متطرفة كـ"الطريق الثالثة" التي يتزعمها سيرج أيّوب، و"الشبيبة القومية" بزعامة ألكسندر غابرياك، و"المنشأة الفرنسية" لإيفان بينيديتي للانتقام من الجالية المسلمة أولاً، وإشعال الفتنة ثانيا، إذ صرّح أمام البرلمانيين «أعتقد أن الحرب ستقع. عملية أخرى أو عمليتان، وسوف تندلع».

كان ذلك قبل عمليتي نيس وسانتيتيان دو روفري، اللتين ألهبتا المحطات التلفزيونية والمواقع الاجتماعية، وفتحتا الباب أمام اعتداءات لا تزال محدودة، كوضع رأس خنزير أمام جامع بيتون بمقاطعة با -دو كاليه، ولكنها تنبئ بشرّ عميم تلخصه عبارة "Dehors, ou la mort" (الرحيل أو الموت) التي طليت بها جدران جامع ليون. ولم يتخلف السياسيون والمثقفون في معظمهم عن توتير الأجواء، وخلق مناخ يوحي بأن الحرب الأهلية وشيكة لا مفرّ منها. فزعماء حزبي اليمين واليمين المتطرف لا يتورعون عن تخويف الفرنسيين من المستقبل المظلم الذي ينتظرهم عبر تصريحات ذات خلفية انتخابية، لا سيما أن البلاد تستعد لانتخابات رئاسية العامَ المقبل.هذه مثلا ماريون مارشال لوبان حفيدة جان ماري لوبان، مؤسس الجبهة الوطنية حزب اليمين المتطرف وزعيمه الأسبق، تعلن على الهواء انضمامها إلى جيش الاحتياط، للدفاع عن فرنسا ضد الإسلاميين، وتعلن بصريح العبارة "هم يغتالون أطفالنا، ويقتلون رجال أمننا، ويذبحون رهباننا. أفيقوا!".

ومثقفو هذين الحزبين يسيرون على النهج نفسه، إما من خلال تحاليل تكشف عن قصر نظر ومؤلفات تنبئ عن عنصرية مرضية ككتاب "فرنسا الجهادية" لألكسندر منديل، أو كتاب "الحرب الأهلية التي تأتي" لإيفان ريوفول، أو عبر أعمال استباقية ديستوبية. فبعد رواية "خضوع" لميشيل هويلبيك، التي تخيل فيها وصول عربي إلى سدّة الحكم في فرنسا وتطبيقه الشريعة الإسلامية، صدرت مؤخرا رواية جديدة لجان رولان بعنوان "الأحداث" يصور فيها فرنسا إبّان حرب أهلية، تتنازع السلطةَ فيها بقوة السلاح ميليشياتٌ إسلامية ويمينية متطرفة ويسارية راديكالية، مع نقاط تفتيش في كل رقعة من البلاد، ورايات سوداء للقاعدة في إقليم "بوش دي رون" ترفرف في ضواحي مرسيليا الشمالية، وقوات أممية مكوّنة من ضباط غانيين وفنلنديين للفصل بين المتنازعين ومحاولة حفظ السلام.

فهل يمكن أن يدفع هذا التصاعد المستمر للعنف الناسَ إلى حمل السلاح؟ وهل ينجح تنظيم داعش في إشعال الفتنة داخل فرنسا بعد أن نجح في خلق مناخ خوف ورعب؟

في آخر استطلاع رأي أجرته وكالة إيبسوس يظهر أن الفرنسيين في معظمهم "لايحسّون أنهم يعيشون في بلادهم كما قبل"، وهو رقم يبلغ نسبة 98 بالمئة لدى أنصار حزب الجبهة الوطنية المتطرف و73 بالمئة لدى أنصار حزب

الحرب الأهلية التي تأتي | ؟؟؟؟؟ | فرنسا الجهادية | الأحداث

ميشيل هويلبيك

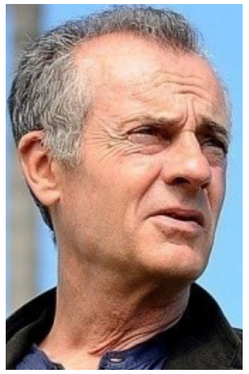

جان رولان

ألكسندر ماندیل

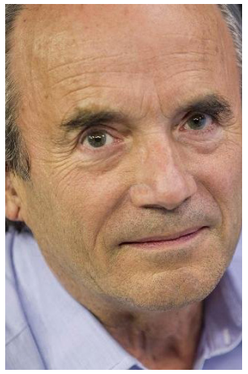

إيفان ريوفول

الجمهوريين اليميني، بسبب موجات الهجرة المتعاقبة التي تهدد في رأيهم الثقافة الوطنية. بما يعني أن نظرية "التعويض الأكبر" التي روّج لها مفكر اليمين المتطرف رينو كامو بدأت تجد صداها لدى شرائح عريضة من المجتمع الفرنسي. وصار راديكاليو هذا التيار يرفعون شعار "هم أو نحن". بل إن عددا متزايدا من الفرنسيين، بصرف النظر عن انتماءاتهم الحزبية وقناعاتهم الأيديولوجية، ما عادوا يفرقون بين الإسلام والأصولية الإسلامية، أو يرتابون من الجهاد وحده بل من الإسلام أيضا، حسب معطيات إيبسوس.

هذا الخلط تغذيه صورة الإسلام في فرنسا، لكونه لم يفلح في التماهي مع أسس الجمهورية وقيمها، بل إن ثلاثة أرباع الفرنسيين، حسب الإحصاء سالف الذكر، يعتقدون أن الإسلام يعمل على فرض نمطه على الآخرين. أي أن عددا متزايدا من الفرنسيين صاروا يساوون بين الإسلام والإرهاب، وأنه بات من الممكن اعتبار الاعتداء على أحد المساجد مثلا عملا مشروعا، كانتقام لإحدى عمليات داعش. ومن الطبيعي أن هذه الصورة المتصدعة للمجتمع الفرنسي هي التي يحاول التطرف الإسلاموي استغلالها.

فهل ستشهد فرنسا فعلا حربا أهلية، والحال أنها استطاعت أن تُخمد جِمار الفتن جميعا؟

بعد فرض فصل الدين عن الدولة في مطلع القرن الماضي، وفض الجدل حول طبيعة النظام عام 1958 بسنّ دستور شبه ملكي للجمهورية الخامسة، ساد الظن أن الحرب الوحيدة الممكنة هي الحرب الاجتماعية التي تمثل عنصرا أساسا في الميثولوجيا الفرنسية، وكانت قد بلغت ذروتها بمجازر الكميون عام 1871. حتى عودة اليسار المتطرف إلى استعمال العنف، وانتفاضات شباب الضواحي بين الفينة والأخرى لم تحوّل الصدام ضد قوى الأمن إلى ما يمكن تسميته بحرب أهلية. غير أن المواجهات الحالية والمقبلة، كما يحذر غُلاة اليمين، لن تضع وجها لوجه الطبقة الوسطى المنسية ضدّ الأثرياء أوروبيي الهوى، ولا اليسار ضدّ اليمين، أو المناطق الداخلية ضد باريس، بل "الأيديولوجيا الإسلامية الغازية، ضدّ الديمقراطيات الغربية المنهكة، بغرض أسلمة البلدان الكافرة والملحدة، ومحو الإهانة التي سلّطت على المسلمين، منذ الاستعمار إلى التدخلات العسكرية الراهنة"، كما جاء في كتاب ريوفول، مستعينة بجيش الظلّ كما يقول، و"سلبية الأحياء، وقصر نظر السلطة، وتواطؤ العملاء". إلا أن بعض المؤرخين، مثل اليهودي إيلي برنافي، صاحب أطروحة عن الرابطة الكاثوليكية خلال الحروب الدينية التي دامت ثلاثين سنة (1598-1562)، يفنّد ذلك، لأن من شروط قيام حرب أهلية في رأيه وجود معسكرين منّظمين ومسلّحين: كاثوليك ضدّ بروتستانت، شماليون ضدّ جنوبيين، جمهوريون ضد فرانكيين. وفي اعتقاده أن الشيء الوحيد الذي قد ينجم عن هذا الوضع هو خلق نظام أبارتايد، تُعزل فيه الأقليات داخل غيتو، أو أحياء حساسة حسب التعبير الفرنسي الشائع، شبيهة بالأحياء الممنوعة على السلط (no-go-zones) في الولايات المتحدة. أما عالم الاجتماع جان بيير لوغوف فيعتقد أن أنماطا جديدة من الصراع قد تتولد عن الوضع الحالي، وقد تتخذ أشكال حرب استنزاف، وأن البلاد ليست في وضع انهيار أو انحطاط كما يوهِم البعض، وإنما هي تمرّ بمرحلة دقيقة من تاريخها. أما بخصوص حاضن التطرف في الجهة المقابلة أي داعش، فيعتقد المحللون أن هذا التنظيم الإرهابي يتراجع عسكريا في سوريا والعراق، ما يجعل إقامة دولة مستقلة أمرا مستبعدا، ولذلك فهو يمر الآن إلى الطور الثاني من معركته، طور ينبني على عمليات إرهابية ينفذها أتباعه في أوروبا لخلق موجة عنف لا تمكن السيطرة عليها. والغاية كما أسلفنا هي دفع المجتمعات الأوروبية إلى معاملة جالياتها المسلمة بالمثل، وهو ما حذّر منه جيل كيبل مثلا حينما ذكّر بأن الدعوة إلى الجهاد الشامل سبقت داعش، فقد صدرت عن أبي مصعب السوري منذ عام 2004، وتمنى خلالها أن يردّ الشعب الفرنسي على عمليات الإرهاب التي ينوي الجهاديون القيام بها، ويعلن الحرب على المسلمين، فيهبّ الإسلاميون الراديكاليون حيثما وجدوا للقيام بانتفاضات متواترة. ويرى كيبل أن ردّ الفعل هو ما يريده الجهاديون كي يقطعوا نهائيا "المؤمنين" عن المجموعة الوطنية، ويشعلوا حربا أهلية يعتقدون أنهم سيخرجون منها ظافرين.

بقي أن نقول إن العلميات الإرهابية التي يقترفها بعض شباب الجاليات المسلمة وتتبناها داعش، ستؤدي حتما إلى أعمال انتقامية قد تصيب الجماعات السلفية وبعض المتشددين الشبان، ولكنها قد تتعداها إلى أبرياء لا علاقة لهم بالإسلاميين، وبالتالي فعبارة "حرب أهلية" ليست صائبة، لأن ما قد يحدث لن يكون سوى تطهير عرقي لترهيب العرب والمسلمين وطردهم من كافة أنحاء أوروبا. ويخطئ من يظن أن الديمقراطيات الغربية سوف تحول ضدّ اقتراف المجازر، ولنا في البوسنة والهرسك عبرة. ألم يصرح فرانيو توجمان رئيس كرواتيا الأسبق بأن زعماء الغرب كانوا وقتها يُظهرون ما لا يبطنون، فقد اعترف بأنهم يدينون في العلن حرب الإبادة التي كانت تُشَنّ على المسلمين، وفي لقاءات خاصة معه، يؤكدون له بأنهم لا يمكن أن يسمحوا بقيام دولة مسلمة في قلب أوروبا. فالمسألة قد تأخذ وجهة أخرى إذا ما اتسمت بطابع ديني.

ومن ثَمّ كانت أكثر دعوات التهدئة ونزع فتيل العنف تعقّلا صادرة عن رجال الدين، أولا من الكاردينال أندريه فان - تروا الذي قال في تأبينه للراهب الذبيح فرانسوا هاميل "لا نبني وحدة الإنسانية بطرد أكباش الفداء. ولا نساهم في انسجام المجتمع وحيوية الرابط الاجتماعي بخلق عالم افتراضي من الجدل والعنف اللفظي. هذا العنف الافتراضي، ينتهي دائما، بلا وعي ولكن بصورة فعلية، إلى كراهية حقيقية، ويشيع التدمير كوسيلة تطور. إن معركة الكلمات غالبا ما تؤدي إلى اعتبار العدوان كنمط علاقة أمرا عاديا، ومجتمع الثقة لا يمكن أن يتقدم إلا بحوار تُسمع فيه الخلافات وتُحترم". ثانيا، من المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، الممثل الرسمي للجاليات المسلمة، الذي دعا المسلمين في كافة فرنسا إلى حضور قدّاس الأحد حيثما كانوا تضامنا مع المسيحيين وتعبيرا عن إدانتهم للجريمة النكراء، وكان قبلها قد أنشأ هيئة للتصدي للدعاية الجهادية.

في جوّ مشحون بالخوف والتوتر، وخطاب عنصري ومعاد للإسلام لا يني يستفحل منذ أن طلع علينا نيكولا ساركوزي بفكرة "اليمين الخالي من العقد" لتسويغ مثل هذا الخطاب، لا تدري الجاليات المسلمة ما تخبئه لها الأيام القادمة.

كاتب من تونس مقيم في باريس

حادثة سعيدة حقا: المطالعة

هيثم الزبيدي

الكتابة عن حادثة أثّرت فيك وأنت طفل ليست بالسهلة.

أرى أن الانطباعات التي مر عليها الزمن إنما تكون استعادية أكثر من حقيقة كونها مفصلية ومؤثرة في وقتها. ربما من الأفضل الكلام عن سلسلة حوادث متعاقبة أو متزامنة.

تزامنت «حادثتان" مؤثرتان لا أزال أذكرهما تماما. الأولى إصرار معلمة الروضة على أن تدرسنا كتاب القراءة ونحن لا نزال بعمر خمسة أعوام، وبطريقة مكثفة وسريعة. والثانية حزمة مجلات من القصص المصورة أهداني إياها والدي. خلال أشهر قليلة حلت عقدة القراءة والمطالعة لطفل ما زال لم يبلغ السادسة من العمر.

حجّة المعلمة كانت أن الكثير من الأطفال يسجلون مبكرا في المدارس الابتدائية كـ"مستمعين" أي دون السن القانونية لعمر الأول الابتدائي، ثم ينطلقون في التعليم أسوة بغيرهم. ما كان ثمة حاجة للانتظار سنة إضافية للوصول إلى الأول الابتدائي لكي نتعلم القراءة. كانت المعلمة ذكية لأنها ركزت على القراءة ولم ترهق أيدينا الصغيرة بتحدي الكتابة. تركت القلم لسنوات قادمة.

القصص المصورة، أو المجلات كما كنّا نسميها اختصارا، كانت حلاً سحرياً لمعضلة التعثر في فهم الكلمات الكثيرة في النص المكتوب من دون صور. «الكوميكس» كما عرفناها لاحقا باسمها العالمي، ترسم القصة أولا ثم تضع فقاعة أو أكثر قرب أفواه الشخصيات لتقدم الحوار. الصور كانت تصف المشهد فكنّا كمن يشاهد فيلما أجنبياً ممتعاً ولا تخرب علينا مشاهدته و"فهمه"، فقط لأننا كنا قد نفوت بعض الجمل المترجمة أسفل الشاشة. فجأة صرنا نقرأ. لا نقرأ فقط «دار داران دوري" من منهج كتاب «القراءة الخلدونية" وهو أول كتاب للمرحلة الابتدائية في العراق، بل نقرأ قصصا كاملة. يا لها من متعة. متعة ترافقني إلى اليوم وأحس بها في كل مرة يقع كتاب «كوميكس» بين يدي.

بدأ الأمر مع شخصيات مغامرة بقوى خارقة: سوبرمان، والوطواط، والرجل المطاط، والبرق. ثم تطور إلى الطرافة مع شخصية لولو وعالم ديزني. في الصف الثالث الابتدائي دخل مكتبتي الخاصة (قاع دولاب الملابس) مجلة تان تان التي ترجمت في مصر إلى جنب مجلة سمير التي كانت مصرية بشكل شبه كامل. كانت تصل إلى العراق على شكل مجلدات. اكتشفنا أيضا معهما تاريخاً من الكوميكس المصري مع مجلة سندباد وإلى جانبها أول محاولات العراقيين دخول عالم الكوميس في مجلة «مجلتي".

لكن النهم للمطالعة ما عادت تكفيه القصص المصورة، وبدأت كتب المغامرات والجريمة والروايات العالمية المبسطة تأخذ حيزاً يوميا: المغامرون الخمسة المصرية، والشياطين 13، وأرسين لوبين، وشكسبير للأطفال. هذه كتب نصية عليك أن ترسم قصصها في مخيلتك، وهو أمر يمكن أن تتقنه جيداً بعد الآلاف المؤلفة من التخطيطات التي اعتدت على مشاهدتها في مجلات الكوميكس.

في الصفين الرابع والخامس الابتدائي صار النص أكثر حضورا من الصورة في الكتب. سلسلة العظماء في العلم والأدب (أعتقد كانت 20 كتابا)، وسلسلة معجزة (بالنسبة إلى طفل) مترجمة عن سلسلة ليدي بيرد البريطانية تحوي كل ما يخطر على بالك عن المعارف. كان التتويج في الجرأة على تمضية العطلة الصيفية بين الصفين الخامس والسادس الابتدائي في مطالعة موسوعة كاملة اسمها الموسوعة الذهبية (مترجمة في مصر أيضا) والبدء بشراء مجلدات موسوعة أخرى (مترجمة في لبنان) من تجميع مجلات بدأت تصل واسمها «المعرفة". أقرب وصف للمتعة في مطالعة هذه الموسوعات هو كأنك قرأت كل ما يأتي لك به محرك غوغل اليوم خلال أشهر الصيف والإجازة.

أجمل ما في هذا العالم السحري من «حوادث" المطالعة هو عالم موازٍ من الصداقات تشكل بسببها. فميزانية الطفل، مهما كانت أسرته متمكنة ماديا، تبقى محدودة. والحل يكمن في سلسلة من الصداقات المباشرة أو غير المباشرة التي أساسها تبادل الكتب والمجلات والمجلدات. هذه كانت أول حلقة «مثقفين" تعرّفت عليها، وأطرف ما فيها أنها خارج التراتبية التقليدية التي تقوم على الأعمار، خصوصا في المدرسة الابتدائية، لتكون بين أعمار مختلفة تتراوح بين 8 سنوات و12 سنة. يمكن أن يكون لديك صديق أكبر منك بسنتين أو ثلاث سنوات، دون إشكال طالما يجمعكما الاهتمام بالكوميكس أو كتب الألغاز. كان هناك لقاء شبه يومي قبل ساعات الحر القائظ لتبادل الكتب والمجلات، ثم قتل ساعات الظهيرة بالمطالعة، للعودة وتبادل الكتب ثانية عصراً استعدادا للفترة المسائية.

تبادل الكتب والمجلات كان، أيضاً، حلا لتعويض النقص المتاح منها في المكتبات بعد قرار رسمي عجيب يمنع استيرادها لأنها تشجع على البطولات الفردية. أغلب ما كنا نشتريه هو مجلات مستعملة تدور بين مكتبات بيع الكتب.

المطالعة، أيضاً، تؤمنك من تشدد الأهل. «إنه يقرأ. أتركوه". لا أحد يعترض على الإكثار من المطالعة مثلما يتم الاعتراض على الإكثار من اللعب أو عند المبالغة في التجول بالدراجة الهوائية.

«حوادث" الطفولة التي شكلت حياتي كانت سعيدة. كنا سعداء حقا■

كاتب من العراق مقيم في لندن